البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٨٠ . ذو الحجة ١٤٣١ هـ . ديسمبر ٢٠١٠ م

وحدة الأمة...
الفريضة المنسية

التنصير في العراق...
الحقائق الغائبة

مسيرة السلام
من أوسلو إلى واشنطن

المجتمع الأندلسي

رداء الوقار

الحج والتغيير

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

أحدث التقنيات والأجهزة الحديثة

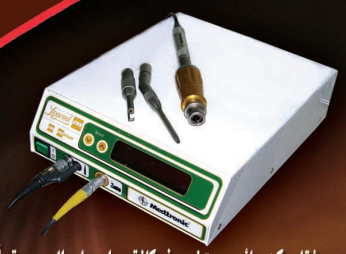

مثقاب كهربائي يستخدم في كافة جراحات الجمجمة وأورام المخ واستئصال الأجزاء العظمية من قاع الجمجمة.

الميكروسكوب الجراحي والذي يتميز بقوة تكبير وإضاءة وعدسات تتناسب وكافة جراحات المخ والأعصاب مهما كانت درجة دقتها وخطورتها .فاليوم لا حاجة إلى الشق الجراحي الكبير .فقط من١-٣ سنتيمتر يمكن إجراء معظم جراحات العمود الفقري وبالتالي يستطيع المريض الحركة بعد ساعة من إجراء العملية ، بالإضافة إلي تجنب المشاكل السابقة مثل إصابة الأعصاب والحبل الشوكي والأوردة والشرايين الدقيقة .

الجراحات النادرة التي يمكن إجراؤها بالميكروسكوب الجراحي

جراحات المخ وقاع الجمجمة.
جراحة أورام العمود الفقري والحبل الشوكي.
جراحة العيوب الخلقية للعمود الفقري عند الأطفال .
كسور الفقرات العنقية بأنواعها .

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

جهاز الموجات الصوتية رباعي الأبعاد

جهاز كروسي لينكينج

أحدث تقنية لعلاج القرنية المخروطية مع تصحيح النظر بواسطة الأشعة فوق البنفسجية

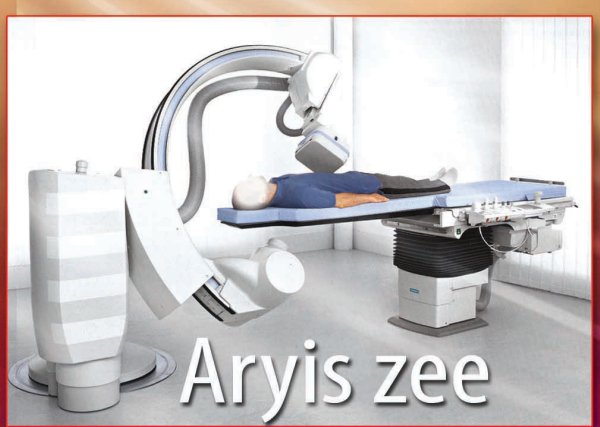

جهاز قسطرة القلب الأحدث بالمنطقة الجنوبية

أبهـــا ـ شمـال الخطوط السعودية ـ هـاتف ٢٢٩٢٢٢٢ فاكـس ٢٢٤٤٨٠١ ص ب ١٧٩٤
موقعنا على الإنترنت www.aph.med.sa البريد الإلكتروني info@aph.med.sa

الجمعية الخيرية بالبشائر

مسجلة برقم ١٤٩

البشائر. محافظة بلقرن

قال الله تعالى . .

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أخي المحسن الكريم ساهم معنا في مشاريع الجمعية

صدقتك تصرف على المشاريع التالية :

- مساعدات نقدية وعينية
- تحجيج من لم يسبق له الحج
- الدورات التدريبية والتطويرية
- تفطير الصائمين في منازلهم
- تفطير الطلاب والطالبات
- لجنة رعاية المرضى الخيرية
- بناء وترميم المساكن
- الوقف الخيري
- كفالة الأيتام والأرامل
- كسوة الشتاء والأعياد
- لجنة إصلاح ذات البين
- مشروع السقيا الخيري

حسابات الجمعية

مصرف الراجحي

إعانات : ٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٥٥٢٢٠

الزكاة : ٢٥٧٦٠٨٠١٠٠٥٥٢٠٠

البنك الأهلي التجاري

إعانات : ٤٣٧١١٥٠٥٠٠٠١٠٨

الزكاة : ٤٣٧١١٥٠٠٠٠٠١٠٩

ص.ب. ٤٠

الرمز البريدي : ٦١٩٩٥

ت : ٠٧٦٣٣٠٨٧٠ ف : ٠٧٦٣٣٠١٧١

ج : ٠٥٠٤٧٤٤٠٤٤

ماركة الهلال الساطع
BRIGHT CRESCENT MARK
أجود أنواع العسل اليمني
والمنتجات الطبيعية
Best kinds of Yemeni Honey
and Natural Products
معاصر
الشفاء
ومملكة العسل اليمني
Al-shifa Squeezers
& Yemeni Honey Kingdom
خيارك الأمثل..
The Best Choice..
Republic of Yemen - Sana'a الجمهورية اليمنية - صنعاء
Hadda Tel (+ 967-1) 505010 حدة - هاتف
Fax (+ 967-1) 505015 فاكس
Zubairi br. (+ 967-1) 249988 فرع الزبيري
Hasaba br. (+ 967-1) 254102 فرع الحصبة
Safia br. (+ 967-1) 243087 فرع الصافية
Taiz br. (+ 967-4) 250028 فرع تعز
Ibb br. (+ 967-4) 406332 فرع إب
Hodieda br. (+ 967-3) 200253 فرع الحديدة
Email: info@alshifa-honey.com
www.alshifa-honey.com

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA1380000296608010021007

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

الافتتاحية

٦ **وحدة الأمة... الفريضة المنسية**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وما وراء الحملة؟** د. سليمان بن حمد العودة

١٢ **«رفض» الخرافة «وشيعة» الدجال** د. عبدالعزيز آل عبد اللطيف

السياسة الشرعية

١٤ **السلطة التشريعية في الدولة الإسلامية** د. عطية عدلان

قضايا دعوية

٢٠ **عناية النبي ﷺ بمعرفة أحوال المدعوين** د. يوسف العليوي

قضايا تربوية

٢٤ **جبل الرماة** سالم أحمد البطاطي

معركة النّص

٢٨ **مصارع المغرقين** فهد بن صالح العجلان

نص شعري

٣٠ **أمُّ العفاف** فهد بن علي العبودي

ملف العدد

٣٢ **معالم العبودية في الحج** أحمد ذو النورين

٣٨ **مضامين خطبة النبي ﷺ في عرفة** إبراهيم الحقيل

٤٢ **رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين** د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف

٤٦ **سلوكيات الحاج: كيف تصبح منهج حياة؟** د. توفيق علي زبادي

المسلمون والعالم

٥٠ التنصير في العراق... الحقائق الغائبة
د. مجيد الخليفة

٥٦ مسيرة السلام من أوسلو إلى واشنطن
نائل نخلة

٦٠ إستراتيجية أوباما في أفغانستان وباكستان... انسحاب مدبَّر خوفاً من الهزيمة الساحقة!
موسى القلاب

٦٤ سجون الاحتلال... ملاحم وبطولات
فؤاد الخفش

٦٦ حَمَلَة الثقافة العربية الإسلامية والعمل الحكومي في غرب إفريقيا
د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

٧٠ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

عين على العدو

٧٦ مهام دموية تنتظر قائد الجيش الصهيوني الجديد — د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٧٨ عباءة الشَّعر
ترجمة الأديب: شمس الدين درمش

تاريخية

٨٠ المجتمع الأندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين من خلال شهادة المؤرّخ المعاصر (ابن حيَّان القرطبي) — أنور محمود زناتي

فكرية

٨٤ قراءة في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) للدكتور الجابري — د. غازي التوبة

بأقلامهن

٨٨ مظهر وجوهر — سارة بنت محمد حسن

الباب المفتوح

٩١ العالم الإسلامي ومقومات البعث الجديد!
مولاي المصطفى البرجاوي

الورقة الأخيرة

٩٤ رداء الوقار — أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

يهوديتهم... وعَلمانيتنا

إن إصرار الكيان الصهيوني على يهودية الدولة له أبعاد عقدية وسياسية خطيرة جداً، من أهمها:

أولاً: مركزية الدين في الخطاب السياسي اليهودي.

ثانياً: تأكيد الحق التاريخي (المزعوم) لليهود في فلسطين، أو كما يسمونها بأرض الميعاد.

ثالثاً: إلغاء حق العودة للمهجَّرين الفلسطينيين.

رابعاً: تهويد الأرض الفلسطينية عموماً، ومدينة القدس خصوصاً، وتغيير وجهها التاريخي والحضاري.

خامساً: العمل على ترحيل فلسطينيي الداخل، والسعي إلى إخلاء دولتهم من جميع العرب، أو كما سماها وزير الخارجية ليبرمان في خطابه في الأمم المتحدة بسياسة (التبادل السكاني). وهذا مصطلح مخادع يراد به انتزاع السكان الأصليين من جذورهم التاريخية وديارهم، واستنبات شذاذ الآفاق بدلاً منهم.

والمشكلة الحقيقية أن بعض السياسيين الفلسطينيين والعرب لا يدركون خطورة تداعيات هذا الخطاب الصهيوني في الحاضر والمستقبل، وينظرون إليه بتبسيطٍ شديدٍ يتجاوز معظم الحقوق الفلسطينية.

واللافت للنظر أنَّ الحماس الصهيوني (السياسي والشعبي) لمشروع (يهودية الدولة)، يقابله في العالم العربي حماس رسمي لمشروع (عَلمانية الدولة!)، والخجل من الدعوة إلى إسلاميتها، بل الحرب عليها، والتشنج في التعامل مع المطالبين بها.

لقد نجح الصهاينة في تحقيق أهدافهم المرحلية والإستراتيجية في كل مفاوضات السلام، ابتداءً من كامب ديفيد، مروراً بمدريد وأوسلو وأنابولس... وغيرها؛ لأنهم يحملون قضية عقدية يؤمنون بها، وفشل العرب؛ لأنهم بلا قضية، أو عقيدة.

وحدة الأمة... الفريضة المنسية

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد سقوط الدولة العثمانية كان المشروع الأساسي للاستعمار الغربي: هو تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وتقسيمها إلى دويلات متناثرة؛ لتضعف قوَّتها، وتتشتت طاقاتها، وتذهب ريحها، ومن ثَمَّ يسهل احتواؤها والسيطرة عليها.

وفي كل منطقة - تقريباً - اصطنع الاستعمار بؤراً حدودية متوترة لاستدعائها وإثارتها، وإذكاء الصراعات السياسية والعسكرية حولها؛ وذلك من أجل أن تُتَّخذ هذه البؤر ذريعة للتدخل في المنطقة متى أرادوا ذلك.

ولكي يضمن الغرب استمرار هذا التمزق والاختلاف أثار النزعات القومية ليفصل العرب عن عمقهم المعنوي ومحيطهم الإسلامي، ثم زرع النعرات الوطنية ليعزل الدول والشعوب العربية عن بعضها.

ولم يتوقف المشروع الاستعماري عند هذا الحد؛ فالغرب يستثمر الفرص تِلْو الأخرى؛ لتمزيق المقسَّم وإنهاكه بالصراعات الانفصالية التي تستنزف قوَّته ومقدَّراته الاقتصادية والتنموية، وتغلق دونه كل أبواب التحضر والنمو.

وفي العقد الأخير برزت مجموعة من مشاريع التقسيم، ويأتي في مقدمتها ثلاثة مشاريع أساسية:

الأول: مشروع انفصال جنوب السودان؛ تمهيداً لمزيد من تفتيته وتقسيمه وإضعافه وتشرذمه.

الثاني: مشروع تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات طائفية وعرقية، تكون ألعوبة في يد المستعمر، متنافسة على إرضائه.

الثالث: مشروع انفصال جنوب اليمن.

وهناك مشاريع أخرى في السلة الغربية تثار على استحياء بين آونة وأخرى، مثل: مشروع تقسيم الخليج، ومشروع إنشاء دولة قبطية في جنوب مصر، ومشروع انفصال الصحراء المغربية، ومشروع تقسيم دولة باكستان... والسلسلة طويلة يجر بعضها بعضاً.

والعجيب أن كثيراً من هذه المشاريع عندما تُناقَش في بعض الدوائر السياسية، وفي الإعلام العربي، تُذكَر على أنها قضايا داخلية وشأن محلي لا يُسمَح بتجاوزه، وفي الوقت ذاته يستباح هذا الحمى من الغرب نفسه؛ ليصبح ألعوبة يتطاولون بها على حقوق المسلمين.

إن التفريط في وحدة الأمة وتماسكها نازلة خطيرة تستدعي من أهل الإسلام أن يكونوا على مستوى الحدث، وأن يتخذوا ما أمكن من الحيطة والحذر؛ فقد تواترت النصوص الشرعية الآمرة بالوحدة، الحاضة على الائتلاف، الناهية عن التفرق والاختلاف، ومن ذلك قول الحق - جل وعلا -: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله - عز وجل -: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ فالله - عز وجل - يأمر عباده بالوحدة، وينهاهم عن التفرق والتنازع، ويوجب عليهم الاعتصام بحبله المتين ليتم بذلك الاجتماع وتتوحد الأمة.

إن جوهر رسالة أمة الإسلام وحدتُها واجتماعُها على تعظيم الخالق وعبادته. يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ويقول - سبحانه -: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقد كان من أول أعمال النبي ﷺ في المدينة النبوية: تأسيس المجتمع الجديد على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وإرساء دعائم المحبة والائتلاف بين جميع المسلمين، ونَبْذ كل ألوان

العصبيـــة الجاهلية التي تفـــرق الناس، وتثير نعـــرات العصبية والاختلاف؛ فآصرة الاجتماع والولاء في المجتمع الإسلامي تقوم على الإيمان باللـــه، تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ولا يتحقق إيمان الإنســـان إلا بإعادة تأسيس علاقاته وَفْقَ هذه الركيزة، امتثالاً لقول الحق – جل وعلا –: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلـة: ٢٢]. وما أجمل قول القاضـــي عياض: (والألفة إحدى فرائض الدين، وأركان الشريعة، ونظامٌ شملَ الإسلام)[١].

لقد كان المجتمع العربي في الجاهلية مؤسَّساً على التناصر والتآلـــف القبلي؛ فالقبيلة هي عصـــب القوة والعزة عند العرب، فلما جاء الإســـلام أقام بنياناً جديداً يقوم أساســـه على الأخوة في الدين، كما قال – ســـبحانه وتعالى –: ﴿إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَـيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وجعل معيار التفاضل بين الناس هو الدين. يقول – ســـبحانه –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وفي فتح مكة خطب النبي ﷺ الناس، وأعلن للملأ ركيزة تأسيس هذه الأمـــة، فقال ﷺ: «يا أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[٢] الجاهلية وتعاظمها بآبائها. الناس رجلين: بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شـــقي هيِّن على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب. قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]»[٣].

وفي حجة الوداع اســـتثمر النبي ﷺ اجتماع الناس ليعلن بجلاء أســـاس هذا البنيان واضعاً آخر اللمســـات لحياة هذه الأمة المبـــاركة، فقـــال ﷺ: «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا أحمر على أسود، إلا بالتقوى»[٤].

وعلـــى الرغم من أن إجراءً كهذا لم يكن تغييراً ســـهلاً ولا شـــكلياً في المجتمع القبلي؛ إلا أن التربية الربانية التي أسس عليهـــا النبي ﷺ علائـــق أصحابه – رضي اللـــه عنهم – كانت مؤهِّلـــة لهم للامتثال والانصياع؛ ولـــو كان تغييراً جوهرياً ينتزع عبيَّة الجاهلية وتفـــاخرَها بأحســـابها وأنســـابها. ولهذا امتن الله – عـــز وجل – على عباده بهذه النعمة الجليلة، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَـا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ثم حذرهم – ســـبحانه وتعالى – من التفريط في هذه النعمة، فقال – ســـبحانه –: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

إن الدعوة إلى الوحدة الإســـلامية ليست مشروعاً عاطفياً أو أُمنِيَة بعيدة المنال، ضعيفة الأثر، بل هي نداء صادق لتجميع طاقات الأمة، ولمِّ شملها، وتوحيد صفوفها.

لكن مشروعاً كهذا يتضمن أمرين متلازمين:

أحدهمـــا: مواجهـــة مشـــاريع الاســـتعمار والهيمنة التي تســـتهدف إضعاف الأمة، وتقسيمها وإضعافها، حتى تظل أداة طيِّعة للاستئثار بمقدراتها الإستراتيجية.

والثاني: العودة إلى عوامل القوة الحضارية في الأمة، وعلى رأسها تعزيز وحدة الصف الإسلامي.

لقد حصدت الأمة مرارة التفرق والانقسام، وأصابها الوهَن والعجـــز، وأصبحت مهيضة الجناح، ومســـتنزفة تحت مطارق الهيمنـــة الغربية، ولا يمكن أن تخرج مـــن هوانها وتخلُّفها إلا بالرجوع إلى أصولها العقدية وجذورها التاريخية، وتعض عليها بالنواجذ بكل فخر واعتزاز.

وفي هذا الشـــهر العظيم (ذو الحجة) تتجلى وحدة الحجيج القادمين من أنحـــاء المعمورة بأجمل صورهـــا، وأعظم معانيها؛ فلباســـهم واحد، ونفوســـهم تهفو إلى بيت واحد، وأكفُّهم ترتفع خاضعة لرب واحد لا شريك له، وجموعهم تصلي إلى قبلة واحدة، ونُسُكهم يجري وَفْقَ شريعة واحدة، وفي وقت واحد، وهي فرصة لبناء الجســـد الواحد، امتثالاً لقول النبـــي المصطفى ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجســـد الواحد، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٥].

إنها فرصة أن يتداعى العلماء والدعاة والمصلحون للتحذير من لوثات الجاهلية العصبية، ويســـعو إلى تأكيد معاني الأخوة والتعاون على البر والتقـــوى، وإحياء عوامل الوحدة في الأمة، ورصِّ الصفوف على كلمة التوحيد الجامعة، امتثالاً لقول الحق– تبارك وتعالى –: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٢ – ٢٠١)، تحقيق خليل شيحا.
(٢) العبية: الكبر والفخر، لسان العرب، مادة (عبب)، (٩/٨).
(٣) أخرجه: الترمذي في كتاب تفسير القرآن، رقم (٣٢٧٠).
(٤) أخرجه: أحمد، رقم (٢٣٥٣٦).
(٥) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، رقم (٦٠١١). ومسلم في كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٦).

أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -

وما وراء الحملة؟

د. سليمان بن حمد العودة(*)

صحابة رسول الله ﷺ نجوم الأرض كما الكواكب نجوم في السماء، رضي الله عنهم وأرضاهم. وليس فوق تزكية الله لهم تزكية، وليس فوق الجنة منزلة وقد أُعدَّت لهم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولئن كانوا بشراً غير معصومين من الخطأ، فما انقطع الوحي من السماء حتى تاب الله عليهم وأكرمهم وخلَّد ذكرهم وشاع الثناء عليهم في الخافقين؛ وليس لأحد أن يغمزهم أو يتقصدهم بسوء والله - تعالى - يقول: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وأكد الحبيب الذي لا ينطق عن الهوى خيريتهم وفضلهم على القرون فقال ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم...» الحديث[1]، ونهى عن سبِّهم وأذيتهم فقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه»[2].

(*) أستاذ التاريخ في جامعة القصيم.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

أيها المسلمون! عقيدة أهل السنة والجماعة في محبة الصحابة وتقديرهم والدفاع عنهم رسم معالمها القرآن الكريم، وأعظم شاهدٍ عليها محمد ﷺ، ومن حاد عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ فسحقاً له وتبّاً، ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون، كما أن عدالة الصحابة - رضوان الله عليهم - عند أهل السُّنة والجماعة من مسائل العقيدة القطعية ومما هو معلوم من الدين بالضرورة، وليس يطعن فيهم إلا من في قلبه غِلٌ، أو في معتقده خلل.

وأمهات المؤمنين الطاهرات المطهرات، اختارهن الله ليكنَّ أزواج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، وحكم - وهو أصدق الحاكمين - في كتابه الكريم: ﴿**الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [النور: ٢٦].

وبنص القرآن أذهب الله عن أهل البيت الرجز وطهرهم تطهيراً، وتليت في بيوت نساء النبي آيات الله والحكمة؛ فهل بعد هذا الثناء والتزكية مدخل أو طريق للفتنة؟

وأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في طليعة النساء وأفضل وأحب نسائه إليه ﷺ؛ ففي صحيح البخاري وغيره قال ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

إنها الصديقة بنت الصديق بُعثَ لها السلام من السماء، وبلَّغها رسول الله ﷺ سلام شديد القوى (جبريل عليه السلام)؛ ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال لها يوماً: «يا عائشُ هذا جبريل يقرؤك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى»، تريد رسول الله ﷺ.

أجل لقد تأثَّر رسول الله ﷺ حين طلبت أمهات المؤمنين ومتحدثتهن أم سلمة أن يأمر الناس أن يُهدُوا إليه حيث كان ولا يتحروا بهداياتهم يوم عائشة، فأعرض رسول الله ﷺ عن الطلب، حتى إذا أكثرت عليه أم سلمة قال لها: «يا أم سلمة! لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه - والله - مانزل عليَّ وحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها»[2]. قال ابن حجر - رحمه الله -: (وفي هذا الحديث منقبة عظيمة لعائشة، رضي الله عنها)[3].

وإذا اعتبر رسول الله ﷺ هذا الطلب البسيط أذى؛ فكيف بمن يؤذي عائشة ومِن ورائها رسول الله ﷺ بما هو أعظم من هذا؟ وإذا تابت أم سلمة؛ كما في رواية أخرى أنها قالت: (أتوب إلى الله، تعالى)[4]، أفلا يتوب إلى الله كلُّ من زل لسانه أو خط قلمه إثماً وبهتاناً على عائشة؟

إن الأذية لأحدٍ من أزواجه ﷺ أو أهل بيته المؤمنين أو أصحابه أجمعين أذية لرسول الله ﷺ: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

لقد ترجم الإمام الذهبي - رحمه الله - لعائشة - رضي الله عنها - في سير إعلام النبلاء وأطال وأثنى، معتمداً على أحاديث المصطفى ﷺ وتزكيات العلماء، ومما ساقه حديث البخاري ومسلم في سؤال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - للنبي ﷺ؛ حيث قال: «أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها»[5]. ثم علق الذهبي قائلاً: (هذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض وما كان عليه السلام ليحب إلا طيباً... فأحبَّ أفضل رجل من أمته وأفضل امرأة من أمته؛ فمن أبغض حبيبَي رسول الله ﷺ فهو حري أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله)[6].

وأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - لا غرو أن تكون محل الثناء والحب والتقدير من لدن الأكابر من صحابة رسول الله ﷺ؛ فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يزيد في عطاء عائشة عن أمهات المؤمنين؛ إذ فرض لهن عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين وقال: (إنها حبيبة رسول الله ﷺ)[7] وأبو موسى - رضي الله عنه - يقول: (ما أشكل علينا أمرٌ فسألنا عنه عائشة - رضي الله عنها - إلا وجدنا عندها علماً)[8]. وبرغم أنوف الروافض هذا علي، رضي الله عنه - مع ما وقع بينهما - يثني على عائشة ويقول: (إنها خليلة رسول الله ﷺ)[9]. ويستمر ثناء الصحابة - وهم خير الشهود - على عائشة حتى فارقت الدنيا، وهذا ابن عباس - رضي الله عنهما - جاء يستأذن على عائشة فقيل: (هذا عبد الله بن عباس يستأذن - وهي تموت - فقالت: دعني من ابن عباس، فقال: يا أمتاه! إن ابن عباس من صالحي بنيك ليسلِّم عليك ويودعك، فقالت: ائذن له إن شئت. قال: فادخلته فلما جلس قال: أبشري. فقالت: أيضاً. فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد؛ كنت أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ حتى يصبح في المنزل، وأصبح الناس

(١) الفتح: ٧/١٠٦.
(٢) رواه البخاري: ح٣٧٧٥.
(٣) الفتح: ٧/١٠٨.
(٤) البخاري، الفتح: ٧/١٠٨.
(٥) البخاري: ٧/١٨، ح٣٦٦٢، ومسلم: ح٢٣٨٤.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٢/١٤٢.
(٧) الطبقات لابن سعد: ٨/٦٧.
(٨) الإصابة: ١٣/٤٠.
(٩) حسنه الذهبي في السير: ٢/٧٧.

ليس معهم ماء فأنزل الله – عز و جل – ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦] فكان ذلك في سببك وما أنزل الله – عز و جل – لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء به الروح الأمين فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يذكر الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار. فقالت دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً)[١]

ولم يكن الشعر والشعراء بمعزل عن مشهد عائشة والثناء عليها والدفاع عنها، ولا سيما ممن أيده الله بروح القدس، فحسان بن ثابت – رضي الله عنه – يقول في عائشة:

رأيتُك – وليَغْفر لكِ الله – حرةً
من المحصَنات غَيْر ذاتِ غوائلِ
حَصَانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ
وتصبح غَرْثى من لحوم الغوافلِ
عقيلةُ حيٍّ من لؤي بن غالبٍ
كرام المساعي مجدهم غيرُ زائلِ
مهذبةً قد طيَّب الله خِيْمَها
وطهَّرها الله من كل سوءٍ وباطلِ
فإن كُنتُ قد قلتُ الذي قد زعموا
فلا رفَعَتْ سوطي إليَّ أناملي
وكيف وُدِّي ماحييتُ ونصرتي
لآل رسول الله زَيْن المحافلِ
فإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ
ولكنه قول امرئ متماحلِ[٢]

وحينما قيل لعائشة: إن حساناً شارك في حديث الإفك اعتذرت عنه وقالت: أليس هو الذي يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمدٍ منكم وقاء[٣]

وكذلك سار قطار التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى تقدير أم المؤمنين عائشة والثناء عليها؛ فهذا (مسروق) – رحمه الله – كان إذا حدَّث عن عائشة – رضي الله عنها – قال: (حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سموات)[٤].

لقد فاقت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – غيرها في علم الدين والدنيا؛ فهذا عروة بن الزبير – رحمه الله – كان يقول لعائشة: (يا أمتاه، لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة نبي الله وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ ومن أين هو؟ وما هو؟ قال: فضربت على منكبه وقالت: أي عريَّه! إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له، فمن ثَمَّ)[٥]. وبلغ إعجاب الذهبي بعلم عائشة حدّاً قال معه: (ولا أعلم في أمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقاً امرأة أعلم منها)[٦].

أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – جمعت خِلالاً أخرى واختصت بمزايا قالت عنها: (توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سَحري ونَحري، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك رطب، فنظر إليه حتى ظننت أنه يريده فأخذته فمضغته ونفضته وطيبته ثم دفعته إليه فاستَنَّ به كأحسن ما رأيته مستناً قط، ثم ذهب ليرفعه إليَّ فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل حتى رفع بصره إلى السماء وقال: الرفيقَ الأعلى، وفاضت نفسه؛ فالحمد لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا)[٧].

ما أحبَّ عائشةَ إلا مؤمن، وما أبغضها إلا منافق، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] اللهم إنا نشهدك على محبة عائشة ومحبة حبيبها ﷺ وأبيها أبي بكر – رضي الله عنه – اللهم واحشرنا معهم وافضح من نالهم بسوء.

إن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – شمس لا يمكن حجب نورها، إنها في كل بيت، وعلى كل لسان، وفي كل عصر ومصر لا يكاد يخلو منها كتاب، ولا تكاد تخطئ فضائلها عين أو تغيب مناقبها عن سمع؛ هي ملء السمع والبصر، وحمقى أولئك الذين يشغبون عليها أو يظنون أنهم يحجبون شيئاً من أنوارها.

ففي سورة النور نور وبرهان وفرقان وبلاء وبهتان؛ لقد صال المنافقون وارجفوا واتهموا بيت النبوة، ورامو النيل من الإسلام وأهله، حتى إذا زُلزل أهل الإيمان كشف الله الغمة، وفضح أهل النفاق، ومع عِظَم البلاء، نزلت البراءة من السماء فكانت بياناً وتزكية للصديقة عائشة إلى يوم الدين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم

(١) أخرجه إحمد وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن خثيم فمن رجال مسلم.
(٢) السيرة لابن هشام: ٣/ ٣٢٤، الاستيعاب لابن عبد البر: ١٣/ ٩٠.
(٣) الاستيعاب: ١٣/ ٩٢.
(٤) الحلية: ٢/ ٤٤، السير: ٢/ ١٨١.
(٥) السير: ٢/ ١٨٢.
(٦) السير: ٢/ ١٤٠.
(٧) أخرجه أحمد: ٤٨١٦، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك: ٤/ ٧، والسير: ٢/ ١٨٩.

﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ ، ولقد وقف المفسرون عند آيات الإفك وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فقال ابن كثير: (هذا وعيد من الله - تعالى - للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب (المؤمنات)، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سببَ النزول، وهي عائشة بنت الصديق - رضي الله عنهما - وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ورماها به بعد هذا الذي ذُكِر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن)[1].

وقبله قال القرطبي عند قوله - تعالى -: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]: (فكل من سبَّها بما برأها الله منه مُكذِّبٌ لله، ومن كذَّب الله فهو كافر)[2].

إنه لن يضير أمَّ المؤمنين إرجاف المرجفين وقد تولى الله بنفسه الدفاع عنها وتبرئتها، بل كلما زاد الإجاف والبلبلة والتهم الباطلة زاد معه الحبُّ لعائشة، وعلم الناس من فضائلها ومقامها ما جهلوا، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يفقهون.

إنها لا تحتاج إلى دفاع أحد بعد دفاع الله عنها ولن يضيرها شماتة المرجفين وبعض الحاقدين وقد أحبها خيرة خلق الله أجمعين، ومما ينبغي أن يُعلَم أن عائشة ليست أول من رُمي بالفاحشة من الصالحين؛ فقد سبقها بالتهمة طاهرون وطاهرات؛ فيوسف - عليه السلام - قيل عنه: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] ، ومريم قال لها قومها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨]. قال القرطبي: (قال بعض أهل التحقيق: إن يوسف - عليه السلام - لما رُمِي بالفاحشة برأه الله على لسان صبي في المهد، وإن مريم لَمَّا رميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى - صلوات الله عليه - وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله - تعالى - بالقرآن؛ فما رضي لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برأها الله بكلامه من القذف والبهتان)[3].

ولكن السؤال المهم: ماذا وراء الإرجاف والبلبلة في صديقة الأمة ؟ لئن استهدفت عائشة - رضي الله عنها - ظاهراً فوراء الأكمة ما وراءها، والمشروع المتآمر يتجاوز عائشة إلى استهداف رموز الإسلام وحَمَلة القرآن والسُّنة، (والخيِّران). أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - ليسا بمعزل عن تُهَم مَنْ لا خلاق لهم، وإنه لمن المعيب أن تُنسَب مصنفات لأهل الإسلام جاء فيها - كما يقول المجلسي -: (ومما عُدَّ من ضروريات دين الإمامية، استحلال المتعة، وحج التمتع، والبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية)[4]، بل يتجاوز الطعن إلى شخص الرسول ﷺ؛ حيث اتُّهِمَ بيته ورميت بالفاحشة حبيبته، بل يتجاوز الطعن من شخصه إلى سنته؛ حيث روت عائشة - رضي الله عنها - طائفة كبرى من سنته، وقد بلغ ما أسندته ألفين ومائتين وعشرة أحاديث[5]، بل يروم المغرضون والطاعنون في أم المؤمنين التشكيك في أحكام الدين، وقد قيل: إن ربع الأحكام الشرعية منقول عن عائشة، رضي الله عنها[6]، ويرومون التشكيك في القرآن وتكذيب آياته، ويبلغ التطاول مداه حين يكون على رب العالمين؛ حيث يعترض على تبرئته لعائشة - رضي الله عنها - من فوق سبع سموات؛ فماذا بقي؟ وأي إسلام هذا؟

إن القضية التي تدور رحى فتنتها هذه الأيام، ليست وليدة اليوم، وليست مجرد نزوة فردية، بل هي عقيدة راسخة، وتراث تتجدد طبعاته وهو يفيض بالطعن والسبِّ لا لعائشة وحدها، بل لجمهور الصحابة، وخليق بأصحاب هذا المذهب أن يعلنوا براءتهم منه؛ إن كانوا رافضين لسب أم المؤمنين عائشة[7].

إنها ثقافة متجذرة، ودول تخدم هذا المذهب وتسيِّس الدين وتصدِّر الثروة وتُشعِل الفتنة، وعلى المسلمين كافة أن ينتبهوا للخطر وحجم المنكر، ولا يجوز بحال، في زمان اصطفاف المسلمين في مواجهة التحريف والتشويه والسخرية بالإسلام ونبيِّه، والتهديد بإحراق القرآن، واتهام أهله، لا يحوز أن تزيد طوائف تُنسَب إلى الإسلام وأهله الطين بِلَّة وتوسِّع دائرة التهم والسخرية والبلبلة والفتنة، وعلى كل من سعى بالفتنة وفرَّق الصف من الله ما يستحق، والمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وما تعرَّض أحدٌ لأهل الإسلام الكبار بسوء إلا خذله الله في قديم الزمان وحديثه. أما أم المؤمنين فستظل منارة يقبس منها أهل الإسلام، وستظل شهاباً محرقاً لأهل الزيغ والزندقة والفساد، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) تفسير ابن كثير عند آية النور: ٣/٤٥٦.
(٢) تفسير القرطبي: ١٢/٢٠٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٢١٢.

(٤) الاعتقادات للمجلسي: ٩٠ - ٩١ عن كتاب: أصول مذهب الإمامية الإثني عشرية د.ناصر القفاري.
(٥) الذهبي: السير: ٢/١٣٩.
(٦) الفتح: ٧/١٠٧.
(٧) إننا نقبل من الشيعة أن يستنكروا الطعن في أم المؤمنين عائشة، لكننا لا نقبل أن تظل مصنفاتهم ومصنفات مشايخهم طافحة بالسب والطعن لجمهور الصحابة، كما لا نقبل أن تظل مواقعهم الإلكترونية وقنواتهم الفضائية كذلك.

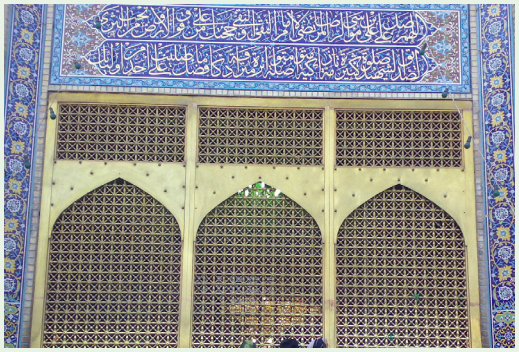

«رفض» الخرافة «وشيعة» الدجال

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)

www.alabdulltif.net

ساق آية الله البرقعي حكايةً واقعيةً فقال: (ذهبتْ ناقةٌ داخل صحن الإمام الرضا في مشهد خرسان فأحاطها الناس، وأحدثوا صخباً، وقالوا: إن الناقة أتت لزيارة الإمام، وبدؤوا يجزُّون شعرها تبرُّكاً بها، وآذوها بذلك حتى ماتت.

وبعد ذلك جاء أحد علماء الشيعة ومجتهديهم إلى بيتي وسألني: ماذا تقول في هذه المعجزة وأن الناقة أتت إلى الزيارة؛ هل تنكر ذلك؟ فسألتُه: لماذا تراها أتت تلك الناقة بالذات ولم تأتِ غيرُها؟ هنا أجابني ذلك المجتهد: إن هذه الناقة كانت شيعية، وبقيَّة النوق سنِّية)[1].

ولئن كانت هذه الواقعة تكشف عن خَواء الوجدان والإيمان عند الرافضة؛ إذ جانبوا الإيمان والتقوى، فحُرِمُوا ولاية الله – تعالى – وأجدبوا من كرامات الأولياء والصالحين؛ ولذا هوَّلوا من شأن هذه الناقة (المنكوبة بغلوهم وتبرُّكهم)، وقد أبان ابن تيمية – رحمه الله – عن ذلك بقوله: (لكن الرافضة لجهلهم وظلمهم وبُعدهم عن طريق أولياء الله، ليس لهم من كرامات الأولياء المتقين ما يُعتدُّ به؛ فهم لإفلاسهم منها إذا سمعوا شيئاً من خوارق العادات عظَّموه تعظيم المفلس للقليل من النقد، والجائع للكسرة من الخبز)[2].

لئن كان الأمر كذلك، فإن الأشنع من ذلك كله، هو أن مذهب الرافضة لا يروج إلا بالأساطير والأوهام، والخرافات والأكاذيب؛ فهم مولعون بالأفك والبهتان، وإنكار الضروريات والقطعيات؛ فيكذِّبون النقول الصحيحة، ويصادمون العقول الصريحة، ويناقضون الفطر السويَّة؛ (فالقوم من أكذب الناس في النقليات، ومن أجهل الناس في العقليات، ويصدقون من المنقول بما يعلم العلماء بالاضطرار أنه من الأباطيل، ويكذِّبون بالمعلوم من الاضطرار المتواتر أعظم تواتر في الأمة جيلاً بعد جيل)[3].

وشغب الرافضة لا ينقضي، ونزقهم وفجورهم في الخصومة فوق الحسبان؛ لا سيما في هذه الأزمان، ولا ريب أن مدافعتهم ومجالدتهم من أجلِّ القربات وأنفع الطاعات؛ إلا أن آكد أوجه المدافعة وأنكاها: كشف عوار أصل الإمامة وبيان تناقضه وتهافته؛ فالإمامة أهم أصول الرافضة؛ (فهي الأصل الذي تدور عليه أحاديثهم، وترجع إليه عقائدهم، وتلمس أثره في فقههم وأصولهم، وتفاسيرهم وسائر علومهم)[4].

فسراب الإمام الغائب المعدوم هو دين القوم المتهافت، وسعيهم الكادح، وهو الذي أفسد دينهم، وطمس عقولهم، واستنزف أموالهم.

وإذا تبيَّن أهمية نقض هذا الأصل، فلا يصلح أن تُبَعثَر جهود أهل السُّنة تجاه الرافضة في الانهماك في مدافعة جزئيات متفرقة أو مسائل متعددة.

وقد فطن علماؤنا إلى نقض هذا الأصل ونسفه، وتنوَّعت أساليبهم في هذا الشأن.

فمما حرره القاضي أبو يعلى في بطلان (الإمامة) قوله: (الإمام منصوب للذبِّ عن حريم المسلمين، ولينصر الحق، ويدفع الباطل، وينتصف المظلوم من الظالم، ويبيِّن الحلال من الحرام، ويقاتل عن دين الله، ويقيم الناس على الطريقة المستقيمة، وهذه المعاني معدومة في المعدوم الذي لا يوجد في بَرٍّ ولا بحر، ولا سهل ولا جبل. ولأن هذه الطائفة تقول: إنَّ أحداً لا يعرف حقيقة دينه إلا بأن يأخذه من إمامه، ولو كان كذلك لم يُحجَب عنهم؛ لأن في ذلك تكليف ما لا يطاق؛ لأنه كلَّفهم الاقتداء بمن قد أحال بينهم وبينه من غير دليل.

وما هم في دعواهم (إمامة الغائب المعدوم) إلا كقول بعض الصبيان:

زعم الزاعم في بلدتنا
جمل في كوَّة البيت دخلْ
قلت: لا أعلم ما بلدتكم
هذه الكوَّة فادخل يا جملْ»[5]

وأورد ابن حزم اضطراب الرافضة في شأن الإمام المعدوم، ثم قال: (وكل هذا هَوَس، ولم يُعقِب الحسن[6] المذكور لا ذكراً ولا

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

(١) كسر الصنم: ص ٢٥٠.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٨/٢٠٣.

(٣) منهاج السنة النبوية: ٨/١.

(٤) أصول مذهب الشيعة للقفاري: ٢/٦٥٣.

(٥) المعتمد في أصول الدين: ص ٢٥٩ = باختصار.

(٦) أي: الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر عند الرافضة).

أنثى، فهذا أول نَوْك (حمق) الشـيعة، ومفتاح عظيماتهم، وأخفُّها، وإن كانت مهلكة)[1].

وناظر ابنُ تيمية أحد شـيوخ الرافضة بشـأن الإمامة، فكان مما سـطَّره ما يلي: (قلتُ له: فأنا وأنت طالبان للعلم والحق، وهم يقولون: من لم يؤمن بالمنتظر فهو كافر؛ فهذا المنتظر: هل رأيته؟ أو رأيتَ من رآه؟ أو تعـرف شـيئاً من كلامه الذي قاله هو؟ أو ما أمر به أو ما نهى عنه مأخوذاً كما يؤخذ عن الأئمة؟ قال: لا.

قلـت: فأي فائدة في إيماننا هذا؟ وأي لطف يحصل لنا بهذا؟ ثم كيف يجوز أن يكلِّفنا الله بطاعة شخص، ونحن لا نعلم ما يأمرنا بـه، ولا ما ينهانا عنـه، ولا طريق لنا إلى معرفـة ذلك بوجه من الوجوه؟ وهم من أشـد الناس إنكاراً لتكليف ما لا يطاق؛ فهل يكون في تكليف ما لا يطاق أبلغ من هذا؟)[2].

وحدِّث ابـن القيم عن خرافة المنتظر فقـال: (إنه الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار، دخل سرداب سامرَّاء طفلاً صغيراً، فلم تـرَه بعد ذلك عين، ولم يُحَسَّ فيه بخبـر، ولا أمر، وهم ينتظرونه كل يوم... ثم يرجعون بالخيبة والحرامان، فهذا دأبهم ودأبه... لقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كلُّ عاقل)[3].

وقد أطال عبد العزيز الدهلوي في الرد على أصل الإمامة وشبهاتهم، وكشـف عن اضطرابهم واختلافهم في ذلك؛ فدعواهم أن الإمام الغائب اختفى خوفاً من القتل، منقوض بقولهم: إن موت الأئمة باختيارهم[4].

وأمـا قولهم عـدم تصرف الإمـام لأجل كثرة الفسـاد وقلة الأنصار، فأجاب عنه الدهلوي قائلاً: (قد كثر محبُّوه وناصروه في زمـن الدولة الصفوية أكثر من رمل الصحاري والحصى، والاختفاء منافٍ لمنصب الإمامة الذي مبناه على الشجاعة والجرأة؛ فهلاَّ خرج وصبر واستقام إلى أن ظفر؟)[5].

وقـال الدهلوي فـي موضع آخر: (والحق مـن تأمَّل في هذا المذهـب تأمُّلاً صادقاً، فقـد علـم باليقين أن سـبيل النجاة في هذا المذهب مسدود، وطريق الخلاص من مضيق التعارض فيه مفقود؛ فبالضرورة يتركه... وذلك أن الشـيعة لهم روايات كثيرة متعارضة عـن أئمتهم؛ بحيث يروون عن كل إمام كلاماً مخالفاً للإمام الآخر، ومخالفاً لكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ)[6].

ومـن غلوِّ الرافضة في الأئمة: مقالتهم بالحلول والاتحاد؛ فإن عقيدة الحلول ووحدة الوجـود قد عَلِقت بعقولهم؛ فزعموا أن الله – تعالـى – والأئمة قد اختلطـوا وامتزجوا – تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً – فنسب الكليني في الكافي إلى جعفر الصادق أنه قال: (ثم مَسَـحَنا بيمينه، فأفضى نوره فينا... ولكن الله خلطنا بنفسه)[7].

وإذا كان الرافضة أرباب وَلَه وغـرام بأنماط الدجل والخرافات، ثم هم يقـررون اتحاد الخالق بالمخلوق، ويدَّعـون الإلهية والتدبير المطلق لأئمتهـم؛ فكيف إذا خرج الدجال الأكبـر الأعور بخوارقه الهائلة، ودعواه العريضة بأنه الله؟

ولما ذكر ابن تيمية طَرَفاً من الأحاديث الصحيحة في الاستعاذة من فتنة الدجال، أشـار إلى أتباع الدجال وشيعته فقال: (وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر أصحابه بهذا التعوُّذ خارج الصلاة أيضاً، وقد جـاء مطلقاً ومقيَّداً في الصلاة. ومعلوم أن ما ذُكِر معه من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، أُمر به كل مصلٍّ؛ إذ هذه الفـتن مجربة على كل أحد، ولا نجاة إلا بالنجاة منها، فدلَّ على أن فتنـة الدجال كذلك، ولو لم تصب فتنتـه إلا مجرد الذين يدركونه لـم يؤمر بذلك كلُّ الخلق، مع العلم بأن جماهير العباد لا يدركونه، ولا يدركه إلا أقـلُّ القليل من الناس المأمورين بهذا الدعاء، وهكذا إنـذار الأنبياء إياه أممَهم – حتى أنذر نوح قومه – يقتضي تخويف عموم فتنته، وإن تأخَّر وجود شـخصه حتى يقتلَه المسيح بن مريم، عليه السلام. وكثيراً ما كان يقع في قلبي أن هؤلاء الطائفة ونحوهم أحق النـاس باتباع الدجال؛ فإن القائلين بالاتحاد والحلول – كقول النصارى في المسيح، والغالية الهالكة في عليٍّ أو فيه وفي غيره؛ كما ذهب إلى ذلك طوائف من غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة – لا يمتنع على قولهم أن يكون الدجال ونحوه هو الله)[8].

وأخيراً فلا بد من تبديد هـذه الظلمات ودحضها، وإظهار نور الوحي والسُّـنة، وتبليغ رسالات الله – تعالى – ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ثم دعوة الرافضة والنظر إليهم بعين الرحمة والإشفاق، وحثِّهم على إعمال عقولهـم، وتحريرها من رِقِّ اسـتبداد الملالي والآيات؛ فـإن البحث والتحقيـق، والنظر والتفكير يعقبـه الإيمان الصحيح وبـرد اليقين، وكما قال أحد عقلاء الشـيعة (آيـة الله الخوئيني): (بعد خمسـين سـنة من البحث والمطالعة ومعرفة الإسلام والبحث في مختلف المذاهب الفلسـفية والعرفانية وأفـكار الغلاة ومختلف المذاهـب، وصلتُ إلى النتيجة: أن حقيقـة الدين هو القرآن الكريم؛ فإن القرآن يدعونا مراراً إلى قراءته والتدبُّر والتفكر فيه. وسبب كل هذا الضلال والحيرة هو عدم قراءة القرآن والتدبر في القرآن)[9].

وكان يقول: (تركتُ منصباً بعدما كنتُ مرجعاً للمذهب كالآخرين ابتغـاء وجه الله. لو لم أترك لكنت خائناً، لن أكون من أهل التزوير، ولن آخذ أموالاً من الناس، ولن أكون إلى ترويج المذهب، بل سأكون موحداً ومتبعاً للإسلام)[10].

(١) الفِصَل في الملل والنحل: ١٨١/٤.
(٢) منهاج السنة: ١٠٢/١ – ١٠٣.
(٣) المنار المنيف: ص ١٥٢.
(٤) مختصر التحفة الإثني عشرية: ص ١١٨.
(٥) مختصر التحفة الإثني عشرية: ص ١١٩.
(٦) المرجع السابق: ص ١٩٠.
(٧) انظر: أصول مذهب الشيعة للقفاري: ٢/ ٥١٨ – ٥٢٠.
(٨) السبعينية (بغية المرتاد): ص ٥١٤.
(٩) أعلام التصحيح والاعتدال لخالد البديوي: ص ٢٢٩.
(١٠) المرجع السابق: ص ٢٣٠.

السلطة التشريعية في الدولة الإسلامية

د. عطية عدلان

لا ريب أن السيادة في الدولة الإسلامية لشرع الله، عز وجلَّ. وأن هذه السيادة إنما تتحقق بإقرار منهج الله وتحكيم شريعته، وأنه لا يسع الدولة الإسلامية ولا الأمة المسلمة أن تتخذ لنفسها دستوراً مستمَداً من غير دين الله الذي ارتضاه لعباده. قال - تعالى -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] .

وإذا كان الحديث عن تقرير هذه السيادة والاستدلال عليها مهمّاً فإن الحديث عن الجهة التي يناط بها - قبل غيرها - تحقيق هذه السيادة وحَمْل الأمة (حكاماً ومحكومين) على الخضوع لها لا يقل عنه أهمية؛ فحديثنا إذن عن: السلطة التي تسمى (السلطة التشريعية)؛ فما حقيقة هذه السلطة في النظام الإسلامي؟ وما حدود صلاحياتها؟ وكيف تتشكل؟ وكيف تؤدي دورها؟ وما قواعد عملها؟ وأين وجودها في التاريخ الإسلامي؟

لم يُعرَف هذا المصطلح (السلطة التشريعية) في الفقه السياسي الإسلامي، ولم يُستخدَم في تاريخ الدولة الإسلامية، ولكن الكيان الذي يمكن أن يطلَق عليه هذا المصطلح كان موجوداً، وكان يمارِس عمله كما يدل عليه المصطلح؛ لذلك لا غضاضة من استخدامه والتعبير به عن وضع كان موجوداً ويمكن أن يوجد وعن نظام كان قائماً ويمكن أن يقوم.

السلطة التشريعية في التعريف الدستوري هي: «السلطة المتخصصة بعمل القوانين، وتقوم مع ذلك بالإشراف على أعمال السلطة التنفيذية»[1]؛ فهي السلطة المسؤولة - إلى

(١) السياسة الدستورية للدورة الإسلامية، د. إبراهيم النجار، رسالة دكتوراه سنة ١٩٣٦م، بمكتبة كلية الشريعة والقانون بالقاهرة: (ص٣٩٨).

جانب مراقبتها للحكومة - عن وضع القوانين الملزمة التي لا يسع أحداً تجاوزها.

والكلمة المقابلة للقانون في الإسلام هي كلمة الشرع، ولكن شتان بين اللفظين وما يشتمل عليه كلٌّ منهما؛ فإذا كان القانون هو القواعد والأنظمة والأحكام والمبادئ التي وضعها الإنسان لينظم بها حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، فإن الشرع قانون بهذا المعنى ولكنه يمتاز عن القانون بأنه من صنع الله لا من صنع البشر؛ ومن ثَمَّ فإن الشرع لا يعتريه ما قد يعتري القوانين من الخلل والاضطراب والنقص. والقوانين لا يتسنى لها أن تبلغ من الإحكام والكمال ما قد بلغه الشرع.

والشرع في اللغة: مصدر شَرَعَ (بالتخفيف)، والتشريع: مصدر شرَّع (بالتشديد)، والشريعة في كلام العرب[1] وردت على معانيَ تدور كلها حول: الرِّي والطهر واليسر والاستقامة والاتساع، وهي أيضاً بمعنى: ما شرع الله لعباده من الدين. قال - تعالى -: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ويطلقون الشريعة كذلك على ما ظهر واعتدل واستقام من المذاهب، وعلى الطريق المستقيم المعتدل، والشارع عند العرب: الطريق الأعظم.

وهكذا تتميز شريعة الله - تعالى - عن القوانين البشرية بهذه المميزات التي دل عليها الاستعمال اللغوي لكلمة شريعة. وهذه المميزات تنبثق منها جميع خصائص التشريع الإسلامي التي دل عليها الكتاب العزيز والسُّنة المشرَّفة، ودل عليها منطق الشريعة وواقعها، ودل عليها كذلك التاريخ والتجربة والواقع.

وهذه جملة من الآيات القرآنية الدالة على صفات الشريعة الإسلامية وخصائصها: قال - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإذا أردنا أن نُعَرِّف الشريعة الإسلامية تعريفاً اصطلاحياً، فإننا نقول: إنها «ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونُظُم الحياة في شُعبها المختلفة لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة»[2].

السلطة التشريعية (شروطها وصلاحياتها):

أما السلطة التشريعية في المفهوم الإسلامي فهي: «السلطة المؤلَّفة من صفوة علماء الشريعة المجتهدين، وهي المكلفة باستخلاص الأحكام الشرعية من مصادرها، والتعريف بها ووَضْعها لدى الدولة موضع التنفيذ، وهي المنوط بها الإشراف على السلطات الأخرى فيما يتعلق بتنفيذ الشريعة وتطبيق أحكامها، والمعهود إليها مع بقية أهل الشورى ومع سائر أهل الحل والعقد، بالرقابة على الحكومة ومحاسبتها».

ومن هذا التعريف يتضح لنا الآتي:

١ - أن السلطة التشريعية في الإسلام وفي الدولة الإسلامية لا تخرج عن دائرة علماء الشريعة المجتهدين، وهم علماء الشريعة الذين استجمعوا شروط الاجتهاد التي من أهمها: أن يكون عالماً بطرق الدلالة ووجوهها، والخصوص والعموم، والمجمَل والمفسَّر الصريح، والفحوى وغيرها من الأصول، وأن يكون عالماً بالآيات المتعلقة بالأحكام من كتاب الله - تعالى - وأن يحيط بسنة رسول الله ﷺ المتعلقة بالأحكام؛ بحيث لا يشذ منها إلا القليل، وأن يكون ذا دراية باللغة العربية، ولا يشترط الإحاطة بها، وأن يكون عالماً بمطاعن الأخبار المتعلقة بالأحكام، وأن يحيط بمعظم مذاهب السلف وأن يكون عارفاً بمسائل الإجماع، ويشترط أن يكون ورعاً ذا دين وأمانة وصدق[3].

ويبلغ المجتهد كمال رتبة الاجتهاد ليكون من صفوة المجتهدين

(١) انظر: لسان العرب: (٨٢/٥) وما بعدها مادة (شرع)، والقاموس المحيط: (٩٤٦/١)، وتاج العروس: (٥٣٣٥/١)، ومختار الصحاح: (٣٣٥)، المعجم الوسيط: (ص٤٧٩).

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان: (ص١٥) مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢٦ - ١٩٩٧م

(٣) انظر: الاجتهاد من كتاب التلخيص، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: (ص١٢٥)، دار القلم دمشق بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

بثلاثة أمور:

أولها: التأليف في العلوم التي يتهذب بها الذهن كالعربية وأصول الفقه، وما يحتاج إليه من العلوم العقلية في صيانة الذهن عن الخطأ.

الثاني: الإحاطة بمعظم قواعد الشريعة؛ حتى يعرف أن الدليل الذي نظر فيه موافق لها أو مخالف.

الثالث: أن يكون له من الممارسة والتتبع لمقاصد الشريعة ما يُكسِبه قوة يفهم منها مراد الشرع من ذلك وما يناسب أن يكون حكماً له في ذلك المحل[1].

٢ - أن هذه السلطة هي المكلفة شرعاً والمتخصصة دستورياً، بالقيام بعملية التشريع. وعملها التشريعي «لا يعدو أمرين: أما بالنسبة إلى ما فيه نص فعملهم تفهُّم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه، وأما بالنسبة إلى ما لا نص فيه فعملهم قياسه على ما فيه نص واستنباط حكمه بواسطة الاجتهاد»[2]، مراعين القواعد والمقاصد الشرعية التي تمثل كليات الشريعة، والتي ثبتت باستقراء النصوص من الوحيين.

فالسلطة التشريعية عندما تقوم بالتشريع فإنها لا تنشئ الأحكام إنشاءً، ولاتبتدؤها ابتداءً، وإنما تستمدها وتستخلصها وتستخرجها من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، لا من غيرهما، وبذلك وضع النظام الإسلامي حداً فاصلاً بين أمرين لا يصح أن يلتبسا، وهما: السيادة والسلطان؛ فالسيادة لله والسلطان للأمة، والسيادة لشرع الله، والسلطان للمجتهدين من الأمة الذين يقومون باستنباط الأحكام والإعلام بها والإلزام بتطبيقها، وهذا هو سلطانهم الذي لا يتعدى على سيادة الشريعة.

٣ - أن عمل السلطة التشريعية لا يقف عند حد التشريع وإنما يتعداه إلى الإشراف والمباشرة لضمان الالتزام بهذا التشريع من قِبَل السلطتين (التنفيذية والقضائية)، وبخاصة السلطة التنفيذية، كما أنها تشترك مع سائر أهل الشورى وأهل الحل والعقد في القيام بدور الرقابة على باقي السلطات والمحاسبة للحكومة، وإبداء المشورة للحاكم ومعاونيه في كل مُشكِل يعرض للأمة من الأمور العامة.

٤ - أن صفوة علماء الشريعة المجتهدين الذين يمثلون السلطة التشريعية جزء من أهل الحل والعقد؛ لأن أهل الحل والعقد في الأمة ليسوا منحصرين في علماء الشريعة المجتهدين فضلاً عن أن ينحصروا في صفوتهم المختارة للتشريع، وإنما تتسع دائرتهم لتشمل غيرهم من العلماء والقضاة، والأمراء والخبراء، والصلحاء، والوجهاء العدول الذين يحملون همَّ هذا الدين ويتحملون مسؤولية هذه الأمة ويُعَدُّون هم كبار الأمة وقادتها وأولو الأمر فيها.

الواقع التاريخي للسلطة التشريعية:

لقد كانت السلطة التشريعية في عصر النبوة محصورة في يد رسول الله ﷺ وحدَه، لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ما دام الأمر متعلقاً بالتشريع والأحكام ومسائل الحلال والحرام؛ لأنه كان يتلقى الوحي من الله - تبارك وتعالى - ويقوم بتبليغه والإعلام به وتطبيق أحكامه، «ومع كون السلطة التشريعية، في عهده ﷺ متمركزة من الناحيتين (العضوية والموضوعية) في يده وحدَه، إلا أنه في ما لا يتصل بالتشريع وبالحِلِّ والحرمة كان يستشير فيه طوائف من أصحابه من ذوي الرأي»[3].

وعندما توفي رسول الله ﷺ: «انتقلت السلطة التشريعية بعد وفاته إلى المجتهدين من الصحابة. وسلطانهم في التشريع لم يَعْدُ أمرين:

الأول: فهم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه.

والثاني: قياس ما لا نص فيه على ما فيه نص بواسطة الاجتهاد وتخريج العلة.

وبذلك تخالف السلطة التشريعية في عهد الصحابة السلطة التشريعية التي تضع القوانين في الأمم الأخرى؛ إذ الثانية في منتهى الحرية في وضع القوانين أو تفسيرها أو إلغائها أو تعديلها»[4]، وأما الأولى فهي مقيدة بالنصوص الشرعية وبالقواعد والمقاصد الشرعية، ودائرة في عملها تحت سيادة الشرع.

ومع اختصاصهم بالتشريع فإنهم كانوا يشيرون على الخليفة مثلما يشير عليه سائر الكبار من أهل الحل والعقد؛ وذلك فيما لا يدخل في الحِلِّ والحرمة من أمور الرأي والحرب والمكيدة والمسائل المتعلقة بتدبير الشأن العام.

وقد كان الخليفة يشارك السلطة التشريعية في استخلاص الأحكام؛ لأنه كان من جملة المجتهدين، وكان أحياناً يعمل بما أدَّاه إليه اجتهاده ما لم يَحُل بينه وبين العمل به ظهور رأي جماعة المجتهدين عليه، «وإذا كان من حق الخليفة أن يجتهد برأيه فيما يعرض من مسائل، فإنه يجتهد بوصفه من المجتهدين لا بوصفه رئيساً للسلطة التنفيذية، كذلك القاضي الذي تتوفر فيه صفات

(١) الإبهاج في شرح المنهاج على مناهج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، علي بن عبد الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ (١/٨).

(٢) السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية للشيخ عبد الوهاب خلاف: (ص٤٩)، دار القلم ط ١٩٨٨م.

(٣) النظرية السياسية الإسلامية في السلطات العامة للدولة: (ص١٠١)، رسالة دكتوراه مقدمة من عبد الملك عبد الله الجعلي، مكتبة كلية الشريعة ١٩٧٦م.

(٤) السياسة الدستورية للدولة الإسلامية، د. إبراهيم النجار: (ص٤٢٨).

الاجتهاد؛ فهو إن حكم برأيه فإنما يجتهد بوصفة من المجتهدين لا بوصفه من أعضاء السلطة القضائية»[1].

روى أبو عبيدة في كتاب القضاء عن ميمون بن مهران قال: «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله - تعالى - فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سُنة رسول الله ﷺ فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا أو بكذا، فإن لم يجد سنة سنَّها النبي ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم فإذا اجتمع رأيه على شيء قضى به، وكان عمر يفعل ذلك»[2].

فرجوع الخليفة إلى المجتهدين لسؤالهم عن علم عَلِموه من رسول الله ﷺ في المسألة المعروضة، ثم لاستشارتهم فيما لم يرد فيه نص، يعتبر رداً على السلطة المتخصصة. أما اجتهاده وقضاؤه بما ظهر من كتاب الله فلا يُعَدُّ تجاوزاً للسلطة التشريعية ولا تعدياً عليها؛ لأنه من المجتهدين، ولأن الحكم الشرعي إذا ظهر في الكتاب أو السُّنة فالسلطان له، وعلى الجميع - سواء السلطة التشريعية أو التنفيذية - أن يخضعوا لسلطانه، ولأن رجال السلطة التشريعية لن يسكتوا إذا خالف الخليفة - من وجهة نظرهم - دستور الأمة (الكتاب والسُّنة)؛ لذلك عندما رأى عمر رأيه في سواد العراق وأراد ألا يقسم الأرض المغنومة على المقاتلين، وأن يتركها فيئاً للمسلمين وقف الصحابة واعترضوا، وناقشه المجتهدون من الأمة، وراجعوه وراجعهم، وجادلوه وجادلهم، حتى اقتنع سوادهم الأكبر برأيه فمضى فيه[3].

«وقد كان في استشارة الخلفاء وأهل الفتيا بعضهم بعضاً ما يجعل من جماعتهم المحدودة شبه مجلس نيابي صغير ينقصه النظام، ولكن يعوِّضهم عنه ما كان منهم من تقليب المسائل على وجوهها وبحثها من جميع نواحيها»[4].

وإن تعويل الخلفاء على إجماع المجتهدين على الرغم من أنه لا يعكس سيادة الأمة بالمعنى الغربي الوضعي، إلا أنه يعد «هو نواة المبدأ الحديث الذي يجعل الأمة مصدر السلطات، وهو ما يعبَّر عنه بمبدأ سيادة الأمة في النُّظُم العصرية، هذا المبدأ الذي يقوم عليه التشريع الإسلامي هو المبدأ نفسه الذي يقوم عليه النظام النيابي الحديث، لكن الذي يميز النظام الإسلامي أن ممثلي الأمة في القيام بوظيفة التشريع هم المجتهدون؛ أي: العلماء الذين يُعترَف لهم بالوصول إلى مرتبة الاجتهاد»[5]، وأن سلطانهم التشريعي لا يتعدى على سيادة الشرع؛ لأنهم لا يصنعون القوانين وإنما يستمدونها من الشرع.

وقد اتفقت الأمة - على الرغم من اختلافها في بعض الفروع المتعلقة بالدلالات - على أن الكتاب والسُّنة هما مصدرا التشريع، واتفق أهل السنة والجماعة على أن الإجماع هو المصدر الثالث بعد الكتاب والسُّنة، وعلى أن الإجماع لا ينشئ الحكم وإنما هو علامة على حكم الله في المسألة، واتفق جمهور أهل السُّنة - عدا الظاهرية - على أن القياس دليل شرعي معتبَر، وعلى أنه آلية الاجتهاد الأولى لاستنباط الأحكام غير المنصوصة. وهناك أصول أخرى للاستدلال: كالاستصلاح والاستحسان الاستصحاب وغيرها قد اختلف العلماء في تقريرها واعتمادها، لكن الذي لم يختلفوا فيه هو أن كل ما سوى الوحيين من أدلة الأحكام راجع إليهما وصادر عنهما ولا يمكن أن يحظى بالاستقلال التام، وهذا ما يؤكد سيادة الشرع ويؤكد كذلك استقلال التشريع عن الحكومة.

وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين لتظهر نواة المدارس الفقهية التي تُعَدُّ مؤسسات تشريعية قائمة على أصلين:

الأول: سيادة الشرع.

والثاني: أن السلطان التشريعي في يد المجتهدين من الأمة. فظهرت مدرسة الرأي في العراق؛ وهي التي وضع حجر الأساس لها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، وفي مقابلها مدرسة الأثر التي وضع لبناتها الأُولَى علماء الصحابة في المدينة من أمثال عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وعائشة وغيرهم.

وإذا كان عهد الصحابة قد شهد شهرة واسعة للمجتهدين من الصحابة أمثال: عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر ومعاذ وزيد بن ثابت... وغيرهم، فإن عصر التابعين شهد شهرة واسعة لمجتهدين كبار كان على رأسهم الفقهاء السبعة في المدينة وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، وهم الذين اعتدَّ مالك بإجماعهم[6].

ثم ظهرت المذاهب الفقهية الكبرى التي شهدت طفرة عظيمة في الاجتهاد الفقهي القائم على أصول ودعائم علمية راقية، ومن

(١) نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة د. محمود حلمي: (ص٣٩٢)، ط١ دار الفكر العربي، مصر ١٩٧٠م.

(٢) رواه الدارمي في السنن في المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة، برقم ١٦١، (١/ ٩٠)، والبيهقي في الكبرى كتاب أدب القاضي، باب ما يقضي به القاضي برقم ١٨٧٢٦، (٢٧/ ١٣٤٨٥) وقال حسين أسد: رجاله ثقات غير أن ميمون بن مهران لم يدرك أبا بكر فالإسناد منقطع.

(٣) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي للقطان: (ص١٤٠)، وما بعدها.

(٤) السياسة الدستورية للدورة الإسلامية للنجار: (ص٤٣٠).

(٥) فقه الخلافة وتطورها للسنهوري: (ص٥٣).

(٦) انظر: المنخول لأبي حامد الغزالي: (ص٣١٤) دار الفكر دمشق ط ثانية ١٤٠٠هـ.

أشـــهرها المذاهب الفقهية الأربعـــة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشـــافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، فكانت هذه المذاهب هي المؤسســـات التشـــريعية العظمى التي تمثل السلطة التشريعية في العصور التي تلت عصر الخلفاء الراشدين.

وظـــل بـــاب الاجتهاد مفتوحـــاً، وظلت هـــذه المذاهب هي المرجعية التشـــريعية للأمة الإســـلامية حكاماً ومحكومين في جميـــع المجالات؛ حتى جاء في عصور متأخرة علماء أغلقوا باب الاجتهاد، فنتج عن ذلك أن اســـتجدت مســـائل ونوازل في حياة الأمـــة لم يفِ تـــراث هذه المذاهب بمعالجتهـــا: «فكان من ذلك الحرج قصور التشـــريع الإسلامي عن مســـايرة الزمن وتحقيق مصالح الناس، والتجاء بعض الحكومات الإســـلامية إلى العمل بقوانين أمم غير إسلامية»[1].

وهـــو ما أدى بعد ذلك إلى وقوع الدول الإســـلامية فريســـة العَلمانيـــة، ودخلتها نظرية الســـيادة الغربية، وغزتها قوانين غير شـــرعية، وصارت الســـلطة التشـــريعية فيها أبعد ما تكون عن الشريعة الإسلامية؛ وما كان هذا ليحدث لو أن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً؛ ليلبي حاجات الأمة في كل ما ينزل بها.

وهذا هو الذي دفع المصلحين من أمثال الأستاذ محمد عبده وغيره إلى الدعوة إلى الاجتهاد، ولقد تجاوب مع هذه الصيحة الصادقة علماء وأساتذة جامعات وشيوخ كبار، نهضوا لهذا الواجب الكبير؛ فبدأت من جديـــد حركة الاجتهاد والتجديد، وصـــارت الأمة بفضل هذه الجهود مؤهَّلة للعودة إلى سيادة الشـــريعة عن طريق جعل السلطة التشريعية في يد المجتهدين من الأمة خاصة.

النوايا الخيِّرة في الأمة:

ولقد أوجدت الأمة الإسلامية في عصرها الحاضر مؤسسات كبرى تقوم بالاجتهاد الجماعي الذي كان يقوم به المجتهدون من الصحابة ولكن بآليات معاصرة، وقد تمثلت هذه المؤسسات في المجامع الفقهية الكبرى مثل: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، ومجمع الفقه الإســـلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإســـلامي بجدة، ومجمع رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وغيرها من المجامع التي جاءت بعدها وحَذَت حذوها، إلى جانب مشـــاريع الاجتهاد الجماعي الأخرى كمشاريع الموسوعات الفقهية الكبرى مثل مشروع الموسوعة الفقهية الكويتية.

كمـــا ناقش العلمـــاء المعاصرون إمكانية تجزئـــة الاجتهاد، بمعنـــى: أن يوجد في كل فرع من فروع الشـــريعة متخصصون وخبـــراء يملكـــون أدوات الاجتهاد فيه وإن لم يســـتكملوا آلات الاجتهاد المطلق؛ وذلك لتوسيع دائرة الاجتهاد وتيسير أمره.

وهذا الجهد المبارك يعتبر أرضاً خصبة لنمو واختيار السلطة التشريعية التي يتمثل فيها بصدق سيادة الشرع وسلطان الأمة.

أما عن كيفية الاختيار وطريقة التكوين فهي من الآليات التي تختلف من عصر لآخـــر، ومن مكان لآخر؛ فنحن إذا نظرنا إلى السلطة التشريعية في عصر الخلفاء الراشدين ومن تلاهم، نجد أنهم لم يكتسبوا هذه السلطة بتعيين الخليفة ولا بانتخاب الأمة لهم، وإنما اكتســـبوها بمميزاتهم الشخصية التي امتازوا بها[2]، فجاء التكوين بطريقة فطرية تلقائية بســـيطة كبســـاطة الحياة آنذاك[3].

وأمـــا في الواقع المعاصر فيمكن عند قيام دولة إســـلامية أن تتشـــكل السلطة التشريعية من المجتهدين في العلم الشرعي؛ وذلك باتبـــاع آليات معاصرة لا يتنافى العمـــل بها مع القواعد والأصول الشرعية، ويرى بعض الناس[4] – على سبيل المثال – أنه بالإمكان أن تشـــكَّل هيئة بمعرفة الحكومة من حَمَلَة الشهادات العلمية الشرعية العالية. هذه الهيئة تُعرَض عليها القوانين قبل تطبيقهـــا فما أقرتـــه طُبِّق، وما لم تقره يُلغَـــى، وبعضهم الآخر اعترض على هذه الأفكار.

والذي أراه أن ما هو من نوع الآليات الفنية لا إشـــكال فيه، وهـــو خاضع للدراســـة، ولكن المهم هو وضع ضوابط شـــرعية تضمن عدم تعدِّي هذه الآليات على الأسس والثوابت.

والإسلام والأمة الإسلامية بحاجة إلى دور العلماء الربانيين في تقنين الأحكام الشرعية، ووضعها في موادَّ قانونية ودستورية، والمطالبة المســـتمرة بتطبيقها، ومواصلة الضغط من أجل جعلها هي المرجعية الشاملة والدستور الكامل لكل بلاد المسلمين، وهذا لـــن يكون إلا إذا نهـــد علماء الأمة قاطبـــة، أو – على الأقل – جمهورهـــم لإتمام هذا الأمر الذي لا يتم للأمة عزٌّ ولا تمكينٌ إلا به، وأحســـب – والله أعلم – أن القيام به واجب كفائيٌّ لا ينعتق أحد من الأمة من عهدته إلا بقيامه بما يجب عليه منه بحســـب حاله، وأن الانشـــغال عنه بخلاف مفتعل أو شقاق مصطنع إثم كبير وجرم عظيم.

---

(١) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف: (ص٥١).

(٢) العلاقة بين السلطات، د. بكر راغب الشافعي: (ص١٦٢)، رسالة دكتوراه بكلية الشريعة والقانون بالقاهرة.

(٣) انظر: نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي بين الشريعة الإسلامية والفقه الدستوري، د. التابعي محب: (ص٣٠٨)، رسالة دكتوراه بكلية الشريعة والقانون بالقاهرة.

(٤) انظر: السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الإسلامي، د. سليمان الطماوي: (ص٢٤٢)، والسياسة الشرعية مصدر للتقنين للقاضي: (ص٥٧٢ – ٥٧٣).

الرفيق في رحلة الحج

RAFEEQ AL- HAJJ

زائر جديد للمناسك . .

مرافق لكل حاج . .

- جديد البيان لموسم ١٤٣١هـ .
- الرفيق الشرعي.
- الرفيق التربوي.
- الرفيق المهاري.

أول دليل شامل لمناسك الحج

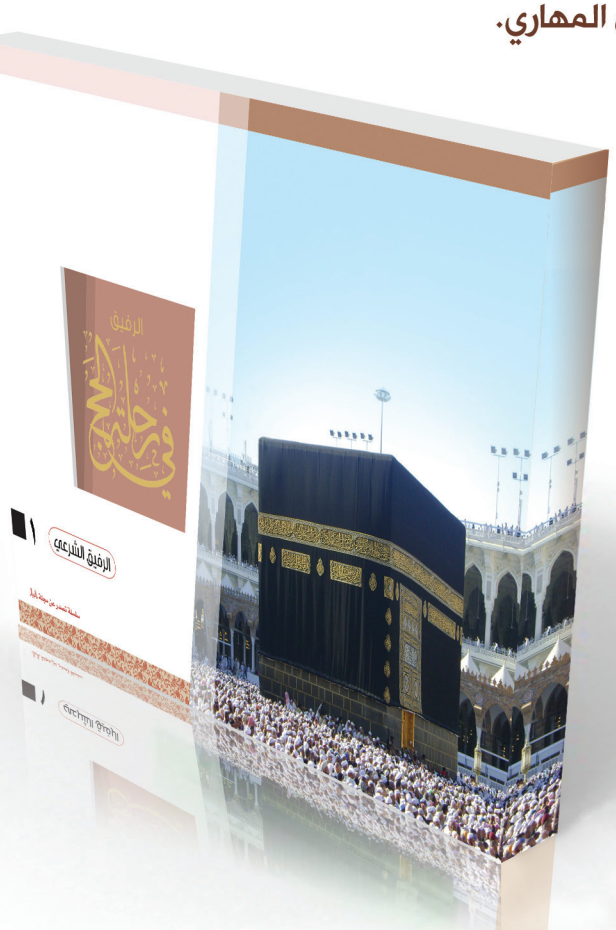

كل ما يهم الحاج في رحلة العمر..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢
فاكس: ٤٥٣٢١٢١
المشاريع: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢
٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧
مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مجلة البيان

www.albayan-magazine.com

عناية النبي ﷺ بمعرفة أحوال المدعوين

د. يوسف العليوي(*)

من الأصول المقررة في الدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى –: أن يكون لدى الداعية خبرة صحيحة بالنفوس، ومعرفة دقيقة بأحوال المخاطبين، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولقد كان لهذا الأصل حضور ظاهر في منهاج النبي ﷺ في دعوته، وفي تربيته لأصحابه، رضي الله عنهم. وكان ﷺ يستقي معرفته بمدعويه ومخاطَبيه من مصادر عدة غير مصدر الوحي، وسأذكر أهم هذه المصادر مستشهداً لها ببعض الأمثلة، تاركاً التعليق عليها غالباً ثقة بوضوحها لدى القارئ، ومنها:

الملاحظة:

وهي من المصادر المهمة لدى الدعاة القادة الذين يتسمون بالقدرة على معرفة الآخرين وتقويمهم والتفرس فيهم، وإدراك محيطهم والأشياء من حولهم بعين البصر والبصيرة، ومن ذلك ما يروى عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء شاب فقال: يا رسول الله! أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال: «لا». فجاء شيخ فقال: أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال: «نعم». قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ عَلِمْتُ لِمَ نَظَرَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ»(١)، وفي الحديث ملاحظتان:

الأولى: ظاهرة مدرَكة عند الجميع تتعلق بالفرق بين الشيخ والشاب.

والثانية: خفية حينما أدرك النبي ﷺ سرَّ تعجبهم ونظرِ بعضهم إلى بعض، فخاطب النبي ﷺ الرجلين والصحابة بما يناسب أحوالهم.

ومن أحوال الناس التي جاءت عن معرفة وملاحظة دقيقة من النبي ﷺ ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ فِي أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»(٢).

ومن ذلك ما رواه مالك بن الحويرث – رضي الله عنه – أنهم أتوا رسول الله ﷺ وهم شَبَبَة متقاربون، فأقاموا عنده عشرين ليلة، فلحظ النبي ﷺ أنهم قد اشتاقوا أهليهم، فسألهم عمَّن تركوا من أهلهم؟ فأخبروه، فقال ﷺ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»(٣). فلما رأى النبي ﷺ اشتياق هؤلاء الشباب إلى أهليهم لم يدعهم يلازمونه في المدينة، مع أن في ملازمتهم له من الصحبة والخير والتزود من العلم ما ينفعهم. والشاب في بداية شبابه من طبعه سرعة التغير والتقلب، لضعف الخبرة والتجربة والنضج العقلي؛ فلعل إلزامهم بالبقاء مع اشتياقهم إلى أهليهم يكون سبباً في فتورهم ونكوصهم، والله أعلم.

ومن ذلك إدراكه ﷺ لرحمة أبي بكر، وشدة عمر وغيرته، وحياء عثمان، وفقه معاذ، وفرضية زيد، وعسكرية خالد، ورِقة الأنصار وأهل اليمن، وغلظ الأعراب، وتعاون الأشعريين، وضعف أبي ذر أن يتولى الإمارة وغير ذلك.

الاستفهام عن الحال:

قد يستفهم النبي ﷺ من صاحب الحال عن حاله، أو ربما استفهم من غيره عنه وطلب رأيه فيه؛ ليتبين المعلومة التي يبني عليها النبي ﷺ

(*) أستاذ مساعد في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(١) أخرجه أحمد: (٢/ ١٨٥ – ٢٢١)، وضعفه ابن حزم في المحلى: (٦/ ٢٠٨)، وشعيب الأرناؤوط وأصحابه في تحقيق المسند بإشراف التركي: (١١/ ٣٥١)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند: ١١/ ٢٥، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٣٨) برقم (١٦٠٦)، وقال بعد أن أورد إسناد أحمد: (هذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله ثقات غير ابن لهيعة؛ فإنه سيء الحفظ، لكن لحديثه شواهد، كنت ذكرتها قديماً في (التعليقات الجياد) يتقوى الحديث بها).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٣٠١)، ومسلم: (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٦٢٨) ، ومسلم: (٦٧٤).

حال المخاطَب فيتعامل معه بما يناسب هذه الحال. ومن ذلك ما ورد في حديث وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال لهم: «مَن الْقَوْمُ؟» أو «مَن الْوَفْدُ؟» قالوا: ربيعة. قال: «مَرْحَباً بِالْقَوْمِ (أو بِالْوَفْدِ) غَيْرَ خَزَايَا وَلا نَدَامَى»[1]. ولما لقي نفراً من الخزرج عند العقبة قال لهم: «مِمَنْ أَنْتُم؟» قالوا : نفر من الخزرج. قال: «أَمِنْ مَوَالِي يَهُوْدَ؟» قالوا: نعم. قال: «أَفَلا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا[2]. ومن ذلك سؤاله حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - عن سبب إرساله كتاباً إلى مشركي مكة يخبرهم بغزو رسول الله ﷺ لهم، ومن ذلك سؤاله ﷺ ماعزاً - رضي الله عنه - وقومه عن حاله لما جاء معترفاً بالزنا[3].

ومن ذلك أنه ﷺ إذا فقد أحد أصحابه سأل عن حاله، ويسأل أهل المعرفة به، وفي ذلك يروي معاوية بن قرة المزني عن أبيه - رضي الله عنه - قال: كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: «مَالِي لا أَرَى فُلاناً؟» قالوا: يا رسول الله، بُنَيُّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بُنيِّه، فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال: «يَا فُلانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمرَكَ، أَوْ لا تَأْتِي غداً إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلاَّ وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ، يَفْتَحُهُ لَكَ؟» قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إليَّ. قال: «فَذَاكَ لَكَ»[4]. وكسؤاله ﷺ عن ثابت بن قيس - رضي الله عنه - لما احتبس عن النبي ﷺ بعد أن نزلت آية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال: أنا من أهل النار، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكَى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلَت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[5]، والنبي ﷺ في هذا الحديث يسأل سعداً لكونه يعرف أن ثابتاً جاره.

معلومات الآخرين:

قد يأتي من يُسدي النصيحة ويقدم المعلومة، فيتقبلها النبي ﷺ ويفيد منها في تعاملاته وخطاباته، كما في مسلم: أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقته فضة، ونقش فيه: محمد رسول الله[6].

التجربة:

قد يجرب النبي ﷺ المرء فيكتشف مدى قدرته على ما يريده ﷺ منه، ومن ذلك اختباره لقدرات بعض أصحابه في الشعر حينما أراد أن يوجه سهام الهجاء بالشعر إلى قريش، وفي ذلك تروي عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «اهْجُوا قُرَيْشاً؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ»، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهْجُهُمْ»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَن اللهِ وَرَسُولِه»، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ، فَشَفَى وَاشْتَفَى»[7].

ولقد كان لهذه العناية آثار بالغة في نجاح الدعوة إلى الله، والتمكين لمنهجه، والجهاد في سبيله، والتأثير في نفوس الخلق، ويمكن أن نتلمس شيئاً من هذه الآثار فيما يلي:

١ - تحقق الحكمة في الدعوة إلى الله، سبحانه وتعالى:

وكيف لا تتحقق في النبي ﷺ وهو الذي ملأ الله - سبحانه وتعالى - قلبه حكمة وإيماناً، كما ورد في حديث المعراج الذي رواه أبو ذر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَاناً، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ»[8]. وهذا أثر عام يدخل فيه ما بعده.

٢ - تنزيل الناس منازلهم:

وهذا من الخُلُق العظيم الذي اتصف به النبي ﷺ، وأكده الله - سبحانه وتعالى - في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نُنْزل الناس منازلهم»، وفي رواية أنها مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته، فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»[9].

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٣)، ومسلم: (١٧).
(٢) سيرة ابن هشام: (٢/٢٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة: (٢/٤٣٣)، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة: (١٥٤)، طبقات ابن سعد: (١/٢١٩).
(٣) أخرجه البخاري: (٥٢٧٠ - ٦٨٢٠ - ٦٨٢٥)، ومسلم: (١٦٩١ - ١٦٩٥).
(٤) صححه الألباني في صحيح سنن النسائي: (٢/٤٤٩)، (١٩٧٤).
(٥) أخرجه البخاري: (٣٦١٣)، ومسلم: (١١٩).
(٦) أخرجه مسلم: (٣٩٠٤).
(٧) أخرجه مسلم: (٢٤٩٠).
(٨) أخرجه البخاري: (٣٤٩)، ومسلم: (١٦٣).
(٩) ذكر مسلم الرواية الأولى معلقة في مقدمة صحيحه: (١/٦)، وأخرج الرواية الثانية أبو داود في كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، برقم (٤٨٤٢)، وصححه الحاكم في معرفة علوم الحديث في النوع السادس عشر: ٧٤، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة: (١٦٤)، برقم (١٧٩)، وينظر: كشف الخفاء: (١/٢٢٥)، برقم (٥٩٠)، وضعفه الألباني في: ضعيف سنن أبي داود: (٤٧٧)، برقم (١٠٣٢)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: (٤/٣٦٨)، برقم (١٨٩٤).

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: «إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[1]. وفي رسائله ﷺ إلى الملوك والرؤساء نلحظ هذا الأثر جلياً في وصفه للمرسَل إليهم؛ كما في رسالته إلى هرقل: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»[2]، وكذلك مع المقوقس والنجاشي.

٣ - اختيار الأوقات المناسبة للموعظة: وفي هذا مراعاة لحال النفس البشرية، التي تَرِد عليها السآمة والملل، فكان ﷺ يتخوَّل أصحابه بالموعظة.

٤ - توصية كل شخص بما يناسب حاله: إذ ليس من الحكمة أن توصي بحُسْن الخُلُق من يتحلى به، أو بطلب العلم من هو حريص عليه، ولكن انظر فيما يفتقده فأوصه به، ليتم به حاله، وتتكامل شخصيته، وهذا ما يظهر من وصايا النبي ﷺ لأصحابه الذين يستوصونه، فيوصيهم بما يناسب حالهم، وما هم إليه أحوج، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «لا تَغْضَبْ» فردد مراراً. قال: «لا تَغْضَبْ»[3]، وذكر ابن حجر في شرح الحديث عن بعض أهل العلم قوله: (لعل السائل كان غضوباً، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أَوْلَى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب)[4].

ومن ذلك توصية عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - بما يناسب حاله من الصيام والقيام وقراءة القرآن، كما في حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟». قلت: بلى. قال: «فَلا تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّكَ عَسَى أَنْ يَطُولَ بِكَ عُمُرٌ. وَإِنَّ مِنْ حَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّام، فَإِنَّ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ». قال: فشدَّدْت، فشُدِّد عليَّ، فقلت: فإني أطيق غير ذلك. قال: «فَصُمْ مِنْ كُلِّ جُمُعَةٍ ثَلاثَةَ أَيَّام». قال: فشدَّدْت، فشُدِّد عليَّ. قلت: أطيق غير ذلك. قال: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ» قلت: وما صوم نبي الله داود؟ قال: «نِصْفُ الدَّهْرِ». وفي رواية قال النبي ﷺ: «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ» وفي رواية قال: «فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ» قال عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إليَّ من أهلي ومالي. وفي رواية قال: فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وذاك أني كبرت وضعفت[5].

٥ - إجابة كل سائل بما يناسب حاله: كما في حديث الأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة، فقال: «وَيْحَكَ إِنَّ شَأْنَهَا شَدِيدٌ؛ فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ تُؤَدِّي صَدَقَتَهَا؟» قال: نعم. قال: «فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتْرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئاً»[6]، قال النووي: (قال العلماء: والمراد بالهجرة التي سأل عنها هذا الأعرابي ملازمة المدينة مع النبي ﷺ، وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبي ﷺ أن لا يقوى لها، ولا يقوم بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التي سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير في وطنك، وحيثما كنت؛ فهو ينفعك، ولا ينقصك الله منه شيئاً، والله أعلم)[7].

استثمار الطاقات، وتوسيد الأمر إلى أهله؛ إذ لا يقف الأمر لدى قادة الدعوة عند حدود المعرفة والاكتشاف للمواهب والطاقات؛ بل يتعدى ذلك إلى توجيهها نحو العمل الذي تحسنه، واستثمارها فيما يتلاءم مع طبيعتها وقدراتها، ويتحقق بذلك وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهذا ما حصل من النبي ﷺ مع أصحابه - رضي الله عنهم - ومن ذلك تكليف من لديهم القدرة على قيادة الجيوش والسرايا بذلك كخالد بن الوليد، وتكليف من لديهم معرفة بالكتابة بكتابة الوحي كزيد بن ثابت... وغير ذلك، ولما رأى عبد الله بن زيد - رضي الله عنه - الأذان في المنام قال له النبي ﷺ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ فَقُمْ مَعَ بِلالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتاً مِنْكَ»[8].

وقد عد النبي ﷺ توسيد الأمر إلى غير أهله من تضييع الأمانة، فقال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعت الأَمانةُ فانْتظر السَّاعة» فقيل له: وكيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِد الأَمرُ إلى غَيرِ أَهلِه فانتظر السَّاعة»[9].

٦ - درء المفاسد، والترجيح بين المصالح: قد يترك النبي ﷺ ما هو أَوْلَى، مراعاة لأحوال المخاطبين، جلباً للمصالح المعتبرة ودرءاً للمفاسد المتوقعة. من ذلك تركه تأخير صلاة العشاء، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: أعْتَم النبي ﷺ ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل، وحتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى، فقال: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»[10].

ومن ذلك: تركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم - عليه السلام - مراعاة لحداثة إسلام أهل مكة: كما روت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال لها: «يَا عَائِشَةُ لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ

---

(١) صحيح سنن أبي داود: (٣/٩١٨)، برقم (٤٠٥٣).
(٢) البخاري: (٧)، ومسلم: (١٧٧٣).
(٣) البخاري: (٦١١٦).
(٤) فتح الباري: (١٠/٥٢٠).
(٥) البخاري: (١١٥٣- ١٩٧٦ - ٥٠٥٢ - ٦١٣٤)، ومسلم: (١١٥٩).
(٦) البخاري: (١٤٥٢)، ومسلم: (١٨٦٥).
(٧) شرح صحيح مسلم: (١٣/٩).
(٨) أخرجه الترمذي (١٨٩)، وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة والنووي، وينظر: صحيح أبي داود: (٢/٤٠٦)، برقم (٥١٢).
(٩) البخاري (٥٩).
(١٠) البخاري (٥٦٦)، ومسلم (٦٣٨).

بِالْبَيْتِ، فَهُـدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْـهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ: بَاباً شَـرْقِيّاً، وَبَاباً غَرْبِيّاً، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَـاسَ إِبْرَاهِيمَ». وترجم البخاري في كتاب العلم: (باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه).

ومنه أيضاً: التفريق بين الأشـخاص فـي إعطاء المال: ويكون التفريق بناءً على قوة الإيمان أو ضعفه، ومن ذلك ما رواه سـعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس، قال: فترك رسـول الله ﷺ رجـلاً هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسـول الله! مـا لك عن فلان؟ فو الله إنـي لأراه مؤمناً، فقال: «أَوْ مُسْـلِماً»، فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان؟ فو الله إني لأراه مؤمناً، فقال: «أَوْ مُسْلِماً» ، ثـم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، وعاد رسـول الله ﷺ، ثم قال: «يَا سَـعْدُ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[1].

ومنه كذلك: التفريق بين الأشـخاص في قبول الصدقة، ومن ذلك: أنه أمر بعض أصحابه أن يمسـكوا بعض صدقاتهم، كما ورد في حديث كعب بن مالك – رضي الله عنه – في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا قال: يا رسـول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال الرسول ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»[2]. أما أبو بكر – رضي الله عنه – فقد كان النبي ﷺ يقبل منه أن يتصدق بكل ماله[3].

٧ - الثناء على الصفات الحسنة، والتنبيه إليها: حثاً للناس على الاقتداء بأصحابها، و من ذلك ما رواه أبو موسى – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الأَشْـعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَـلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[4]. ومن ذلك قول الرسول ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ»[5].

٨ - التنبيه على مواطن الخلل والقصور لدى أصحابه - رضي الله عنهم - ليجتنبوها: ومن ذلك حديث: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِن اللَّيْلِ» فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً[6].

٩ - اختيـار قائـد الجيش الذي له صلـة بالمحاربين: ومن ذلـك أن النبـي ﷺ لما علم أن جمعاً من قضاعـة تجمعوا يريدون المدينـة عقد لعمرو بن العاص – رضـي الله عنه – لواءً، وبعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وأمره أن يسـتنفر من يمر به من العرب من بَلِيٍّ وغيرهم. وقد كانت أم العاص بن وائل من بَلِيّ.

٩ - تبصـير الولاة والدعاة بحال مـن يقدمون عليهم: كما روى ابن عباس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْـهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُـولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَـإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[7].

٩ - القدرة على التعامل مع الأعداء بما يناسـب أحوالهم: وهذا واضح في سـيرة النبي ﷺ وجهاده، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قصة الحديبية أن عروة بن مسـعود قال لقومه بعد أن أتى النبي ﷺ: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسـول الله ﷺ: «هَذَا فُلانٌ، وَهُـوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُـدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ» فبعثت له، واسـتقبله الناس يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سـبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشعِرت، فما أرى أن يُصَدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشـرف عليهم قال النبي ﷺ: «هَذَا مِكْـرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[8].

وبعد، فإن رعايـة مقتضى أحوال المدعويـن والمخاطبين، بل مقتضى الحال عامة أصل دعوي عظيم، من منهاج القرآن العظيم، ومنهاج الرسـول الكريم ﷺ. وفي تحقق هذا الأصل سلوك لسبيل الحكمة، التي أمر الله – سـبحانه وتعالى – رسوله ﷺ أن يسلكها في دعوتـه للخلق، فقد قال الله – تعالى –: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَـن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة هي: (الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه)[9]، وقد قال الله – سـبحانه وتعالى –: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيـرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُـوا الأَلْبَابِ﴾.

(١) البخاري: (٢٧)، ومسلم: (١٥٠).
(٢) البخاري: (٢٧٥٨ – ٤٤١٨)، ومسلم: (٢٧٦٩).
(٣) أخرجه الترمذي: (٣٦٧٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الحاكم في المستدرك: (١/ ٤١٤)، ووافقه الذهبي في تلخيصه: (١/ ٤١٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (١/ ٣١٥)، برقم (١٤٧٥).
(٤) أخرجه البخاري: (٢٤٨٦) ، ومسلم: (٢٥٠٠).
(٥) أخرجه مسلم: (١٧ و١٨).
(٦) أخرجه البخاري: (١١٢٢) ، ومسلم: (٢٤٧٩).
(٧) أخرجه البخاري: (١٤٩٦)، ومسلم: (١٩).
(٨) أخرجه البخاري: (٢٧٣٤).
(٩) الحكمة في الدعوة إلى الله: ٢٧.

جبل الرماة

سالم أحمد البطاطي
Batate.sagmail.com

في ظل الانفتاح العالمي، وتزايد سبل الانحراف، وإغراء الشباب، وجذبهم إلى متاهات الفساد؛ حيث أصبح كُلٌّ من: (الشارع، والصاحب، والنت، والكمبيوتر المحمول، والفضائيات) يؤدِّي دوراً خطيراً وعميقاً في التأثير عليهم بشكل أوسع، وأكثر عمقاً من ذي قبل، ويزاحم روادَ الإصلاح في عملية التربية والتوجيه بشكل سلبي، في ظل ذلك كله يُفترَض أن نُلقِيَ إلى الشباب طوقَ النجاةِ ليتشبَّثُوا به في خضم هذا التيه الجارف المظلم.

إلا أنَّ الواقع اليوم ينبئك بأسىً وألم بزُهد كثير من المصلحين في الاهتمام بأحد أهم صمامات الأمان لهذه الأمة (العمل التربوي)؛ بل تجاهل الثغرات الأساس فيه، والعزوف عن المواجهة، والتراجُع المُقعِد، والتقاعس المجحِف، والانهزامية المسقِطة، حتى بات العامل الجاد في الميدان التربوي اليوم يعيش غُربةً ما بعدها غربة، في زمنٍ عزَّ فيه الغرباء الذين يصلحون ما أفسدهُ الناس؛ إلا أنَّ المربِّي في زمن الغُربةِ يدافعها بعون من الله، متسلِّحاً بصدقِ النية، والعملِ الدؤوب، الذي لا يعرف الكلل ولا الملل.

إن العمل التربوي اليوم يمثِّلُ – بحقٍّ – مكان جبل الرماة في معركة أحد؛ سواء أكان ذلك في المكان والمكانة والأهمية، أو الدور الحيوي الذي يقوم به، أو خطورة التفريط في ثغراته، وآثار ذلك على العباد والبلاد.

ولو تأملنا أوجه الشبه، لوجدنا ثمة قواسم مشتركة بينهما، وسنناً مطَّردة في ثناياهما، ودروساً وعِبَراً، وفوائدَ ودُرراً، وعلوماً تُنهَلُ من معينهما. وحسبي أني سأحاول تقريب ذلك إلى ذهن القارئ الكريم. والله من وراء القصد، عليه توكلت وبه أستعين، وما توفيقي إلا بالله.

المكانة والأهمية:

يمتاز جبل الرماة بالموقع الإستراتيجي؛ حيث كان يحمي ظهور المسلمين إبَّان المعركة والقتال مع المشركين، فكان حمىً

منيعاً، يحمي ظهور المسلمين من التفاف المشركين عليهم وغزوهم من جهته؛ لذلك أدرك خالد بن الوليد، رضي الله عنه - وهو قائد فرسان المشركين قبل إسلامه - أهمية الجبل ومكانه في تغيير تكتيك المعركة، فظلتْ عينه ترقُبُه حتى وهو ينسحب من أرض المعركة، فلما رأى رماة المسلمين يتركون مواضعهم قام بحركة التفاف سريعة وهاجمهم من الخلف[1].

وكذلك هو العمل التربوي اليوم، يتسنَّم مكانة إستراتيجية في العملية الإصلاحية، بل يُعدُّ أنجع السبل الإصلاحية؛ ذلك أنه يحمي شباب الأمة من الانحراف الذي يصبو له الأعداء، عبر الالتفاف حولهم، ومِن ثَمَّ الانقضاض عليهم كانقضاض الوحش على فريسته.

ولولا تدبير الله - جل وعلا - بحمايته الشباب عبر حمى الأعمال التربوية، وغيرها من سبل الإصلاح لحصل المحظور، ولاستطاع الأعداء الالتفاف حول سواعد الأمة، وإفسادهم.

الدور الحيوي:

كان لجبل الرماة دور حيوي مهم في معركة أحد، وكانت الثغراتُ التي يسدُّها مهمةً من جهتين:

الأولى: حماية ظهور المسلمين من المشركين.

الثانية: مدافعة المشركين بالسهام؛ ولا سيما أن الرماة في مرتفَعٍ؛ فوقوع السهام سيكون أسرع وأعمق أثراً.

وهكذا العمل التربوي اليوم لا تستغني الأمة عن دوره الحيوي من جهتين - على الأقل -:

الأولى: حماية شباب الأمة من التفاف الأعداء عليهم وإضلالهم.

الثانية: ضربُ الأعداء، وإضعافُهم، وكسرُ شوكتهم؛ عبر تكثير سواد المسلمين، وإعداد الصالحين والمصلحين منهم؛ لتتسع الدائرة، وتقوى شوكة الإسلام والمسلمين.

معرفة الواقع وفقهه:

كان لجبل الرماة الدور البارز في معرفة واقع المعركة؛ من حيث الفرص المتاحة، والمخاطر المهدِّدة، ونقاط القوة ونقاط الضعف، وكشف الأعداء، ومواقعهم وتحركاتهم، ومعرفة عددهم من حيث الكثرةُ والقلةُ. وكذا المسلمين ومواقعهم، واتجاه سير المعركة؛ من حيث النصرُ أو الهزيمةُ؛ ولذلك كانوا - والله أعلم - أول من كشف انهزام المشركين وفرارهم؛ وهو ما يؤكد معرفتهم بالواقع أكثر من غيرهم.

كان لكل ذلك دور في تغيير تكتيك المعركة؛ حسب المصلحة والحاجة.

ومن المعلوم أنَّ ثَمَّةَ تواصُلاً بين الرماة وبين القائد ﷺ حسب الحاجة والمصلحة؛ لذلك كان ﷺ يقول لهم: «إن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسِل إليكم»[2].

وكذلك هي التربية اليوم؛ تَطَّلِع، وتعايش، وتُخالِط جُلَّ شبابِ الأمة الإسلامية، عبر محاضن العلم والتعليم، وحِلَق التحفيظ، وغير ذلك؛ تعرف أعدادهم، وقوَّتهم وضعفهم، وقلَّتهم وكثرتهم، وأي الجوانب ينبغي أن يُركَّز عليها؟ وأي الجوانب يؤجل العمل فيها؟

فالتربية أَوْلى بمعرفة الأولويات الإصلاحية عبر الواقع؛ من حيث الفرص والمخاطر، ونقاط القوة والضعف التي تحيط بالشباب، ومعرفة خطط الأعداء، والفئات المستهدفة، ووسائل وطرق الإفساد، ومعرفة الأساليب القديمة والحديثة في ذلك؛ لأن القريب من الواقع، والمطَّلِع المعايش ينكشف له من الحقائق والتصورات ما لا ينكشف لغيره.

الانتقاء:

لقد انتقى رسول الله ﷺ خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير - رضي الله عنه - ووضعهم فوق جبل الرماة؛ وذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين[3]، وليحموا ظهورهم من الخلف. ولا شك أن هذا الانتقاء كان انتقاءً مخصوصاً لرماة متمرسين متدرِّبين على مهارة الرمي؛ حتى يصيبوا الأعداء في مقتل. وهذا الذي حصل في البداية قبل النكوص.

وهكذا التربية اليوم؛ ينبغي أن يُنتَقى من يمارسها انتقاءً خاصّاً؛ بحيث يكون مؤهَّلاً لحمل هذه الأمانة، وقادراً على

(١) يُنظَر: غزوة أحد، دراسة دعوية، د. محمد با مدحج، (ص ١٨٠).

(٢) صحيح البخاري، (٦/١٨٨)، كتاب الجهاد والسير.

(٣) يُنظَر: غزوة أحد، د. بامدحج، ص (١٤٢).

تحمُّل المسؤولية، متمكِّناً من المهارات الدعوية والتربوية: كأساليب الحوار، والإقناع، ومهارات الإلقاء والخطابة والكتابة، والقيادة... وغير ذلك من المهارات التي تساهم بمجملها في نجاح العملية التربوية؛ لا سيما من جهة الممارِس (المربي) الذي يُعدُّ دوره من أهم الأدوار في العملية التربوية؛ إن لم يكن أهمَّها[1].

كلُّنا على ثَغْرٍ وخَيرٍ:

ثغور المسلمين كثيرة ومتعددة ومتنوعة، وكل ثغر له أهميته وخصوصيته؛ سواء أكان هذا الثغر ساقةً، أو حراسةً، أو قيادةً، أو غير ذلك؛ فكلٌّ له دورُه المكمِّل لدور الآخرين. يقول ﷺ: «طوبى لعبدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثُ رأسه، مغبرَّةٌ قدماه؛ إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفَع لم يشفَّع»[2].

ومن المؤكد أن جبل الرماة كان ثغراً مهمّاً في معركة (أُحُدٍ) من حيث الحمايةُ والدفاعُ، ومن كان على الجبل فإن دوره مكمِّل لدورِ مَنْ بارز في بداية المعركة، ودورُ مَن كان في حراسة الجيش مكمِّل لدورِ الساقة، ومن يخدم المجاهدين مكمِّلٌ لدور من كان على الجبل.

فالعملية تكامُلية إذن ولا ينقدُ أحد أحداً، ولا يُعاب من يخدم دين الله في أي مكان وزمان؛ إنما العيب في القعود والتقاعس، والتَّرْك، ولمز وهمز العاملين لدين الله دون تصوُّر الأمور على حقيقتها؛ فتجد بعض الناس يعيب على أهل التربية انشغالهم بتربية الشباب واهتمامهم بهم، فينسى فضلهم، ويعنِّف فعلهم، ويهمِّش اهتمامهم، ويستعظم خطأهم، ويستصغر بَذلَهم وتضحيتهم بالمال والوقت والنفس والفكر؛ من أجل حماية الشباب من الانحراف وتنشئتهم التنشئة الصالحة.

وآخر قد يعيب على من يهتم بالجانب الاجتماعي والإغاثي، وأن الاهتمام بغيرها أولى وأحرى، وآخرون يظنون أن نجاة شباب الأمة في اهتمامهم بالجانب العلمي البحت فقط، وثمة آخرون يظنون أن النصر والتمكين لن يكون إلا عبر بوابة الجهاد في سبيل الله ويعيبون غير ذلك من الاهتمامات الشرعية الجادة.

ونقول لهؤلاء وهؤلاء: رويداً، رويداً. نحن جميعاً نمثل منظومة واحدة في الإصلاح المنشود؛ فالأمة تحتاج للإداري المحنك، والعالم الرباني الراسخ في العلم، والمربي الفاضل، والمجاهد الصنديد، والباحث المُجيد، ومن يقضي حوائج الناس ويشفع لهم... كُلٌّ على خير وفضل، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، وقد علم كل أناس مشربهم، فلا تُشمتوا بنا الأعداء، ولن يَتِرَكُم الله أعمالكم.

الدنيا القاسم المشترك في الإفساد:

لَمَّا رأى الرماة – رضي الله عنهم – هزيمة المشركين، ورأوا الغنائم في أرض المعركة، جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم، ظنّاً منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير – رضي الله عنه –: (الغنيمة! أي قوم الغنيمة! ظهر أصحابكم؛ فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة)[3].

ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولم يعبؤوا بقول أميرهم. ووصف ابن عباس – رضي الله عنهما – حال الرماة في ذلك الموقف، فقال: (فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين، أكبَّت الرماة جميعاً في المعسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف رسول الله ﷺ، فهم هكذا، (وشبك بين يديه) وانتشبوا، فلما أخلَّ الرماة تلك الخَلَّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا وقُتل من المسلمين ناس كثير)[4].

وهكذا التربيةُ اليوم عندما يتخلَّى روادها عنها، وتصبح الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، ويتنافسون على متاعها تاركين وراء ظهورهم ثغوراً لطالما سدُّوها، وفراغات لطالما شغلوها، وأماكن ومفاصل مهمة في صلاح وحماية الشباب لطالما ثبتوا فيها وعليها، وحمىً لطالما كانوا أبطالاً ورجالاً في حمايتها؛ بصدِّ عدوان أعداء الدين، ومنعهم من الالتفاف

(١) يُنظَر: تربية الشباب... الأهداف والوسائل، د. محمد الدويش، ص (١٢٩).
(٢) صحيح البخاري، حديث رقم، (٢٨٨٧).
(٣) صحيح البخاري، حديث رقم، (٣٠٣٩).
(٤) يُنظَر: تفسير القرآن لابن كثير، (٢/ ١١٤). ويُنظَر: غزوة أحد، د. با مدحج، (ص ٢٠٦)

على شـــباب الأمة، نعم. هكذا هي التربيـــة وكل عمل جليل (يُفسدها ويُفســـد أثرَها في النفوس طمعُ الداعين إليها في مغانم الدنيا، واستكثارُهم من مالها وعقارها وأراضيها)[1].

قال القرطبي – رحمه الله – في تفســـير قوله – سبحانه وتعالى –: ﴿الدُّنْيَا﴾ [آل عمـــران: ١٥٢]: يعني: الغنيمة. قال ابن مســـعود – رضي الله عنه –: (ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا وعَرَضَها حتى كان يوم أحد. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِـرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهم الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله بن جبير – رضي الله عنه – ولم يخالفوا أمر نبيهم ﷺ)[2].

الأثر المشترك من التَرْك:

إن مـــن أعظـــم الآثار والمســـاوئ لترك الرمـــاة ثغورَهم وأماكنَهم: التفافُ الأعداء على المســـلمين، وطعنُهم في مقتل؛ ومِنْ ثَمَّ الهزيمةَ الصعبةَ التي لحقت بالمســـلمين، ومقْتَلُ كثيرٍ مـــن الصحابة – رضي الله عنهم – تلك هـــي عاقبة التَّرك، وإيثارِ الدنيا على الآخرة.

وهكذا الأعمال التربوية عندما تترك ثغورَها ســـيصبح شـــباب المســـلمين لقمةً ســـائغةً في أفواه أعداء الدين، وسيتفننون في سبل إضلالهم وإفسادهم، وســـتصاب الأمة في مقتل؛ لأن المستهدف هو أعزُّ ما تملكه الأمة: شـــبابُها الواعد، وســـواعدُها الفتية. وستكون الهزيمةُ الساحقةُ عندها؛ إلا أن يتدارك الله هذه الأمة بخيرٍ، فيحيي الضمائر، ويقوِّي العزائم، ويجدِّد الإيمان، وتُؤْثَر الآخرةُ على الدنيا.

الغرباء الأولون والآخرون:

لقد شعر الصحابي الجليل عبد الله بن جبير، رضي الله عنه – وهو أحد القادة الأفذاذ – بالغربة تلفُّه، وهو يشـــاهدُ أصحابه الخمســـين ينزلون من ثغورهم رجلاً إثر آخر؛ إلا من رحم الله، وقد بلغ به الحزن والأســـى مبلغاً عظيماً. كيف لا؟ وهو يـــرى الثغور تُترك، وإذا القوم قـــد خلَّفوا بعدَهم فراغاً كبيراً، فصاح فيهم بصوت الســـمع والطاعـــة والانقياد لأمر النبي الكريم ﷺ: (أنسيتم ما قاله لكم رسول الله ﷺ؟).

وهكذا المربي في الزمن الصعب، ممن تخلى عنه إخوانه وذووه، وبات وحيـــداً غريباً، يعمل في ميدان حيـــوي خصبٍ؛ يعيش اليوم غربةً تجعله يشعر بمرارة الحزن والأسى، ويصيبه الهم والغم؛ لما آل إليه حال شـــباب الأمة وهو يرى المربِّين والمصلحين في هذا الميدان الحيـــوي يتخلَّون عن ثغورهم؛ طمعاً في الدنيا، أو رغبةً في الراحة والدَّعة، فيصيح فيهم بصوت متقطع: أنســـيتم عهودكم ومواثيقكم؟ أنســـيتم حرصكم على شباب المسلمين وبكاءَكم على من ضلَّ منهم، وفرحَكم بمن أقبل تائباً، وحزنَكم بمن نكص على عقبيه؟ كيف الحال بكم وأنتم اليوم مـــن نكص وترك؟ تبكيكم حلقات القرآن، وتوعيات المدارس، ونشاطات الأحياء، يبكيكم شباب الأمة وسواعدها الفتية.

ولقد عفا عنكم:

إن الرماة الذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصف، ولم يقل لهم: إنكم لا تَصلُحُون لشيء من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف؛ بل قَبِلَ ضعفَهم هذا في رحمةٍ وعفوٍ، وفي ســـماحة، ثم شـــمل الله – ســـبحانه وتعالى – برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا فـــي هذه الغزوة، على الرغم مما وقع مـــن بعضهم من أخطاء جســـيمة، وما ترتب عليها من خســـائر، فقـــال – جل ثناؤه –: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّـونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِـلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْـرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّـن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيـدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢][3].

ونقول لكل من أخطأ واجتهد، أو فرَّط في ثغر كان عليه، وحِمى كان يحميه، أو ترك مكاناً شـــاغراً بعده – ســـواءٌ كان عملاً تربويّـــاً أو غيره من اهتمامات جادة شـــرعية –: عُد؛ فالعـــود أحمد، وعفا الله عما ســـلف. عُد بهمة تعلو الجبال، وطموح يتجاوز الزمن، وعزيمة تفلُّ الحديد؛ مستشـــعراً معيَّة الله لك، مســـتعظماً الدور الذي تقوم به، مستصغراً العقبات والعواقب، مؤثراً الآخرة علـــى الدنيا. ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. [الأعلى: ١٧]

(١) يُنظَر: السيرة النبوية دروس وعبر، د. السباعي، (ص١١٥).
(٢) يُنظَر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (ص٢٢٤).
(٣) يُنظَر: غزوة أحد دراسة دعوية، د. يا مدحج، (ص٢١٧).

مصارع المغرَقين

فهد بن صالح العجلان

حدَّث العالم الجليل ابن أبي ذئب بحديث «من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين»، فقال له أبو حنيفة: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ قال: فضرب صدري وصاح بي صياحاً منكراً ونال مني، وقال: أُحدِّثُك عن رسول الله وتقول: تأخذ به؟ وذلك الفرض عليَّ وعلى من سمعه[1].

وسأل رجلٌ الإمام الشافعي عن مسألة فقال: يُروى فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ، فقال له السائل: يا أبا عبد الله تقول به؟ فرأيت الشافعي أرعد وانتقص، فقال: يا هذا! أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن النبي ﷺ حديثاً فلم أقل به؟ نعم على السمع والبصر على السمع والبصر.[2]

وقال: إذا رويتُ عن النبي ﷺ حديثاً صحيحاً فلم آخذ به فأنا أُشهدُكم أن عقلي قد ذهب.[3]

وقال وكيع بن الجراح لشخصٍ اعترض عليه بقول أحد التابعين: أقول لك: قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم؟ ما أحقَّكَ أن تُحبَس ثم لا تخرج حتى تَنزِع عن قولك هذا.[4]

وروعة هذه النماذج تغري الكاتب بالاسترسال وتشدُّ القارئ لطلب المزيد وهو ما يقف القلم معه عاجزاً عن استقصاء أحوالها؛ لأنها نماذج رائعة مسطَّرة بمدادٍ من نور في سجل كافة علماء الإسلام، تكشف خاصية التجرد والتسليم لخطاب النبي ﷺ؛ فالآراء والاجتهادات تتوقف وتوضع جانباً حين يأتي حديث النبي ﷺ.

لم يكن أحد من فقهاء الإسلام يردُّ حديث النبي ﷺ، بل لا يتوقف في ذلك لأي سبب كان، وكل ما وقع من ترك بعض الفقهاء لبعض الأحاديث؛ فإنما كان بسبب عذر خاص به ناشئٍ عن عدم بلوغ الحديث له أو كونه يتأوَّله بما يخالف ظاهره، وأما أن يكون أحد منهم قد ترك حديثاً واحداً (تركاً غير جائز فهذا لا يكاد يصدر من الأئمة).[5]

ولا عجب فالعلماء هم أعظم الناس خشية لله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ومن تمام هذه الخشية ولوازمها أن يُسلِّم وينقاد لمن أمره الله - تعالى - بطاعته والتسليم لكلامه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣].

إنه منهج سار عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان من أئمة الإسلام وفقهاء المذاهب، غير أن ثَمَّ منهجاً آخر ما زال في نفسه ضعف في كمال التسليم لسنة النبي ﷺ، فيضع من الشروط والقيود على سنة النبي ﷺ بقدر ما في قلبه من مرض الشك وضعف الانقياد؛ فبعضهم يضعف في قلبه التسليم لحدِّ الزوال حين يلغي اعتبار السُّنة إطلاقاً من التشريع فلا يؤمن إلا بالقرآن فقط، وهي دعوى مخادعة وإلاَّ فلو آمن بالقرآن حقاً لآمن بسُنة النبي ﷺ كما جاءت بذلك نصوص القرآن، بل واقع الحال أنهم لا يؤمنون بقطعيات القرآن في القضايا التي تنافي الثقافة العَلمانية المعاصرة؛ فحقيقة الأمر أنه استثقال

(١) انظر: الرسالة للإمام الشافعي: ٤٥٢ - ٤٥٤، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: ٢٢٢ - ٢٢٣.
(٢) انظر: الفقيه والمتفقه: ٣٠٠.
(٣) انظر: الفقيه والمتفقه: ٣٠١.
(٤) انظر: الفقيه والمتفقه: ٢٨٨.
(٥) رفع الملام، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤٨.

للتشريع ومحاولة للتخفف من جزء كبير منه.

وبعضهم يشترط في السُّنة أن تكون متواترة لا آحاداً، فيلغي أكثرية سُنة النبي ﷺ بتقسيمات محدَثة لم يعرفها الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم، وبعضهم يشترط في الآحاد التي يقبلها أن لا تكون في العقائد أو أن تكون في غير القضايا التشريعية المهمة: كمسائل السياسة والحكم ونحوها، والملفت للنظر أن هذه الشروط التي يضعون تتبخر حين يكون الحديث في هواهم؛ فتجد من يشترط التواتر يستدل بأحاديث الآحاد ويردُّ أحاديث المتواتر، ومن يشترط أن لا تكون في القضايا العقدية أو التشريعية المهمة يستدل ببعض الأحاديث حين تكون موافقة لهواه ويردُّ بعض الأحاديث المتواترة؛ ولو كانت في هذه الأبواب المهمة.

وآخرون يشترطون في السُّنة أن تكون قطعية الدلالة، أو قطعية الدلالة والثبوت، أو مجمَع عليها بين العلماء، أو لا تكون معارضة للعقل أو المصلحة أو مقاصد الشريعة... وخذ ما شئت من هذه الشروط والقيود التي لا تنتهي ولا تتوقف عند حدٍّ؛ بل كلَّما جاء حديث على خلاف ما تهوى النفوس، جاءت هذه الشروط والقيود للتخلص، وهي صورة منافية للتسليم الذي كان عليه أئمة الإسلام وفقهاؤه الكبار.

إن سنة الرسول ﷺ سياج واحد، واختراق حديث واحد، وترك العمل به بلا سبب يؤدي إلى مزيد من التهاون والتساهل بأجزاء أخرى من السُّنة إلى تعطيل السُّنة كلها، وحين يعوِّد المسلم نفسه ويعتاد قلبه على وضع الشروط والقيود لما يقبله من سُنة النبي ﷺ فإنه يكون قد بدأ في شق طريقٍ جديدٍ خارجاً به عن جادة أهل السُّنة والجماعة؛ فما يلبث أن يزداد انحرافه وشتاته إلى أن لا يبالي الله في أي أودية الضلالة هلك.

ولهذا تجد من يضع مثل هذه الشروط لا يجد نفرة أو غضاضة في قلبه من إنكار شيء من السُّنة ولو بلا سبب؛ لأن هذه الشروط لم تأتِ أصلاً إلا من حالة شك بأصل ثبوت السُّنة فكان التهاون في حديث واحد نابعاً من مرض يسبب التهاون في المزيد من السُّنة.

لقد كان علماء الإسلام مدركين تماماً لخطر التهاون؛ ولو بحديث واحد من أحاديث النبي ﷺ، ويستحضرون أن تَرْكَ حديث واحد بلا عذر خرق يُغرِق سفينة النجاة؛ لهذا قال نعيم بن حماد: (من ترك حديثاً معروفاً فلم يعمل به وأراد له علة أن يطرحه فهو مبتدع)[1].

إنها سُنة النبي ﷺ هي مثل سفينة نوح من ركبها نجا من الغرق ووصل إلى العافية والسلامة التي يريدها، ومن تركها وبحث عن النجاة بطرق أخرى فالغرق والهلاك لا بد آتيه ولو بعد حين، ومن لا يقبل السُّنة إلا بشروط وقيود فقد ركب السفينة وهو يجتهد في شق خروق في أسفلها وأعلاها فما تبرح به السفينة أن تغرق؛ فلا ينفعه حينها نداء الناصحين (**اركب معنا ولا تكن مع المغرقين**).

(١) انظر: الفقيه والمتفقه: ٢٩٩.

أمُّ العفاف

فهد بن علي العبودي

ولَغَ الوغدُ في فُرات العفافِ ... أيضرُّ الفراتَ كيدُ الضِّعافِ؟
غارَ وَحْلُ البهتان فيه غريقاً ... ونقاء الأمواه يختالُ طافِ
تتلاشى الأدرانُ في لُجَّة البحـ ... ـر وليست تصيب غيرَ الضِّفافِ
رُبَّ كلبٍ عوى فضاع صداه؛ ... إذ طوتْه فيها رحابُ الفيافي
رَحِمُ البغْيِ مَجَّ نطفة لغوٍ ... وكذا لا يعيش لغْو النِّطافِ
نهش الوغد عِرضَ أمِّ حَصانٍ ... خسئ الوغدُ ناهِشُ الأجْيافِ
إنما (أمُّنا) حَصانٌ رَزانٌ، ... بل تسامى عن هذه الأوصافِ
إن يكن للعفاف في الناس أمٌّ ... فهْيَ (رغم الأوباش) أمُّ العفافِ
برَّأ اللهُ عِرضَها في كتابٍ ... لا مستْ آيُهُ أديمَ الشِّغافِ
لم يزلْ نبعُه ثريًّا نميراً ... يَعْتفيه فيَرْتوي منه عافِ
أفتأتي من بعده وتماري؟ ... لا يماري فيه سوى الأجلافِ
لُكَعَ المارقين! لا زلتَ غرّاً ... وغرورُ الأغرار أدهى الأثافي
موغِلٌ في مفاوز الجهل، أنّى ... يتقي الشرَّ وهْو عارٍ وحافِ؟
إيه عَصْرَ العلوم! ما زلتَ تُؤوي ... بين أهليكَ من بني الأحقافِ
يستطيلون في ضلالٍ وجهلٍ ... ما عهدناه في السنينَ العِجافِ
شربوا من سُلافة الجهل أَوْهَا ... ماً؛ وهل يستجيبُ صرعى السُّلافِ؟
يا لَحى اللهُ مَنْ أشاح عن الحـ ... ـق ولم يَثْنِه لطيفُ الهُتافِ
يخلد الحق في العصور عزيزاً ... ويموتون راغمي الآنافِ

الحج والتغيير

معالم العبودية في الحج
أحمد ذو النورين

مضامين خطبة النبي ﷺ في عرفة
إبراهيم الحقيل

رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين
د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف

سلوكيات الحاج: كيف تصبح منهج حياة؟
د. توفيق علي زبادي

معالم العبودية في الحج

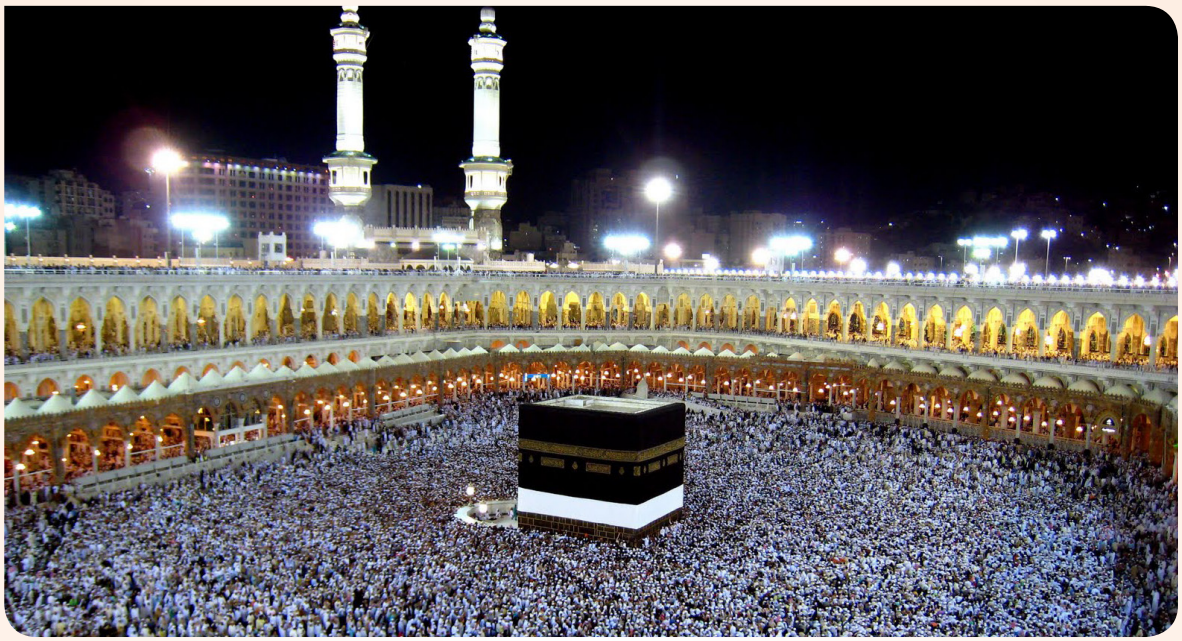

أحمد ذو النورين

العبودية هي استقرار الشعور في نفس العبد على أن هناك معبوداً يؤلِّه وربّاً يُعبَد، وأن ليس هناك إلا ذلك الرب الواحد والكل له عبيد.

إن ذلك الرب الواحد هو الله، جلَّت عَظَمَته، المألوه الذي تتوجه إليه القلوب بكل لاعجة في الضمير، وبكل حركة في الجوارح، وبكل شعور في الحياة، تتوجه إليه بكل إخلاص وإنابة وتجرد من أي تعلُّق آخر، ومن كل معنى غير التعبد له وحدَه. وقد غرز الله - تعالى - في فطرة الإنسان حاجة تجبره أن يكون عبداً؛ فإما أن يكون عبداً للرحمن وإما أن يكون عبداً للهوى والشيطان، وجعل - جلت عَظَمَته - شرف هذا الإنسان وزكاته بعبوديته للخالق الديان. ذلك ما غرسه القرآن في غوائر الأنفس المطمئنة بالإيمان، كما جاء في قوله - تعالى - على لسان أبي العابدين - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. «إنه التجرد الكامل لله - جلَّت عَظَمَته - بكل خالجة في القلب، وبكل حركة في الحياة، وبالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه... إنها تسبيحة التوحيد المطلق، والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات، وتخلصها لله وحده، لله ﴿رب العالمين﴾... القِوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين... في (إسلام) كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبِّدها لله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع...»[1]، إنها العبودية التي من أجلها أُرسلَت الرسل وأُنزلَت الكتب، ولم يكن لإبليس سلطان على أهلها، كما قال - تعالى -: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]، إنها عبودية يؤطرها المنهج الذي لا يكون المرء فيه عبداً إلا لله وحدَه، خاضعاً لوحيه ذليلاً لسلطانه باذلاً حياته لتحصيل مراضيه بأوفر طاعة وأكمل محبة وأتم إنابة، وأشد خشية، وأعمق خوف، وأعلق رجاء، وأكثر حمد، وأجزل شكر، وأجمل صبر، وأرجى دعاء، وأصدح استغاثة، وأندى استعانة، إنها لذة الصلة بالله، جلت عَظَمَته. وهذه هي المعاني التي تترجم المقصد الحقيقي للعبادة كما عرَّفها العلماء. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من

(١) في ظلال القرآن (٣١٨٢).

الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[1]، وهي التجسيد الفعلي للصلة بينهم وبين مألوههم الحق. يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له، بمعنى مألوه؛ وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبه وتذل له. وأصل التألُّه التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال عبَّده الحب وتيمه إذا ملكه وذلله لمحبوبه؛ فالمحبة حقيقة العبودية»[2]. وذلك هو طابعها في المنهج الإسلامي الذي تتجلل فيه العبادات كلها بدثار العبودية. وليس الحج إلا إحدى تلك العبادات؛ بل من أزخرها بمعاني العبودية وحقائقها، فينبغي لمن أراده أن يقف مع ذاته لحظة تأمُّل تكون ثمرتها أن يجعل مرضاة خالقه أمله، وتوبته عليه مطلبه، فيسعى إلى تطهير نفسه من دنس الشرك وأدران الذنوب.

وفي هذا المقال سنحاول إماطة اللثام عن بعض معالم الحج بشكل مختصر:

١ عبودية التوحيد في الحج:

إن شعيرة الحج من أعظم الشعائر التي تقوي خشوع العبد لخالقه، وتحيي في قلبه توحيد المعبود - سبحانه - وذلك لأن أعمال الحج كلها مبنية على التوحيد، فيزاولها الحاج وهو يمارس التوحيد شعاراً وعملاً وتطبيقاً ومنهجاً، فيُقبِل على مشاعره بقلب موحد وعقل متفكر وجَنَان تائب... فإذا استقبل مكة المكرمة وواجه المشاعر المقدسة أدى شعائر الحج عبودية لله - تعالى - وحدَه إخلاصاً وتعظيماً، معتقداً أن سائر أعمال نُسُكه إنما هي وسائل لتجسيد عبوديته للخالق الديان. فشعيرة الحج جعلها الله - سبحانه وتعالى - ترجمة حية لكلمة «لا إِلَهَ إِلَّا الله»، فحين يدخل الحاج في نسكه يجلجل صوته بالتلبية لله - عز وجل - نافياً عنه الشريك، معلناً استحقاقه وحدَه للحمد على آلائه والشكر على نعمه: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»، فيظل يصدح بها والكون كله في تناغم معه. ثم لا يكاد يتوقف عن التلبية حتى يجد نفسه لافظاً بأعظم الذكر، كما جاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[3]. هكذا يحث النبي ﷺ الحاج على تكرار كلمة التوحيد هذه لأجل أن يستشعر مدلولها ويعمل بمقتضاها؛ فيؤدي أعمال حجه خالصة لربه - عز وجل - خالية من جميع شوائب الشرك. يؤديها وهو متدثر في خبيئته ومظهره بالتسليم والانقياد لمولاه، جل في علاه. فتزكو نفسه ويستقيم سلوكه وتتحقق عبوديته، فلا يعود من رحلة حجه إلا وقد صفى قلبه، وطهُر مسلكه، وقويت عزيمته على الخير وصلُب عوده أمام محاشد الشر، ذلك هو الحج المبرور الخالص لله، عز وجل. وهو الذي تتراءى آثاره جلية في حياة المسلم، فيتزود من معينه الزلال بشحنة روحية عاطفية تهز كيانه المعنوي هزاً ينشأ من خلاله نشأة أخرى، فيولد من جديد، ويستقبل الحياة بروح مختلفة. وبهذا يستطعم لذة الحج بعدما يكتشف بنفسه أنه من أنجع العبادات في تزكية النفوس، وأبلغها في تحقيق مقتضيات الاسترقاق، وأمضاها في تجسيد معاني العبودية، وأشملها في تمحيض تعظيم شعائر الله - جلت عَظَمَته - بما يحمله من دلالات التوحيد الخالص، الذي هو لُبَاب الرسالات السماوية كلها، وهو عمود الإسلام وروحه وشعاره الذي لا ينفك عنه.

٢ العبودية عنوان الحاج:

إن المشاعر المقدسة تصدح كلها بإعلان توحيد الله - عز وجل - والاعتراف بفضله - سبحانه - في مجانبة منقطعة النظير لسبل الكفار ومناهج المشركين وغوايات الشياطين؛ بل إن الحاج وهو يلهج بالتلبية يستشعر قيمة العقيدة التي توحد قلوب العباد، ويرى بأم عينه جمال تجاوب الكون وتناسقه حين يعلن عبوديته لخالقه، فيتناغم جميعاً بأحيائه وجماداته. يقول المصطفى ﷺ: «ما من ملبٍّ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا»[4]. إنه التآلف الذي ينال الكون أجمعَه فتمتلئ له قلوب المسلمين محبة ومودة، تجسيداً لحميمية الوشيجة التي يؤصلها الإسلام في نفوس أبنائه؛ فحين يستبدل الحجاج بزيهم المحلِّي زي الحج الموحَّد، ويصبحون جميعاً بلباس واحد لا يتميز منهم أحد، بل قد لبسوا كلهم لباساً واحداً، في موقف واحد، يتوجهون إلى رب واحد، ويتجاهرون بتلبية واحدة، ويتلاهجون بدعاء واحد، يطوفون حول بيت واحد، ويؤدون منسكاً واحداً، وقد ذابت في واقعهم كل الشعارات العُبِّيَّة والهتافات القومية، وتبرؤوا من كل آصرة عصبية، وأداروا ظهورهم لكل انتماء غير الانتماء للإسلام، ونكسوا كل الرايات إلا التي تحمل شعار «لا إله إلا

(١) ابن تيمية الفتاوى الكبرى (١٥٤٥).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٦).
(٣) سنن الترمذي: كتاب الدعوات باب: في دعاء يوم عرفة ح (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في تعليقه عليه.
(٤) سنن ابن ماجه: من حديث سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، كتاب المناسك، باب: التلبية ح(٢٩٢١)، وصححه الألباني في تعليقه عليه.

الله محمد رسول الله». فعند ذلك تحيا ذكرى الأمة الواحدة المتعاونة المتناصرة، المتآلفة المتكاتفة ذات الجسد الواحد، كما جاء في حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

إن الحج تدريب حقيقي برمَّته، إنه مدرسة غير مزيَّفة، يدخل فيها المسلم فيتعلم احترام الآخرين، فلا يتعدى على أحد، ولا يظلم أحداً، ولا يبغي على أحد. إن أسراب الحجيج تفد على الله - تعالى - بخطى طائعة واستجابة متسارعة وانقياد لا رجعة فيه، فلا تكاد تُكمل نُسُكها حتى ترفل في حدائق العبودية، فتشهَد منافعَ وتتحقق وِفادَتها. وتستلهم ما شاء الله لها من إدراك معاني الحجِّ وحِكَمه وأسراره في أجواء النُسُك وربانية التنقُّل في عرصات المشاعر المقدَّسة. وتستوعب حقيقة التكامُل والتهذيب وأصول التخليَة المفضية إلى التحلية، المبلغة إلى درجة التوحيد الخالص المبنية على العبودية المطلقة التي تقود الخلق إلى برِّ الأمان لتقيهم من زوابع الشرك والطغيان، بتوحيد الخالق الديان في ألوهيته وربوبيته، وتعصمهم من الإلحاد في أسماء الله - تعالى - وصفاته؛ ذلك هو التوحيدُ الذي يحصر تعلُّق العبيد ورجاءهم بالله - جل شأنه - فلا يكون خوفهم إلا منه، ولا تكون استعانتهم ولا استغاثتهم إلا به - جلت عَظَمَته - فتغمر قلوبَهم سعادة اليقين والإخلاص، فتشع في نفوسهم شحنة الإيمان وتزدان بريحان الإحسان، وتمتلئ جوانحهم تقىً وخشية، فيشدون مآزرهم عزماً على طاعة ربهم.

٣ عبودية الاستعداد للرحيل إلى الدار الآخرة:

إن أعمال الحج في ذاتها تربط الحاج بالآخرة في كل مراحلها؛ فسفر الحاج عن وطنه ووداعه لأهله وأبنائه يذكِّره بالموت فيستحضر الرحيل عن هذه الدنيا الفانية وانتقاله إلى ذلك اليوم الموعود، وإنَّ تجرُّده من ملابسه ولُبْسَه ملابس إحرامه يذكِّره بخلع ملابسه عند موته وتكفينه في قطعة قماش هي كل ما يخرج به من دنياه، وليس مَنْعُه من ارتداء المخيط والتطيب وقص الشعر، وحظر كافة أنواع الترفه عليه بعد لبسه لإحرامه إلا تذكيراً له بواقع أمره وقت صيرورته إلى قبره، حين لا يكون له سبيلٌ إلى التلذذ بلذة، ولا تكون له قوة على التمتع بمتعة، ولا اشتهاء شهوة، ولا نزعة له إلى التلهي بمُلْهٍ.

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم ح(٦٠١١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ح(٢٥٨٦)، واللفظ لمسلم.

أما إذا وصل موكب الحاج إلى صعيد عرفات وتراءت له الآلاف المؤلفة من البشر، فإنه يتذكر وقوف الناس بين يدي الله - عز وجل - حفاة عراة غرلاً، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ»[2]. وليس بعيداً عن هذا ما ينبعث في نفس الحاج عند تزاحمه مع آلاف الطائفين والساعين والرامين؛ فكل هذه المشاعر تذكِّره بالمحشر يوم يجمع الله الأوَّلين والآخرين، بما تصوره من أهوال ذلك اليوم العصيب وآلامه ومتاعبه ومظاهر الضنك فيه، حين يتصبب العرق من الأجساد في الموقف الأعظم، كما جاء في حديث الْمِقْدَاد بْن الأَسْوَدِ - رضي الله عنه - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَ اللَّهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ: أَمَسَافَةَ الأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَاماً». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ»[3].

بهذه المعاني العظيمة تتحقق عبودية الحجاج ويزدادون تقرباً إلى الله - تعالى - ويتنافسون في الخيرات ويتسابقون إلى الطاعات ويستغلون لذلك سائر الأوقات، ويبتعدون عن كل قول أو فعل نادٍّ عن آداب الإسلام والإيمان والإحسان، أومؤدٍّ إلى التنازع بين الرفقاء والأقران؛ ذلك أنهم أدركوا جميعاً خصوصية اجتماعهم على مائدة الرحمن، وعلموا أن أعلى القربات منزلة أن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان؛ لتتفيأ أرواحهم نسائم أخوة الإيمان، فتمحى عنهم كل الخطايا والأدران، وينالون الدرجات العليا في الجنان، ويستجلُون بكل يقين علَّة خلق العباد، ويتذوقون بكل حواسهم قيمة العبادة، ولماذا جعلها الله - جلت عَظَمَته - مشروطة بالإخلاص والتوحيد.

٤ عبودية التقوى في الحج:

إن شأن التقوى لعظيم؛ ذلك أنها زاد القلوب والأرواح، منها تقتات وبها تتقوى وفي نعيمها ترفل، وعليها تستند في وصولها إلى مبتغاها، وبها تتحصن وتنجو مما تخاف وترهب. فالتقوى لغةً مأخوذة من الوقاية وما يحمي به الإنسان نفسه. وتتمثل التقوى عملياً في أن يجعل العبد ما بينه وبين ما حرم الله

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، باب: كيف الحشر؟ ح(٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٩).
(٣) مسلم: كتاب الجنة، باب: في صفة يوم القيامة، أعاننا الله على أهوالها ح(٢٨٦٤).

حاجباً وحاجزاً؛ لذلك قرنها الله – سبحانه – بكل عمل يقوم به المسلم في حياته.

وعليه فإنه لا بد للحاج أن يكون منذ لحظته الأولى في الاستعداد للحج مقبلاً على الله – تعالى – قاصداً له، متجرداً من عاداته ونعيمه، منسلخاً من مفاخره ومميزاته على غيره، مهيئاً نفسه لعرصات يتساوى فيها الغني والفقير، ويتماثل فيها الصعلوك والأمير، قد لبس أهلها زيَّ الأموات واستسهلوا سكب العبرات واستطابوا طعم المناجاة، طلباً لتصفية نفوسهم، وتهذيب أخلاقهم، تلذذاً بحقيقة العبودية، واستدراراً للمنح الربانية، فحصَّلوا من السعادة ما لا يقدَّر قدرُه، وإن كان لا يخفى أمره؛ فهم أولو النهى الذين خاطبهم ربهم بقوله – سبحانه –: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]. إنهم أَوْلَى من يدرك التوجيه إلى التقوى، وخير من ينتفع بالذكرى؛ فهم ذوو العقول المدركة الواعية للإشارة إلى أن من لا يتقي الله ليس عنده لب يدرك به، ولا قلب يعي به، ولا إرادة تعمل على مقتضى العقل والحكمة؛ فأهل الألباب هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها.

يقول الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله
وأنك لم ترصد كما كان أرصدا[1]

إن تقوى الله – تعالى – تولِّد خشيته في الضمير، وتستجيش في النفس التحرج وتحرك فيها الحساسية الشديدة، فتقودها إلى تطبيق الأوامر في حضور، وتحرسها عن النواهي في انتباه، إن طبيعة هذا الدين مبناها على ترابط أجزائه؛ فلا تنفصل فيه الشعائر التعبدية عن المشاعر القلبية ولا التشريعات التنظيمية، بل لا يستقيم إلا بشموله أمور الدنيا وأمور الآخرة، وشؤون القلوب؛ فلا بد أن يشرف على الحياة كلها، فيصرِّفها وَفْقَ تصور واحد متكامل، ومنهج واحد متناسق، ونظام واحد شامل، وأداة واحدة هي هذا النظام الخاص الذي يقوم على شريعة الله في كافة الشؤون[2].

إن شعيرة الحج من أعظم الشعائر التي تحيي في قلب المؤمن توحيد المعبود – سبحانه وتعالى – لكثرة ما تجمعه من الأعمال التي تأخذ بمجامع الحاج إلى رياض ربه موحداً متفكراً تائباً منيباً. وعلى راسيات من التقوى جاءت أسرار الحج عظيمة، ومقاصده كريمة، وغاياته جسيمة لا تتحقق إلا بامتلاء القلب عبودية وإجلالاً لله – تعالى – وتجرداً له. يقول الله – سبحانه –: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ويعلق الشيخ السعدي على هذه الآية قائلاً: «والمقصود من الحج، الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات؛ فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[3]. إن في الحج ألواناً من ثمار الطاعات تصعد بالنفس المؤمنة إلى المراتب العالية، فتراقب الله – تعالى – في الصغيرة والكبيرة، وفي السر والعلن على السواء، كأنها تعيش عين اليقين، في أعلى مقامات الإحسان، كما جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ عرَّف الإحسان قائلاً: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4]، وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل الطاعات كلها، وتنتهي عن المعاصي كلها، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة، وفي السر والعلن على السواء. وبذلك يكون للحج أوضح الأثر في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، كما قال – عز وجل –: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، إنه تعليل قرآني يفتح باباً رحباً للتأمل في هذه المنافع المشهودة التي يكتسبها الحاج من هذه الرحلة الميمونة.

ولتتجلَّى قيمة التقوى أكثر ويتضحَ عظيم أثرها بشكل أعمق، جعلها الله – تعالى – الميزان الذي توزَن به الأعمال ويوزن به الناس؛ ولذا كثُرت الوصية بها في آيات الحج؛ فقد قال – سبحانه –: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال أيضاً: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال – سبحانه –: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال أيضاً: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال – سبحانه –: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. إنها التقوى التي هي جماعُ الخير كلِّه، والتي هي خَلَف من كل شيء ولا شيء يخلفها.

ولنا أن نعلم أن العبد إذا عبد الله على نورٍ من الله يرجو ثوابَ الله، وتركَ محارمَ الله على نورٍ من الله يخشى عقابَ الله،

(١) السحر الحلال في الحكم والأمثال للهاشمي، ص: ٤١ ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٢) انظر: الظلال لسيد قطب، (١٦٧١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٩١
(٤) البخاري: كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ح(٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، سبحانه وتعالى ح(٨)

فقد حقَّق التقوى بحذافيرها في واقع حياته، وتسنَّى له بذلك أن يقوم بالواجبات المنوطة به تجاهَ خالقه وتجاه المخلوقين.

وكل مناسك الحجِّ دالَّة على هذا المقصد، وتتجسَّد فيها معاني العبودية والتوحيد والتقوى.

٥ عبودية الاستسلام:

لله - تعالى - العبودية وحدَه، فهو المَعْبُود في كُلِّ زَمَانٍ ومكان، وهو المعبود بكل حركات الأركان ونبضات الجنان؛ وذلك ما يجسده الحج بما فيه من مظاهر الذل وتجليات الخضوع والعبودية لله - جل شأنه - فالحجيج وهم يلبون، والحجيج وهم لاظُّون بالدعاء لاهجون بالذكر، طائفون بالبيت العتيق، مقبِّلون للحجر الأسود، رامون للجمار... يتجلى خضوعهم لله - سبحانه وتعالى - في أعلى مستوياته، ويتبين انقيادهم لأمره جلَّت عَظَمَته في أبهى صوره؛ فهم مستسلمون لشرعه بكل طمأنينة قلب وانشراح صدر ومتابعة فعل، أدركوا الحكمة أو لم يدركوها، كما قال الفاروق عمر - رضي الله عنه - عند تقبيله للحجر الأسود: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك»(١).

ذلك أنهم استوعبوا غايات الحج ومراميه وعلموا أن إيمانهم لا يتحقق وحجهم لا يُقبَل إلا بالتسليم الكامل لحكم الله - سبحانه وتعالى - وحكم رسوله ﷺ مع الراحة النفسية لذلك الحكم والرضى القلبي به وإسلام الجنان له باطمئنان. قال - تعالى -: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، إنهم علموا يقيناً أنهم لا يدخلون في الإيمان؛ ولا يُحسبُون مؤمنين حتى يحكِّموا الرسول ﷺ في حياتهم في مناسكهم في أقضيتهم... إلخ ثم يطيعوا حكمه، وينفذوا قضاءه ويسلكوا منهجه ويتبعوا سننه. لقد قادهم يقينهم ذلك إلى جعل الحج ميداناً للطاعة يتنافس فيه المتنافسون ويشمر فيه العاملون، متأسين بنبيهم ﷺ مطبقين لأمره؛ كما قال جابر - رضي الله عنه -: (رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلِّي لا أحج بعد حجتي هذه»)(٢).

إنه التسليم والتأسي والخضوع لأمر هذا النبي الأسوة ﷺ، خير من اتصف بالعبودية والاستسلام لله، عز وجل.

إن الحج باشتماله على كل أصناف العبادات القلبية: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والبدنية؛ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ - ٣٠]، والمالية؛ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، إن الحج باشتماله على تلك الطاعات كلها يكون تجسيداً عملياً للعبادة بمعناها الحقيقي وواقعها الفعلي، كما أشيرَ إلى ذلك في مقدمة هذا المقال؛ حيث يقول ابن تيمية معرفاً العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضى بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله)(٣).

وذلك أن عبادة الله - سبحانه - هي الغاية المحبوبة لديه والعمل المرضي عنده، والغاية التي من أجلها خلق الخلق، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والحج بما يشتمل عليه من الخضوع والاتباع والصلاة والذبح والنحر والدعاء والطواف، والطاعات في شتى صورها وأشكالها تتحقق فيه غاية الخلق ويتجسد فيه مقصد الحق.

فيا أخي الحاج قف مع نفسك وفتش عن تلك العبوديات الظاهرة والخفية في الحج. وحاول أن تكون من أهل عبودية الطاعة والمحبة، التي ذكر الله - تعالى - منَّته بها على أنبيائه، عليهم من ربهم أفضل الصلاة وأتم السلام.

٦ التفرغ والدعاء:

في أيام الحج ينبغي للحاج أن يتفرغ للدعاء والذكر والعبادة بمختلف أصنافها، بعيداً عن الانشغال مع الناس بالكلام والأحاديث التي قلَّما خلت من إثم، بل يلزمه استغلال كل فرصة سنحت له للتفرغ للذكر والدعاء وقراءة القرآن، وعليه أن يستيقن أن المشاعر مكان دعاء، وأن أيام الحج زمان دعاء، فينبغي لكل قدوة كالعلماء ونحوهم أن يُرُوا الناس الاجتهاد في الدعاء،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب: ما ذكر في الحجر الأسود ح(١٥٩٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب: استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ح(١٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» ح(١٢٩٧).

(٣) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى (٥١٥٤).

والإلحاح في المسألة والضراعة والاستكانة لله جلَّت عَظَمَته بكاءً وخشوعاً، مستمرئين سؤال الله - عز وجل - مستطيبين الثناء عليه - سبحانه - بما هو أهله، شاكرين نعمه - عز وجل - عليهم أن بلغهم هذا المبلغ وأراد بهم الخير؛ فحري بهم أن يشكروا آلاءه عليهم؛ فيجتهدوا في مسألته والضراعة إليه - سبحانه وتعالى - وجَمْعِ القلوب على محبته والإخلاص له والتوكل عليه ورجائه والخوف منه، وبذل الوسع لتوثيق عرى الصلة بين القلوب والجوارح على تعظيمه والافتقار والتوبة والإنابة إليه. يقول ابن القيم: (ومن المعلوم أن هذا هو مقصود الرب - تعالى - بإرساله رسله وإنزاله كتبه وشرعِه شرائعه؛ فدعوى المدعي أن المقصود من هذه العبودية حاصل وإن لم يصحبها عبودية القلب مِنْ أبطل الدعاوي وأفسدها، والله الموفق، ومن تأمل الشريعة في مصادرها وموارِدها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميِّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم؛ فهي واجبة في كل وقت ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان؛ فمركب الإيمان القلب ومركب الإسلام الجوارح)[1].

فلا بد أن يعلم الحاج أن الحج من أعظم مواسم المسألة والدعاء، كما جاء في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله؛ دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[2].

وأفضل ما دُعي به - سبحانه - وأثني عليه به توحيده والإكثار من قول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)، كما جاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[3]. فالمقصود أن يفهم الحاج أن النبي ﷺ نبَّه بهذا الحديث على أن موسم الحج يحتضن أفضل الأيام وأربح سوق للدعاء، إنه يوم عرفة، فإنه يوم عظيم، وفيه خير عظيم، وكما جاء في حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي ﷺ قال: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[4]. وكما جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها -: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[5].

وقد ظل النبي ﷺ من بعد زواله حتى غروب شمسه مستقبلاً القبلة يدعو ربه، عزوجل[6]؛ فادع الله - أيها الحاج الكريم - بما شئت ولا سيما في آخر يوم عرفة وعند المشعر الحرام. وتفرغ للدعاء والذكر، ولو أن تكرر (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)، واجتهد - يا رعاك الله - في مواقف الحج كلها ذاكراً الله - سبحانه - داعياً إياه متضرعاً إليه، وإن جمعت بين التلبية والدعاء وقراءة القرآن فحسن، وحريٌّ بك أن تعلم فقرك وحاجتك إلى ربك، وتنتهز هذه الفرصة بالدعاء لنفسك والمسلمين بالهداية والثبات على هذا الدين. ولك أن تنظر إلى حكمة الشارع الحكيم بتقديم الصلاة عن وقتها في جمع التقديم يوم عرفة وتعجيلها فجر مزدلفة من أجل التفرغ للدعاء والمسألة؛ فيدعوك ذلك إلى حفظ هذا الوقت، والاجتهاد في سؤال الله - عز وجل - من فضله العظيم، وقد كره بعض العلماء النوم في هذين الوقتين لما رأوا فيه من الاستخفاف بعَظَمَتهما.

فاحرص على نفع نفسك.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) ابن القيم: بدائع الفوائد (٣٢٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الحج، باب: فضل دعاء الحاج ح(٢٨٩٣)، وقال الشيخ الألباني في تعليقه عليه: (حسن).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب: في دعاء يوم عرفة ح(٣٥٨٥)، وقال الشيخ الألباني في تعليقه عليه: (حسن).

(٤) موطأ الإمام مالك (١٤٢٢).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب: في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ح(٤٣٦).

(٦) انظر: مسند الإمام أحمد (٢١٨٧٠)، وصحيح ابن خزيمة (٢٨٢٤)، وسنن النسائي (٣٠١١).

مضامين خطبة النبي ﷺ في عرفة

إبراهيم الحقيل

حج النبي ﷺ حجةً واحدة، كانت أعظم حجة في التاريخ كله وأفضلها، أقام فيها شعائر الله – تعالى – وعظَّم حرماته، وصدع بدينه، وبيَّن للناس مناسكهم، وخطب فيهم يعلمهم ويبشرهم وينذرهم.

فلما عزم ﷺ على الحج أَذَّنَ في الناس به؛ فتجهزوا للخروج معه، وسمع ذلك مَنْ حولَ المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ، ووافاه في الطريق خلائق لا يُحصَون، فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله مدَّ البصر.(١)

كلهم شَرُفوا بالحج مع رسول الله ﷺ، وهل حَجةٌ أفضل من حَجةٍ يؤمهم فيها أفضل البشر، وخاتمُ الرسل؛ يهتدون بهديه، ويستنون بسُنته، ويقلِّدونه في أفعاله، ويَنعَمون برؤيته، ويستمعون إلى خطابه، ويأخذون عنه مناسكهم، ويشاركونه في تعظيم الله – تعالى – وذكره وشكره؟ فيا لله العظيم! ما أعظم تلك الحجة! ويا لسعادة من حضرها!

إن من حضرها طاف مع رسول الله ﷺ بالبيت، ووقف معه في عرفة، وفي المشعر الحرام في مزدلفة، وشاركه في الهدي وفي الجمار، وبات معه في منى، واستمع إليه وهو يخطب في الناس يعلِّمهم مناسكهم ودينهم، ويحضهم على ما فيه فلاحهم، وينهاهم عما يضرهم؛ فلو كان الأمر بالاختيار لاختار كل المسلمين أن يحجوا معه ﷺ؛ ولكن ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقف ﷺ يوم الجمعة في عرفة عَقِب الزوال، وخطب الناس خطبة عظيمة بليغة بيَّن فيها الحقوق والحرمات، ووضعَ فيها مآثر الجاهلية تحت قدميه، وأوصى بالنساء، ودلَّهم على سبيل العصمة من الضلال، ثم أشهدهم على بلاغه، فشهدوا في ذلك الجمع العظيم شهادةً ما اجتمع حشدٌ مثله يشهدون على مثل ما شهدوا عليه، فقال ﷺ في تلك الجموع العظيمة: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا، ألا كُلُّ شَيْءٍ من أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ من دِمَائِنَا دَمُ ابن رَبِيعَةَ بن الْحَارِثِ كان مُسْتَرْضِعاً في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بن عبد الْمُطَّلِبِ فإنه مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا الله في النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ؛ فَإِنْ فَعَلْنَ ذلك فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غير مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وقد تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: اللهم اشْهَدْ، اللهم اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».(٢)

وقد تضمنت خطبته في ذلك الموقف العظيم مضامين عظيمة هي:

المضمون الأول: حرمة الدماء والأموال والأعراض:

وهذه الضرورات مما اجتمعت عليها شرائع النبيين – عليهم السلام – ولا يتأتى للبشرية عيش صالح باختلالها، والغالب أن اختلال أحدها يؤدي إلى اختلالها جميعاً، وقد قال الله – تعالى – في قصة آدم وإبليس ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]؛ والأرض

(١) جاء ذلك في حديث جابر – رضي الله عنه – في وصف حجة النبي ﷺ قال: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذَّن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاجٌّ، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه...» أخرجه مطولاً مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤)، والدارمي (١٨٥٠).

(٢) مضى تخريجه في حاشية رقم (١).

لا تكون مستقراً للناس ومتاعاً لهم إلا بأمنهم على دمائهم وأعراضهم وأموالهم.

ومقصود تحصيل هذا الأمن وغايته: إقامة التوحيد في الأرض، أي: يسعى الناس في ما يحقق الأمن؛ ليتسنى لهم عبادة الله وحدَه لا شريك له، وإقامة دينه، والحكم بشريعته؛ لأنه إذا عُدِمَ الأمن، واختلط الأمر لم يتمكن الناس من عبادة الله - تعالى - وإقامة دينه.

ولعل هذا هو سبب تقديم النبي ﷺ في خطبته تحريم الدماء والأعراض والأموال على أي أمر آخر، ولو كان هذا الأمر ترسيخ التوحيد (الذي كان في فِقرَة تالية)؛ لأن التوحيد لا يقام ويرسخ رسوخاً كاملاً بلا أمن.

وبهذا ندرك حكمة الجهاد والغاية من مشروعيته؛ إذ هي تحقيق الأمن الذي يهيئ لقيام التوحيد، والحكم بشريعة الله - تعالى - بين الناس؛ إذ لا عدل إلا فيها، ولا صلاح للبشر إلا بها، وبديلها الفتنة عن الدين، واختلال الأمن بمفهومه الشامل؛ كما قال الله - تعالى - ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبهذا ندرك أيضاً غلط من حصروا الجهاد في الدفع، وألغوا جهاد الطلب، والتفوا على نصوص الجهاد فوسعوا الدفع فيها ليتناول حماية الدعوة ولو بقيت أنظمة الكفر تحكم الأرض وتعيث فيها فساداً، ما دامت تقرر حرية التدين للأفراد؛ فألغوا وجوب إخضاع الناس لحكم الشريعة الربانية، وارتضوا لهم حكم الشرائع الوضعية.

وكم كان في هذا التزوير والتأويل من جناية على الشريعة الغراء، وإضلال للناس، وإقرارٍ لأسباب شقاء البشرية؛ وإلا فإن جهاد الدفع لا يحتاج أصلاً إلى من يقرره؛ لأن من طبيعة البشر وجبلَّتهم الدفاع عما اختصوا به، وردَّ عدوان المعتدين عليهم، يستوي في ذلك المؤمن وغيره.

وعلماء الإسلام حين عقدوا أبواباً للجهاد إنما عقدوها لأحكام جهاد الطلب؛ فهو الأصل في الإسلام، ويذكرون جهاد الدفع تبعاً، وهذه حقيقة فقهية؛ وإن شرق بها أعداء الإسلام والمتخاذلون عنه المبدلون لأحكامه. والفقهاء حينما فصَّلوا في كتبهم أحكام الجهاد فإنهم يعنون به جهاد الطلب، ثم يذكرون الحالات التي يتعين فيها الجهاد وهي ثلاث صور ليس جهاد الدفع إلا واحدة منها.

فالأمن الكامل لا يكون إلا بإقامة دين الله - تعالى - والحكم بشريعته بين الناس، ولا يقوم الدين قياماً تاماً، ويقضى بأحكامه على الناس كلهم إلا بتحقق الأمن، ولا يتحقق الأمن إلا بحفظ الدماء والأعراض والأموال؛ ولذا كان تحريم النبي ﷺ لها أولَّ شيء دعا إليه في خطبة عرفة، وقرنه بما انعقدت عليه قلوبهم من تعظيم الزمان والمكان، وحرمة مكة وحرمة يوم عرفة وحرمة شهر ذي الحجة: «كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا».

وكرر النبي ﷺ حرمة الدماء والأموال مرة أخرى بقوله: «وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ... وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ...» وهذا التكرار إما أن يكون تأكيداً لما سبق، وإما أن يكون إبطالاً لما يعتقدون حِلَّه أو استمرارهم عليه لكونه كان قبل النهي عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «ثم خص بعد ذلك الدماء والأموال التي كانت تستباح باعتقادات جاهلية... إما لتخصيصها بالذكر بعد العام، وإما لأن هذا إسقاط لأمور معيَّنة يعتقدون أنها حقوق، لا لسنن عامة لهم فلا تدخل في الأول»[1].

المضمون الثاني: ترسيخ التوحيد، والقضاء على كل مظهر من مظاهر الشرك:

وذلك ظاهر في قول النبي ﷺ: «ألا كُلُّ شَيْءٍ من أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ». قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى -: «يدخل فيه كل ما كانوا عليه من العبادات والعادات مثل دعواهم يالِ فلان ويالِ فلان، ومثل أعيادهم وغير ذلك من أمورهم»[2].

واستخدام النكرة ولفظ الاستغراق يدل على الشمول (كل) (شيء) (من أمر) فما دام له تعلُّق بالجاهلية فهو موضوع أي: ملغىً، وقد بالغ ﷺ في تحقيره (تحت قدمي) أي: مهما علا شأنه عند أهله، وامتلأت قلوبهم بتعظيمه؛ فهو تحت الأقدام ما دام من أمر الجاهلية.

وأمر الجاهلية هو ما عارض الديانة الربانية، ولا يقتصر على ما كانت تعرفه العرب من عبادة الأوثان، أو ما تعتقده من أفكار خاطئة، أو ما ترتضيه من عادات وأعراف. بل يدخل في مصطلح (أمر الجاهلية) كل ما عارض الإسلام في كل زمان ومكان؛ لأن دعوة النبي ﷺ هي إلى آخر الزمان، وهي إلى الناس كافة.

فالمذاهب والأفكار المحدَثة المعارضة للشريعة: من شيوعية واشتراكية وقومية وبعثية وليبرالية ورأسمالية كلها من أمر الجاهلية، ويدخل في ذلك المصطلحات التي انخدع بها كثير من الناس: كالحرية والديمقراطية وتحرير المرأة ونحو ذلك، وهكذا أفكار الفرق الضالة: من رافضة وإسماعلية ونصيرية وبهائية وقاديانية وصوفية ونحوها هي من أمر الجاهلية أيضاً.

ويكون في أصحاب هذه المذاهب والأفكار والمصطلحات المحدثَة من أدواء الجاهلية بقدر ما فيهم من إيمان بها، وانحراف عن دين الله تعالى.

وأمر الجاهلية منه ما هو قديم؛ أي: كان موجوداً وقت تنزُّل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١١١، ط الفقي.
(٢) المرجع السابق: ١١١.

الوحي، ومنه ما هو حادث؛ أي: بعد وفاة النبي ﷺ؛ فأما القديم من أمر الجاهلية فعلى نوعين:

النوع الأول: ما أقرته الشريعة؛ سواء كان من المعتقدات والعبادات، مثل: تعظيم البيت الحرام، والحج إليه، والتقرب بسقاية حجاجه ونحو ذلك. أو كان من الأخلاق والعادات كإكرام الضيف، وحفظ حقوق الجار، فهذا النوع انتقل بإقرار الشريعة له من كونه أمراً جاهلياً منكراً إلى معروف مأمور به، يثاب عليه صاحبه.

النوع الثاني: ما سكتت عنه الشريعة أو أبطلته؛ سواء كان من المعتقدات: كاعتقادهم في الأوثان والتقرب إليها، أم كان من الأخلاق والعادات: كوأد البنات، والإسراف في القتل والثأر، فهذا يدخل في عموم إبطال النبي ﷺ لأمر الجاهلية.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى -: «ولا يدخل في هذا اللفظ ما كانوا عليه في الجاهلية وأقرَّه الله في الإسلام: كالمناسك وكديَّة المقتول بمائة من الإبل، وكالقسامة ونحو ذلك؛ لأن أمر الجاهلية معناه مفهوم منه ما كانوا عليه مما لم يقره الإسلام فيدخل في ذلك ما كانوا عليه وإن لم يُنْهَ في الإسلام عنه بعينه»[1].

أما ما أحدثه الناس بعد النبي ﷺ فهو على نوعين أيضاً:

النوع الأول: ما كان في المعتقدات الغيبية والعبادات فهو من أمر الجاهلية، ولا يحل اعتقاده ولا العمل به؛ إذ الشريعة موقوفة على النص، ومكمَّلة من الرب - سبحانه - فلا يجوز الاستدراك عليها؛ لكمالها وتمامها. قال الله - تعالى -: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ومن الموافقات العجيبة أن هذه الآية العظيمة التي تفيد كمال الدين قد نزلت متزامنة مع خطبة النبي ﷺ في يوم عرفة نفسه وهو واقف بها؛ كما أخبر بذلك عمر، رضي الله عنه[2]. وكل النصوص الناهية عن الإحداث في الدين، وردِّ البدعة على صاحبها تتناول هذا النوع، وتجعله من أمر الجاهلية.

النوع الثاني: ما كان من قبيل عادات الناس وأعرافهم وسلوكياتهم، وهو على أنواع:

- ما خالف شيئاً من الشريعة؛ فهو من أمر الجاهلية.

- ما كان من قبيل العادات واختص به الكفار، مثل ما اختصوا به من الألبسة وقصات الشعر ونحو ذلك، فهو من أمر الجاهلية؛ لاستفاضة النصوص وانعقاد الإجماع على تحريم التشبه بالكفار، ولا يزول تحريمها إلا بارتفاع اختصاصهم بها.

- ما كان فيه نفع للمسلمين: كعلوم الطب والهندسة والصناعة والإدارة ونحوها، فليس من أمر الجاهلية؛ لعموم النصوص الآمرة بتحصيل المنافع، وتحقيق أسباب القوة، ومنها قول الله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

المضمون الثالث: امتثال الآمر لما يأمر به، وانتهاؤه عما ينهى عنه، والبَدء في ذلك بنفسه وأهل بيته وقرابته:

فإن ذلك أدعى لقبول الناس لقوله، وهذا ظاهر في قول النبي ﷺ: «وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ من دِمَائِنَا دَمُ ابن رَبِيعَةَ بن الْحَارِثِ كان مُسْتَرْضِعاً في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بن عبد الْمُطَّلِبِ فإنه مَوْضُوعٌ كُلُّهُ».

وهذا واجب من واجبات الدعوة عظيم، وأدب من آدابها رفيع، وهو سلوك الأنبياء - عليهم السلام - فلم يُنقَل عن أحد منهم أنه خالف قوله فعله، ولو وقع ذلك منهم لعيَّرهم به المكذبون من أقوامهم، فلما لم يقع ذلك منهم عُلِم أن طريقة الأنبياء وأتباعهم من الدعاة هي موافقة العلم العمل، وإتباع القول الفعل؛ كما حكى الله - تعالى - عن شعيب - عليه السلام - أنه قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

فواجب على الولاة والدعاة أن يكونوا هم وآلهم أول الممتثلين لما يأمرون به، وأول المنتهين عما ينهون عنه، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته فقال: «إني نهيت عن كذا وكذا؛ والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا وإن هبتم هابوا وإني - والله - لا أوتى برجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر»[3].

المضمون الرابع: الوصية بالنساء، وبيان ما لهن وما عليهن في بيت الزوجية:

وذلك في قول النبي ﷺ: «فَاتَّقُوا الله في النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ؛ فَإِنْ فَعَلْنَ ذلك فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غير مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

فهذه الوصية هي من البناء الاجتماعي المتين، والإصلاح الأسري المكين؛ ذلك أن صلاح الزوجين وأداء كلٍّ واحد منهما للآخر حقَّه فيه صلاح الأسرة، وصلاح الأسرة يعود على المجتمع بأجمعه بالصلاح والاستقامة.

وكم أثَّرت الخلافات الزوجية، والانتكاسات الأسرية على المجتمعات؟ وكم كلفتها من تكاليف باهظة في تسرب الأولاد

(١) المرجع السابق: ١١١.

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (٣٠١٧).

(٣) رواه عبد الرزاق (٢٠٧١٣)، وابن أبي شيبة (٣٠٦٤٣).

وضياعهم، وانتشار الجرائم على أيديهم؛ لامتلاء قلوبهم بالأحقاد والضغائن على مجتمع لم يجدوا فيه الأمن الأسري، والاستقرار النفسي. والعالم كله يتداعى لحل المشكلات الأسرية؛ لما يرى من أثرها في تقويض المجتمعات ودمارها.

وتضمنت وصيته ﷺ بالنساء الإشارة إلى أمرين مهمين:

أولاً: حقوق الزوجات: وذلك بأمره ﷺ الرجال بتقوى الله – تعالى – فيهن، وهذا يشمل حفظ كل حق شرعي للمرأة؛ لأن من اتقى الله – تعالى – في المرأة حفظ حقها، وذِكْرُ النفقة عليهن هو من ذكر الخاص بعد العام؛ لأهمية النفقة في استمرار الحياة الزوجية؛ ولأن الأصل أن الرجل هو المكتسب والمنفق، والمرأة ينفَق عليها في كل مراحل عمرها بنتاً وزوجة وأمًّا؛ وذلك قبل انقلاب مفاهيم الناس في الحضارة المعاصرة؛ إذ جعلت المرأة مكتسبة ومنفقة على نفسها، مضيعة لبيتها وولدها، وكفَّ الرجل نفقته عنها؛ لما يرى من كسبها، وانتقلت من كونها خاضعة له إلى ندٍّ له تنافسه وتصارعه، وأكثر المشاكل الزوجية في هذا العصر، وارتفاع نسب الطلاق هي بسبب هذا الانقلاب في وظائف المرأة وواجباتها.

ثانياً: تكريس حق القوامة للرجل على المرأة؛ إذ به تستقيم الحياة الزوجية، وتصلح الأسرة؛ لأن الله – تعالى – خلق المرأة منقادة لا قائدة؛ ولذا لم يمنحها ولاية على الرجال لا عُظمَى ولا صُغرَى، وأباح للرجل تأديبها من غير سَرَف ولا ضرر.

وهو الحق الذي تريد حضارة الغرب ووكلاؤها الليبراليون تقويضه في بلاد المسلمين، بدعوة المرأة إلى التمرد على الرجل، وجعلها نداً له ينافسه ويصارعه، وفتح مجالات الأعمال للنساء، وتضييقها على الرجال، ونشر ثقافة الاختلاط والانحلال، مع ثبوت التجارب والدراسات المتخصصة بضرر ذلك على النساء والرجال والأطفال والأسرة والمجتمع كله، ولكنها مكابَرة المنافقين، وتعالُم الجاهلين.

وقبل عقد من الزمن – تقريباً – أسست الأمريكية (لورا دويل) جمعية (المرأة المستسلمة) وألَّفت كتاباً بهذا العنوان تصدَّر في أمريكا قائمة أفضل عشرة كتب في بعض الأعوام، تدعو فيه المرأة إلى ترك منافسة الرجل والاستسلام له؛ إن أرادت حياة زوجية سعيدة، واشترك في جمعيتها وعمل بوصاياها آلاف النساء ممن يردن حياة زوجية سعيدة، فنجحن في ذلك، حتى افتتحت فروعاً لجمعيتها في أوروبا، وما زادت على أن أمرت المرأة بالعودة إلى جبلَّتها التي قررها الإسلام.

المضمون الخامس: الوصية بالتمسك بكتاب الله – تعالى – والاعتصام به والتزامه:

فالكتاب والسُّنة هما تَركة النبي ﷺ لنا، وهما العلم الذي خلَّفه لأمته «وقد تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ الله...» وهذه الوصية تتضمن التمسك بالسُّنة؛ لأن الأمر بالاعتصام بالكتاب يلزم منه الأمر بالاعتصام بالسُّنة، وقد ضل في الوصية بكتاب الله – تعالى – طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى: الفرق الباطنية (وعلى رأسها الرافضة الإمامية) حين لم يأخذوا بسُنة النبي ﷺ ورفضوها متمسكين – حسب زعمهم – بهذا الحديث، وفي بعض رواياته في غير الصحيح: «إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1]. وفي بعض الأحاديث: «كتاب الله وسنتي»[2].

الطائفة الثانية: القرآنيون، وهم قوم زعموا الاكتفاء بالقرآن دون السُّنة.

وكلا الطائفتين في ضلال، وفي ما اختاراه من الاكتفاء بالقرآن إلغاء للقرآن الذي يزعمون تمسُّكهم به؛ لأن القرآن أحال على السُّنة، وأمر الله – تعالى – فيه بالأخذ بها في كثير من الآيات: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]... وغيرها عشرات الآيات.

المضمون السادس: إشهاده ﷺ الناس على بلاغه لدين الله – تعالى – لهم:

وهو أعظم إشهاد في التاريخ البشري، في أشرف زمان ومكان، استشهد عليه أفضل البشر، وشهد له أفضل أتباع نبي؛ فشهد له أهل الموقف كلهم وهم زهاء مئة ألف، ولا يُعرَف في التاريخ كله شهود يضاهون هذا العدد، وكانت شهادتهم على أهم القضايا وأعلاها، وهي دين الله – تعالى –: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: اللهم اشْهَدْ اللهم اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

ونحن في المئة الخامسة بعد الألف من استشهاده لأمته في عرفة ﷺ نشهد كما شهد خيار هذه الأمة على أنه ﷺ قد بلَّغ وأدَّى ونصح ﷺ، اللهم فأشهد، اللهم فاشهد اللهم فاشهد.

---

(١) رواه من حديث جابر –رضي الله عنه– الترمذي وقال: حسن غريب (٣٧٨٦) ورواية الصحيح أثبت. وجاء بنحوه من حديث أبي سعيد – رضي الله عنه – عند أحمد: ٣/١٧، وسنده ضعيف، ومن حديث زيد بن أرقم – رضي الله عنه – عند الترمذي وقال: حسن غريب (٣٧٨٨) ومن حديث زيد بن ثابت عند أحمد: ٥/١٨٩. وصححه الألباني بشواهده كما في السلسلة الصحيحة (١٧٦١).

(٢) كما في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عند: البزار (٨٩٩٣) والحاكم: ١/١٧٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٣).

رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين

د. أحمد بن عبد المحسن العسَّاف
ahmadalassaf@gmail.com

لأدب إلى مكانة عالية بين التَّصانيف المختلفة، وما ذاك إلاَّ لما يحويه هذا التَّأليف من فوائد يندر اجتماعها في موضع آخر؛ ولذلك تجد إقبالاً من أهل غالب الفنون؛ فلكتب الرِّحلات عناية بالشُّؤون الدِّينية الخاصَّة بطريق الرِّحلة، واهتمام بالأوضاع الاجتماعية، والسِّياسية، والاقتصادية، والعلمية، لقاطني الدِّيار التي يمرُّ بها الرَّحالة، وفيها احتفال بالغرائب والعجائب، وحرص على ملاقاة مَنْ يستحق اللقاء من العلماء والأدباء، وإلمام بتاريخ المدن وأسماء البلدان وأخبارها، إضافةً إلى أنَّ طابعها يتَّسم بالإمتاع والمؤانسة، وما أجمل رفقة كتب الرِّحلات إبَّان السَّفر؛ أو حين انشغال الذِّهن؛ ففيها ترويح آمن، ومعلومات لطيفة لا تجلب الملل للنَّاظر فيها.

ومهما تنوعت الرِّحلات واختلفت؛ فإنَّ أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرِّحلة التي تسبق مشاعرُه فيها جوارحَه، وترنو إليها روحه سابقةً جسدَه، ويهيم بها فؤاده قبل الشُّروع فيها، ولا تجتمع هذه الصِّفات إلاَّ لقاصدي البيت العتيق للحج والعمرة؛ ثمَّ اهتبال فرصة القرب لزيارة المدينة النَّبوية والصَّلاة في مسجدها، ويا لها من رحلة تستعذبها الأرواح، وتستروح النُّفوس عبيرها، وتظلُّ ذكراها الجميلة عالقةً في ذهن منشئها زمناً طويلاً طويلاً.

وقد ألَّف بعض العلماء والأدباء والبلدانيين والمؤرخين والمستشرقين كتباً عن رحلاتهم إلى الحج، فبعضها كتاب خاصٌّ عن رحلة الحج فقط، وبعضها كتاب رحلة عامَّة ضمَّنها مؤلفها حديثاً عن رحلته إلى الحج والحجاز. ويرجع التَّأليف في هذا الباب إلى القرن السَّادس الهجري، واشتغال الأدباء به أكثر من اشتغال العلماء؛ لأنَّ الأدباء يتوسعون في العبارة، ويكتبون عن الحادثة الواحدة صفحاتٍ طويلةً ماتعة بسبب ماحباهم الله من أدب الدَّرس؛ والقدرة على تشقيق الكلام وإجادة الوصف، وهذا ما لا يتوافر لدى العلماء الذين يحسبون حساب الكلمة الواحدة، وليس لكثير منهم التفات نحو العبارات البلاغية والبيان الزَّائد عن حدِّ الإفهام؛ إضافةً إلى انصرافهم نحو علم المناسك والأحكام؛ حيث منفعته أعظم وله الأولوية على غيره.

واتسعت خريطة الكتابة عن رحلات الحج حتى شملت مؤلفين من الأندلس والمغرب، ومصر والشَّام، والهند واليابان، وتركيا وآخرين من عدَّة بلاد أوروبية طبقاً لجنسية المؤلف أو مكان إقامته، واختلفت أحوال المؤلفين ما بين رحلة شخصية، أو مرافقة لأمير أو ملك، أو على رأس وفد دولة أو أميرٍ لموكب حجِّها، أو ضيفٍ على

حكَّام الحجاز، أو صاحب مشروع سياسي كما في كثير من رحلات المستشرقين. وقد يسَّر الله أن انبرى بعض الباحثين والمؤسسات الثَّقافية لخدمة بعض كتب رحلات الحج ونشرها، ويبقى الجهد الأعظم في استقصاء جميع ما كتب عن رحلات الحج، ونشره محقَّقاً؛ ووضع فهارس كاشفة تعين القارئ على بلوغ مراده، ومعرفة المخطوط منها والمطبوع أو المفقود.

وشملت عناية بعض المؤلفين تتَّبع كتب رحلات الحج كما فعل الأستاذ الشَّيخ حمد الجاسر- رحمه الله - في مجلد واحد أسماه: (أشهر رحلات الحج)، واختصر د. محمد بن حسن الشريف أكثر من عشرين كتاباً من كتب رحلات الحج القديمة والحديثة في أربعة مجلدات بعنوان: (المختار من الرَّحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النَّبوية)، كما أصدر الأستاذ أحمد محمد محمود كتاباً عنوانه: (رحلات الحج) في ثلاثة أجزاء، وتحدَّث فيه عن جملة من كتب رحلات الحج خلال القرون الثَّلاثة الأخيرة.

وتأتي أهمية كتب رحلات الحج وزيارة الحرمين من عِظَم فائدتها العلمية وقيمتها لدى الباحثين؛ فضلاً عن ارتباطها بالأماكن المقدَّسة، ومن جوانب أهميتها أنَّها بيان دقيق لحال المسلمين الدِّينية ومدى قربهم من الله واتِّباعهم السنَّة خصوصاً ما يتعلق بأهل الحرم، إضافةً إلى وصف الأوضاع السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية؛ ونقل عادات السُّكان وطبيعتهم في الافراح والأحزان، وتسجيل سيرة أمراء الحجاز مع الحجَّاج وطرق سياستهم للعامَّة، كما أنَّها تصف العاطفة ومعاني الأخوَّة في الدِّين عند الحجيج وسكان الحرمين، وفيها إيضاح قيمة الأدب ومبلغه؛ وقدر العناية باللغة وعلومها في زمن الرّحلة، كما أنَّها تخبر عن أمن الطريق إلى الحج عبر العصور، وقد تُلمِح إلى جهاد المسلمين وشؤونهم العسكرية، ومن خلالها يمكن الإلمام بشيء من تاريخ عمارة الحرمين الشَّريفين والمشاعر المقدَّسة، إلى غير ذلك من فوائد وفرائد يتلذَّذ بها العقل ويطرب لها السَّمع.

وتمتاز كتب الرَّحلات التي صنَّفها العلماء باحتوائها على مناسك الحج وأحكامه، بينما تهتم كتب الأدباء والمؤرخين بالطُّرف والأخبار الأنيسة، والأوصاف الشَّائقة، وربما لا تخلو من بدع أو خرافات أو معتقدات باطلة، ومن أشهر كتب الرَّحلات التي لم تسلم من البدع والمعتقدات الخاطئة رحلة ابن بطوطة المسمَّاة: (تحفة النظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ومن الغريب أنَّ هذه الرِّحلة قد تُرجِمَت إلى بضع لغات عالمية، وبعض الرَّحلات ينكشف شأنها من عنوانها مثل رحلة أبي عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشَّهير بالسِّراج، والملقب ابن مُلَيح، واسمها: (أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب).

وتعدُّ رحلة ابن رشيد السَّبتي من أفضل كتب الرَّحلات التي دوَّنها العلماء لما أودعه فيها من متين العلم وأخبار ملاقاة العلماء ومذاكرتهم، وهذه الرّحلة مطبوعة محقَّقة في خمسة مجلدات، وعنوانها: (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة). ومن الرَّحلات المهمة في هذا الباب: رحلة الشَّيخ الشِّنقيطي صاحب أضواء البيان وعنوانها (رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)، ورحلة محمد رشيد رضا بعنوان: (رحلة الحجاز)، ومن أفضل الرَّحلات المعاصرة التي أملاها الأدباء (مرآة الحرمين) من تأليف اللواء إبراهيم رفعت وكان أميراً على موكب الحج المصري، ورحلة الأمير شكيب أرسلان بعنوان: (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف).

ومن طرائف كتب رحلات الحج أنَّ أحدهم ألَّف كتاباً عن رحلته للحج باللهجة المصرية العامية أسماها: (يا هناء للوعد) وهذا من الغرائب كما يقول الشَّيخ العلاَّمة د. عبد الكريم الخضير، أمتع الله به. ومنها ما ذكره غلام رسول مهر في رحلة حجه عام ١٣٤٨هـ من شبه القارة الهندية بعنوان: (يوميات رحلة في الحجاز)؛ حيث تعجَّب ومرافقوه من انتشار ركوب الحمير في الحج؛ ومن كثرتها التي تعود لانخفاض أجرتها مقارنة بالجمال؛ وهو الأمر الذي يراه أهل الهند عاراً وعملاً قبيحا، ثمَّ تغيَّر رأيه هو وأصحابه الذين كانوا معه وأصلحوا نظرتهم للحمار كمركوب! بعد أن استخدموه لأداء فريضة الحج، ووصف هذا المنظر بأنَّه رائع؛ إذ لم يسبق لأحدهم أن خاض هذه التَّجربة من قبل.ومن أعجب ما قرأته في رحلات الحج أنَّ المصلين في

الحـــرم كانوا يؤمِّنون بصـــوت خافت على دعاء الخطيب للخليفة أو لأمير مكة، فإذا بـــدأ الخطيب في الدُّعـــاء لصلاح الدِّين الأيوبي - رحمة الله عليه - ارتَّج المســـجد الحرام بالتَّأمين والبكاء.

ومن مُلَح هـــذه الرَّحلات ما ذكره أحد الرَّحالـــة عن نفســـه إذ دخـــل الحجاز وخـــرج منها فمـــا رأى وجه امـــرأة قطُّ؛ لانتشـــار الحجاب حينذاك. وقد كان حج الملوك والأمـــراء والكبراء قديماً مع باقي الحجاج ولا ينفردون إلاَّ في مواضع قليلة؛ وهـــو ما جعلهم يطَّلعون بلا وســـيط على أحوال المسلمين، وهذا بخلاف زعماء هذا الزَّمان الذين تختفي أشباحهم عن جمهرة الحجيـــج فلا يرى بعضهم بعضاً إلا خلف الشَّاشـــات؛ ومع ذلك يتسببون في زحام الطَّريـــق والتَّضييق علـــى الحجاج وفيهم الضَّعيف والمريض والكبير.

وقد كان للمستشـــرقين والجواســـيس رحلات حـــج مدوَّنة، فمنها رحلة ســـرية للضَّابط الروســـي عبد العزيز دولتشـــين على أعتـــاب القرن العشـــرين الميلادي، ورحلـــة جوزيف بتس وهـــو أول إنجليزي فـــي التَّاريخ الحديث يـــزور مكة، ورحلة الفرنســـي ليون روش في منتصف القرن التَّاسع عشـــر الميلادي؛ وقد اتَّخذ اسماً عربياً يتَّخفى تحته؛ فسمى نفسه عمر بن عبد الله، وكان غرضه سياســـياً خالصاً؛ حيث حـــاول الوصول إلى شـــريف مكة واستصدار فتوى شـــرعية تحرِّم الجهاد ضد الفرنســـيين في الجزائر وتجعله من باب إلقاء النَّفس إلى التهلكة.

ومـــن عِظَـــم همَّـــة القوم ما قـــام به المستشـــرق الهولندي سنوك الذي تجشَّم العناء وســـافر إلى مكة، وأقام فيها بضعة أشهر، ثم كتب رسالته للدكتوراه عن الحج، وعلى أســـاس رحلته هذه وضعت هولندا إســـتراتيجيتها لاحتلال بلاد المسلمين في جنوب شـــرق آســـيا. وللإيطالي فارتيما رحلة في القرن العاشـــر الهجري؛ حيث دخـــل مكة باســـم يونس العجمـــي وكان جاسوساً لصالح البرتغال. ومن الرَّحلات المهمَّـــة رحلة بيرتون إلى مكـــة في ثياب درويش أفغاني بينما كان ضابطاً إيرلندياً يعمل في الجيـــش البريطاني الموجود في الهند، وكانت رحلته فـــي منتصف القرن الثَّالث عشر الهجري.

وللمســـلمين من الغربيين كتب أخرى؛ فللكاتب النمســـاوي المســـلم محمد أسد رحلـــة بعنوان: (الطريق إلـــى مكة)؛ وقد ترجمت إلى أكثر من لغة؛ وهو كتاب يجذب قارئه ويمتعه. وقد أثَّرت رحلة الحج تأثيراً بالغاً في الكاتب الأمريكي المســـلم جفري لانج وســـجَّل أحداثها في كتابه: (الصراع من أجل الإيمان: انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام)؛ حيث انبهر بالتَّنوع البشري في الحج، وكانت رحلة الحج ســـبباً في تغيير أفـــكار الزَّعيم الأمريكي المســـلم مالكوم إكس عن الإسلام؛ حيث استبان له ضلالة معتقداته السَّـــابقة وعاد إلى بلاده داعية إلى الدِّين الحقِّ الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطَّاهرة.

ومن الطَّريف أن رحلة الحج التي شرع بها الكاتب المصري محمد حســـين هيكل كانت بســـبب نصيحة من المسلم المجري عبد الكريم جرمانوس الذي تبدلت حياته للأفضـــل بعـــد أن أدَّى فريضة الحج، ومن عظم بركة تلك الرحلة عليه أن وصفها في كتابه عن رحلة الحج بعنوان: (الله أكبر) بأنَّها: «لحظة من لحظات الإشـــراق». وقـــد وضع هيـــكل كتاباً عـــن رحلته أســـماه: (في منزل الوحي) واشتمل على معـــان إيمانية لم تكُ معهـــودةً في كتاباته من قبل.

وممَّا يجب اليقظة لـــه: الحذرُ من أن تكون البقاع المقدَّسة مقصداً للكفار الذين يتستَّرون بادِّعاء الإسلام؛ خاصَّة أنَّ قضية التَّحول من دين إلى آخر عملية سهلة لدى فئـــام مـــن الغربيين لتحقيـــق أغراضهم وإرضاء نهمهم المعرفي.

وبعد هذا التِّجوال السَّـــريع في الكتب التي أُفـــردَت لحفظ رحـــلات أصحابها لأداء الحج، قـــد يعتقد بعضنـــا أنَّ هذا النَّوع من الكتب قد انتهى بثورة المواصلات والاتِّصالات ويســـر الوصـــول إلى الدِّيار المقدَّســـة؛ وليســـت الطَّريق هنالك. فمن النَّـــاس مَنْ يكدح عمراً طويلاً لجمع نفقة الحـــج؛ وإنَّ هذا الكدح لقمـــين بالتَّوثيق ليعلم المقصِّرون مـــن الأثرياء والمقتدرين الذين لا يحجون كبيـــر فضل الله عليهم وقبح صنيعهم. كما أنَّ للفضلاء من الدُّعاة جولات دعوية حقيقة بالتَّدوين ليســـتفيد منها السَّابق بالخيرات والمقتصد؛ وعسى أن يهتدي بها كلُّ ظالم لنفســـه. ولا شيء يحول دون تسطير إبداعات علمائنا وكتَّابنا عن حجهم ومشاعرهم في الموسم الميمون في كتاب حافل، أو أن يكتب المســـلم الذي كان الحج بالنِّســـبة له رحلةً من الضَّلالة إلى الهدى أخبار رحلته، ففي الحج منافع للنَّاس؛ وإمتاع العقول منفعة وأيُّ منفعة.

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

سلوكيات الحاج:
كيف تصبح منهج حياة؟

د. توفيق علي زبادي

تُطل علينا في هذه الأيام نفحات مباركات حث القرآن على اغتنام فضلها؛ لأنها ليست كغيرها من الأيام؛ بل هي أفضل أيام العام، فقال - تعالى -: ﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، وقال - تعالى -: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ أي هي أيام «مخصوصات فَلْتَغتنم»(١) بالأعمال الصالحة المُرضية لله، المفرحة له المقبولة لديه قبولاً حسناً، ولْنأخذ منها زاداً من السلوكيات تنفعنا في حياتنا، وتؤهلنا لحياة كريمة على منهج الله.

ومن هذه السلوكيات:

أولاً: سلوك الحاج مع ربه - تعالى - ومنه:

١ - طلب العون من الله - تعالى - على إتمام المناسك: فعَنْ مُعَاذ بْن جَبَل - رضي الله تعالى عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ! وَاللَّه إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّه إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٢).

٢ - الإخلاص لله - تعالى - في أداء المناسك: قال - تعالى -: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. قال السعدي: «بإخلاصهما لله، تعالى»(٣).

٣ - فإذا أَهَلَّ أَهَلَّ بالتوحيد، كما ورد: عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ؛ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ(٤).

٤ - ويدعو الله أن يجنبه الرياء والسمعة، كما دعا الرسول ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ(٥).

٥ - والتوجه إليه بالذكر والثناء قبل الشروع في الدعاء؛ كما قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(٦).

٦ - وصلاته ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص والكافرون، كما ورد عَنْ جَابِرٍ - رضي الله تعالى عنه - قال: (فَقَرَأَ فِيهِمَا بِالتَّوْحِيدِ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)(٧).

ثانياً: سلوك الحاج مع الرسول ﷺ (الاتِّباع):

عن جَابِر - رضي الله عنه - قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»(٨). وَتَقْدِيره: هَذِهِ الْأُمُور الَّتِي أَتَيْت بِهَا فِي حَجَّتِي: مِنْ الْأَقْوَال وَالْأَفْعَال وَالْهَيْئَات، هِيَ أُمُور الْحَجِّ وَصِفَته؛ وَهِيَ مَنَاسِكُكُمْ فَخُذُوهَا عَنِّي وَاقْبَلُوهَا وَاحْفَظُوهَا وَاعْمَلُوا بِهَا وَعَلِّمُوهَا النَّاس. وَهَذَا الْحَدِيث أَصْل عَظِيم فِي مَنَاسِك الْحَج(٩).

ومن المواقف العظيمة التي ظهر فيها الاتباع: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - قَالَ لِلرُّكْنِ: (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ)(١٠).

ثالثاً: سلوك الحاج مع الشعائر (التعظيم):

قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومن تعظيمه لشعائرالله: تعظيمه للحرم وعدم اقترافه لعمل سيئ، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

(١) المحررالوجيز: ٤/ ٤٩٣.
(٢) سنن أبي داود: في الاستغفار: ١٣٠١.
(٣) السعدي: ص ٩٠.
(٤) البخاري: التلبية: ١٤٤٨.
(٥) سنن ابن ماجه: الحج على الرحل: ٢٨٨١. وصححه الألباني: ٢٦١٧.
(٦) سنن الترمذي: في دعاء يوم عرفة: ٣٥٠٩.
(٧) سنن أبي داود: صفة حجة النبي: ١٦٣٠.
(٨) صحيح مسلم: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر: ٢٢٨٦.
(٩) شرح النووي على مسلم: ٤/ ٤٢١.
(١٠) صحيح البخاري: الرَمل في الحج والعمرة: ١٥٠٢.

أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ومن تعظيمه لشعائر الله: اغتساله للإحرام، وتطيُّبه بعد الغسل بأطيب طيب وجده، ولهجه بالتلبية من وقت دخوله النسك إلى حين رميه جمرة العقبة يوم النحر.

ومن تعظيمه للشعائر: عدم هتكه لحرمة شيء منها؛ فلا يفعل إلا ما فعل الرسول ﷺ.

ومن تعظيمه للشعائر: اختياره أفضل البُدْن وأحسنها وأسمنها: قال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمِّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمِّنون[1]؛ فالبُدن من شعائر الله، كما قال - تعالى -: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

ومن تعظيمه لشعائر الله: السعي بين الصفا والمروة: حيث بدأ بما بدأ به الله. قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومن تعظيمه لشعائر الله: احتفاؤه بالحجر الأسود: فعَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ: (رَأَيْتُ عُمَرَ قَبَّلَ الْحَجَرَ وَالْتَزَمَهُ وَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكَ حَفِيًّا)[2].

ومن تعظيمه للشعائر: صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم، كما قال - تعالى -: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

رابعاً: سلوك الحاج مع نفسه بتعريضها لنفحات الله - تعالى -:

عَنْ مُحَمَّدِ بن مَسْلَمَةَ الأَنْصَارِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْهَا، فَلا تَشْقَوْنَ بَعْدَهَا أَبَداً»[3]، «ومقصود الحديث أن لله - تعالى - فيوضاً ومواهب من تعرَّض لها مع الطهارة الظاهرة والباطنة بجمع همةٍ وحضور قلبٍ حصل له منها دفعة واحدة ما يزيد على هذه النعم الدائرة في الأزمنة الطويلة على طول الأعمار[4].

خامساً: سلوك الحاج مع الناس:

ويكون سلوك الحاج مع الناس بالإحسان؛ لأن الإحسان إليهم هو بر الحج، كما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ»[5].

والبر في الحج يُطلق على معاني، منها: الإحسان إلى الناس، والبر حُسن الخُلق، ومنها: فعل الطاعات، ومنها: ألا يُعقب الحج بمعصية الله. ومن جملة حُسن الخلق في أيام الحج وغيرها:

التواضع مع الناس: فمن صفاته ﷺ إباؤه أن يخص نفسه بشيء يتميز به عن الناس: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ بِالْبَيْتِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ وَاسْتَلَمَ الْحَجَرَ بِمِحْجَنٍ كَانَ مَعَهُ. قَالَ: وَأَتَى السِّقَايَةَ. فَقَالَ: اسْقُونِي. فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا يَخُوضُهُ النَّاسُ وَلَكِنَّا نَأْتِيكَ بِهِ مِنْ الْبَيْتِ. فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ»[6].

الرحمة بالناس: تتجلى الرحمة بالناس في الحج بإعانة الضعيف، والتيسير على المريض وحمله إلى حيث راحتُه؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قال: قال النَّبِي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[7]. وقال: «وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[8].

الإحسان إلى الناس: ويكون الإحسان إلى الناس بإطعام الطعام، وحُسن الكلام، وتقسيم الصدقات على المساكين، والإكثار من النحر، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[9].

الصبر على الناس: والصبر المطلوب من الحاج: صبر على طاعة الله في أداء المناسك؛ كما فعلها الرسول ﷺ راجياً بذلك رضى مولاه، وصَبْر عن أن يقترف معصية في الأماكن الشريفة، وصَبْر على المشقة والتعب والنصب؛ لأن الحج جهاد، وصَبْر على الجاهل من الناس، وعلى الضعيف فيهم، وعلى المريض منهم وعونهم، وسدُّ خلَّتهم. عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطاً النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[10].

الرفق بالناس: عَنْ جَرِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»[11]. و عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ الْخَيْرِ»[12].

وعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ رَفَقَ بِأُمَّتِي فَارْفُقْ بِهِ»[13]. فاملك غضبك - أخي الحاج - وألن جانبك، واترك العنف، وإياك والفظاظة.

التصدق على الفقراء والمساكين واليتامى وخاصة القريب: والتصدق على القريب حث عليه القرآن والسُّنة: قال - تعالى -:

(١) صحيح البخاري: في أضحية النبي ﷺ: ١٧/ ٢٤٧.
(٢) صحيح مسلم: استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف: ٢٢٣٢.
(٣) المعجم الكبير للطبراني: ١٤/ ١٢٥.
(٤) فيض القدير: ١/ ٦٩١.
(٥) صحيح البخاري: فضل الحج المبرور: ١٤٢٢.
(٦) مسند أحمد: رقم: ١٧٤٤.
(٧) سنن أبي داود: في الرحمة، رقم: ٤٢٩٠.
(٨) صحيح البخاري: رقم: ١٢٠٤.
(٩) صحيح البخاري: رقم: ١١.
(١٠) سنن الترمذي، رقم: ٢٤٣١.
(١١) صحيح مسلم: فضل الرفق: ٤٦٩٤.
(١٢) سنن الترمذي: ما جاء في الرفق: ١٩٣٦.
(١٣) مسند الإمام أحمد: حديث عائشة، رضي الله عنها: ٢٣٢٠١.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٥]، وقال الرسول ﷺ: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»(١)، والسر في ذلك تقوية الأواصر الاجتماعية، وزيادة الرابطة بين أفراد المجتمع.

سادساً: سلوك الحاج مع أهله:

إن الحاج لا بد أن يكون خير الناس إلى أهله: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»(٢)، فقد كان ﷺ على الغاية القصوى من حُسْن الخلق معهن، وكان يداعبهن ويباسطهن.

ومن سلوكيات الحاج مع أهله: تعليمهم المناسك: عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «قَدِمْتُ مَكَّةَ وَأَنَا حَائِضٌ فَلَمْ أَطُفْ بِالْبَيْتِ وَلَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ وَلَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ حَتَّى تَطْهُرِي»(٣).

وقايتهم من الفتن: مثل ما حدث مع الفضل بن العباس: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «اسْتَفْتَتْهُ جَارِيَةٌ شَابَّةٌ مِنْ خَثْعَمَ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ أَدْرَكَتْهُ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ أَفَيُجْزِئُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ؟ قَالَ: حُجِّي عَنْ أَبِيكِ. قَالَ: وَلَوَى عُنُقَ الْفَضْلِ. فَقَالَ: الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ لَوَيْتَ عُنُقَ ابْنِ عَمِّكَ؟ قَالَ رَأَيْتُ شَابّاً وَشَابَّةً فَلَمْ آمَنْ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمَا»(٤).

وفي الطواف والسعي والرمي: عليه اختيار الوقت المناسب لهم، والرفق بهم والتيسير عليهم: عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «نَزَلْنَا الْمُزْدَلِفَةَ فَاسْتَأْذَنَتْ النَّبِيَّ ﷺ سَوْدَةُ أَنْ تَدْفَعَ قَبْلَ حَطْمَةِ النَّاسِ وَكَانَتْ امْرَأَةً بَطِيئَةً فَأَذِنَ لَهَا فَدَفَعَتْ قَبْلَ حَطْمَةِ النَّاسِ وَأَقَمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا نَحْنُ ثُمَّ دَفَعْنَا بِدَفْعِهِ؛ فَلَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ»(٥). وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَمْعٍ بِلَيْلٍ»(٦)، والمراد: قبل أن يزدحم الناس فيدوس بعضهم بعضاً.

الصبر عليهم: فيقوم بشؤون من كبر منهم وثقل؛ كما فعل ﷺ مع زوجته سودة، ومن مرض منهم؛ كما فعل ﷺ مع زوجته أم سلمة، والغلمان: كغلمان بني عبد المطلب وبني هاشم، فقد قام ﷺ بأمرهم وخدمتهم خير قيام.

التلطف بهم: فكان يلاطف أهله، ويسر لهن ما يطلبنه، من ذلك: أن النبي أهلَّ بحجة، وأرادت عائشة أن تُهِل بعمرة فوافقها وأرسلها مع أخيها عبد الرحمن إلى التنعيم: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً سَهْلاً إِذَا هَوِيَتَ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ»(٧)؛ ومَعْنَاهُ: إِذَا هَوِيَتْ شَيْئاً لَا نَقْص فِيهِ فِي الدِّين(٨).

ومنه مع الضعفة من الغلمان وغيرهم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْمُزْدَلِفَةِ: «يَا بَنِي أَخِي! يَا بَنِي هَاشِم! تَعَجَّلُوا قَبْلَ زِحَامِ النَّاسِ وَلَا يَرْمِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَقَبَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»(٩).

سابعاً: سلوك الحاج مع الشيطان، إغاظته وحزنه:

لا بد أن يستحضر الحاج في نيته أنه في هذا الجمع المبارك يغيظ الشيطان وأتباعه. قال رَسُولُ ﷺ: «مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْماً هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنْ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ»(١٠).

وإغاظة الشيطان وحزبه من أحب الأعمال إلى الله - تعالى - وتسمى هذه العبودية: عبودية المراغمة: وهي: عبودية خواص العارفين ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة؛ ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له(١١).

وهدي الرسول ﷺ في الحج مراغمة الكفر وأهله وذلك بمخالفتهم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ الْغَدِ يَوْمَ النَّحْرِ وَهُوَ بِمِنًى: «نَحْنُ نَازِلُونَ غَداً بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ؛ يَعْنِي ذَلِكَ الْمُحَصَّبَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشاً وَكِنَانَةَ تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوْ بَنِي الْمُطَّلِبِ؛ أَنْ لَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا إِلَيْهِمْ النَّبِيَّ ﷺ»(١٢)، فَقَصَدَ النبي ﷺ إِظْهَارَ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَكَانِ الذِي أَظْهَرُوا فِيهِ شَعَائِرَ الْكُفْرِ وَالْعَدَاوَةَ لله وَرَسُولِه؛ وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُ ﷺ؛ أَنْ يُقِيمَ شِعَارَ التَّوْحِيدِ فِي مَوَاضِعِ شَعَائِرِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ؛ كَمَا أَمَرَ النبي ﷺ أَنْ يُبْنَى مَسْجِدُ الطَّائِفِ مَوْضِعَ اللاتِ وَالْعُزَّى(١٣).

وبعد: فهذه السلوكيات التي اكتسبها الحاج - بعد عون الله له - في المخيم الرباني السنوي، تحتاج من الحاج أن يستقيم عليها في حياته حتى تكون منهج حياة، وهي من المنافع التي قال الله - تعالى - عنها في كتابه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

نسأل الله أن يستعملنا في هذه الأيام الفاضلة بالأعمال الصالحة المُرضية له والمقبولة لديه قبولاً حسناً.

---

(١) سنن الترمذي: في الصدقة على ذي قرابة: ٥٩٤.
(٢) سنن الترمذي: فضل أزواج النبي: ٣٨٣٠.
(٣) موطأ مالك: دخول الحائض مكة: ٨٢١.
(٤) سنن الترمذي: ما جاء في أن عرفة كلها موقف: ٨١١.
(٥) صحيح البخاري: من قدم ضعفة أهله فيقفون بالْمُزْدَلِفَةِ وَيَدْعُونَ وَيُقَدِّمُ إِذَا غَابَ الْقَمَرُ: ١٥٦٩.
(٦) صحيح مسلم: باب اسْتِحْبَابِ تَقْدِيمِ دَفْعِ الضَّعَفَةِ مِنَ النِّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ مِنْ مُزْدَلِفَةَ إِلَى مِنًى فِي أَوَاخِرِ اللَّيَالِي قَبْلَ زَحْمَةِ النَّاسِ: ٣١٨٦.
(٧) صحيح مسلم: بيان وجوه الإحرام: ٢١٢٧.
(٨) شرح النووي على مسلم: ٤/ ٣٠٤.
(٩) مسند أحمد: بداية مسند ابن عباس: ٣٣٣٣ صحيح الإسناد.
(١٠) موطأ مالك: جامع الحج: ٨٤٠.
(١١) مدارج السالكين: ١/ ٢٢٧.
(١٢) صحيح البخاري: نزول النبي # مكة، ١٤٨٧.
(١٣) زاد المعاد: ٢/ ٢٧٠.

[المسلمون.. والعالم]

التنصير في العراق... الحقائق الغائبة
د. مجيد الخليفة

مسيرة السلام من أوسلو إلى واشنطن
نائل نخلة

إستراتيجية أوبامافي أفغانستان وباكستان... انسحاب مدبَّر خوفاً من الهزيمة الساحقة!
موسى القلاب

سجون الاحتلال... ملاحم وبطولات
فؤاد الخفش

حَمَلَة الثقافة العربيةالإسلامية والعمل الحكومي في غرب إفريقيا
د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

التنصير في العراق...
الحقائق الغائبة

د. مجيد الخليفة(*)
www.dr-majeed.net

أشارت إحصائيات معهد (جوردن - كنويل اللاهوتي) لدراسة الأديان بجنوب هاملتون إلى أن عدد الجماعات التنصيرية العاملة في الدول الإسلامية ما بين عامي (١٩٨٢م و٢٠٠١م) قد وصل للضِعْف - تقريباً - فبعدما كان عددها نحو ١٥ ألف منظمة، وصلت إلى أكثر من ٢٧ ألف منظمة؛ إلا أن هذه الجماعات التنصيرية تجد عوائق كثيرة (حكومية وشعبية) تضطرها للتخفي والاستتار؛ ذلك أن عشرات الدول الإسلامية ترفض إعطاء تصريحٍ للدخول إليها تحت مسمى (عامل ديني)، وهو ما يضطرها إلى التخفي واتباع وسائل ملتوية، وهو حل تطلق عليه المنظمات التنصيرية (صناعة الخيام) نسبة إلى بولس الذي كان يتقوت من هذا العمل أثناء رحلاته (التبشيرية)؛ فهم لا يعلنون عن حقيقتهم ويستترون تحت حجة العمل في مجالات أخرى. ولئن كان الجدل حول الطرق التنصيرية في العالم الإسلامي واسعاً بين هذه المنظمات حول الإسرار والمجاهرة؛ إلا أن العمل في العراق يختلف كثيراً عن غيره من البلدان الإسلامية؛ لأنه محتل تحت سلطة الرئيس الأصولي الإنجيلي المتدين (جورج بوش الصغير) ولهذا دخلت تلك المنظمات النصرانية آمنة مطمئنة تحت الشعار الذي تريد وبالمنهج الذي تختار: إن شاءت أن تستفز مشاعر المسلمين فَلْتفعَل وإن رامت تشويه عقائدهم والتسلل إليهم في خفاء فَلْتمضي تباركها الدبابات وتحميها الطائرات.

ولم تكن المنظمات التنصيرية تحلم بالفرص التي ستتاح لها بعد احتلال القوات الأمريكية للعراق، وخاصة أن عملها هذا لم يكن بمعزل عن القيادة العسكرية الأمريكية، وإنما بالتنسيق الكامل معها في أحيان كثيرة، تمثلت بالتسهيلات المقدمة من قِبَل هذه القوات، وقد أثبتت الأيام أن مجلة النيوزويك الأمريكية لم تكن مبالغة عندما جاء في صفحاتها قبيل الغزو أن (بوش وأنصاره من الإنجيليين يأملون أن تكون الحرب القادمة على العراق فاتحة لنشر المسيحية في بغداد).

وبالفعل توافدت المنظمات التنصيرية بشتى مذاهبها وصورها على العراق بشكل غير مسبوق، واستبشر المنصرون بالحرب وأعلنوها صراحة؛ فهذا ريتش هايني من منظمة (داون) التنصيرية يقول في ما نقلته عنه مجلة التايم: (لم تحظَ الحركة التبشيرية الإنجيلية بفرصة جيدة منذ أكثر من عقد من الزمان مثل العراق، وإنه في مقدورنا أن نقول: إن هذه الحرب نعمة للمبشرين)، وهكذا بدأ الكاثوليك والبروتستانت في سباق محموم على أرض الخلافة وقد اتكأ الفريقان على دعم مالي وتنفيذي هائل، وسنحاول خلال هذه المقالة استعراض بعض أوجهه.

(*) أكاديمي عراقي متخصص بالمذاهب والأديان.

الاحتلال والتنصير:

منذ اليوم الأول لاحتلال العراق ظهرت بوادر التنصير على القوات العسكرية الغازية؛ فقد سمع العالم كله ما قاله بوش عندما افتتح تلك العمليات بأنها (حرب مقدسة) وما هذه إلا ترجمة حرفية لما يعرفه المؤرخون قديماً وحديثاً باسم الحروب الصليبية، كما شوهدت الدبابات الأمريكية وهي تعلق الصليب على مدافعها إبَّان اجتياحها لأرض الرافدين، للدلالة على شعار الحملة وأهدافها. يقول جون هول رئيس (منظمة أكويب التنصيرية العالمية) ومقرها في مدينة أطلانطا الأمريكية: (منح الجيش الأمريكي الحرية للعراقيين، وجاء دور الكنيسة لمساعدتهم على ممارسة هذه الحرية)، وتكشف هذه التصريحات هدفاً واضحاً من أهداف الاحتلال؛ فإن مشاريع التنصير كانت تطمح في الوصول إلى العراق والعمل بحرية، وقد تم لها ذلك خلال الاحتلال الأمريكي، وخاصة أن معظم هذه المنظمات تعتبر محظورة في الدول الإسلامية الأخرى.

وقد مارس بعض أفراد القوات الأمريكية التنصير بأنفسهم، خاصة إبَّان السنوات الأولى من الاحتلال، وقد وَصَلَنا كثير من الأخبار عن شهود عيان تثبت ما ذهبنا إليه، منها – على سبيل المثال – ما حدث في شهر أيار من سنة ٢٠٠٥م: فقد قامت قوة عسكرية أمريكية مكونة من أربع عجلات (همر) بمداهمة منازل في منطقة حي العامل في بغداد، وجرى تفتيش تلك المنازل، وبعد الانتهاء من عملية التفتيش، قام الجنود الأمريكان بتوزيع كتيبات تنصيرية على الأطفال الموجودين في الشارع في المنطقة المذكورة وبكميات كبيرة، ولم تكن هذه هي الحادثة الأولى؛ فهناك حوادث أخرى منها ما حدث في شهر ديسمبر من السنة نفسها عندما قامت مروحيات أمريكية بإلقاء آلاف النسخ من المنشورات التنصيرية والأناجيل على مناطق من محافظة الأنبار وتركز ذلك في المناطق المحيطة بمدينة الفلوجة، وكانت تلك الأناجيل صغيرة الحجم جداً، وكتبت فيه مقتطفات من إنجيل بطرس ولوقا.

وإزاء ذلك قام الأهالي بجمع هذه المنشورات، وأكثر من شارك في جمعها النساء والأطفال، وقاموا بدورهم بوضع المصاحف على جدران المنازل، ومن شدة وقع ذلك في نفوس الناس، ضجت المساجد بالتكبير.

لا تُعَدُّ هذه الحوادث إلا نزراً يسيراً من حالات كثيرة، كان العنصر الأساس في ممارستها هي القوات الأمريكية المحتلة، ويلاحظ أن هذه القوات قد أحجمت عن القيام بهذه النشاطات التنصيرية مع اشتداد المقاومة العراقية، خاصة في عامي (٢٠٠٥م – ٢٠٠٦م)، ومعظم الحالات التي وجدنها بعد هذا التاريخ كانت تجري بسرية تامة أو تحت غطاء منظمات الإغاثة الطبية والإنسانية.

المهمة الصعبة:

ينظر معظم المنصرين العاملين في العراق إلى أن التنصير هناك من أكبر التحديات التي واجهتها المنظمات التنصيرية عبر تاريخها الطويل، وتعود الأسباب في ذلك إلى عوامل عديدة أهمها:

١ **التركيبة الدينية:** يضم العراق فئات اجتماعية متعددة الأديان، كما تحتوي تركيبته السكانية على عدد من الأقليات الدينية غير المسلمة، لعل أبرزها الطوائف النصرانية التي لا تتفق كثيراً مع نصارى الغرب، كما تضم طوائف من الصابئة واليزيدية.

٢ **التركيبة العرقية:** لم تظهر هذه التركيبة إلى السطح إلا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وقد حاولت الإدارة الأمريكية إحداث حالات فرز طائفي، من أجل السيطرة على البلد وتشتيت روح المقاومة بين أبنائه، فوضعت الدستور وَفْقَاً لذلك، وركزت على حقوق الأقليات مثل الأكراد والتركمان والشبك والعرب السُّنة والعرب الشيعة، وكل هذه الفئات قد شكلت تحدياً كبيراً للمنظمات التنصيرية.

٣ **المقاومة العراقية:** إن انتشار الرفض الشعبي للوجود الأمريكي في طول البلاد وعرضها قد جعل مهمة المنصِّر صعبة، خاصة في المناطق التي تنتشر فيها المقاومة العراقية؛ ولذلك وجدنا مثل هذه المنظمات تلوذ بالمناطق الأشد هدوءاً في العراق، خاصة في منطقة (كردستان) في الشمال.

٤ **الوسائل والأساليب:** لقد شعرت المنظمات التنصيرية خلال وجودها الأوَّلي في العراق بقِدَم وسائلها وأساليبها في جذب الناس، خاصة مع ازدياد الوعي وانتشار وسائل الثقافة والاتصال؛ ولذلك كانت تلجأ إلى الأساليب الملتوية في الوصول إلى أهدافها، واستعانت كثيراً بالكنائس العراقية، وببعض العراقيين النصارى من أجل الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الناس، وغالباً ما كان هذا الوصول تحت غطاء إغاثي.

ولذلك حرصت معظم المنظمات الموجودة في العراق على إخفاء أسمائها الحقيقية، واستبدالها باسماء أكثر قبولاً بين العراقيين، كما حاولت هذه المنظمات الاستفادة من تجاربها السابقة في عدد من الدول العربية، وأبدت حرصاً متفانياً لتنسيق الجهود المبذولة في مجال التنصير على كافة الصعد؛ فقد كشفت صحيفة (حريت) التركية في عددها

الصادر في ٥ / ٨ /٢٠٠٣م النقاب عن أن الولايات المتحدة بدأت تبذل جهوداً كبيرة ومساعي حثيثة لفرض أمر واقع والسيطرة على العراق؛ وذلك من خلال تشجيع جهود التنصير بين العراقيين، ونشر ما يسمى (الفعاليات التبشيرية) للديانة المسيحية في العراق. ومن أجل ذلك – ولا زال الكلام للصحيفة – قررت هذه المنظمات التنصيرية – وبرعاية من الإدارة الأمريكية – عقد مؤتمر بمدينة (أفيون) التركية وسط الأناضول في السابع والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٠٣م لمدة ثلاثة أيام، يشارك فيها مائة وستون عضواً يمثلون هذه الفعاليات التنصيرية.

كما حاولت هذه المنظمات التنصرية الاستفادة من تجربتها المريرة بأفغانستان، المتمثلة بالفشل الذريع، وتعرضها لنكسات موجعة وصل إلى حد تصفية أفرادها جسدياً، ومع ذلك فقد كان المنصرون يعملون في العراق لتغطية فشلهم في أفغانستان، يقول (كروس ووك) رئيس منظمة (إكويب) التنصيرية في ذلك: (لكن الوضع في العراق الآن سيكون له نموذج جديد؛ فالوجود الأمريكي هناك يعمل على إقامة دولة ديمقراطية لتكون نموذجاً يُحتذَى في العالم العربي والإسلامي؛ فالدستور الجديد سيتضمن بنوداً تنص على الحريات الدينية وحرية العبادة بشكل علني ومفتوح).

ويبدو أن الإدارة الأمريكية حاولت أن تنأى بنفسها عن النشاط التنصيري الواسع الذي رافق احتلالها للعراق؛ فقد صرح (آري فليتشر) بأن الإدارة الأمريكية لا تستطيع أن تمنع أية مجموعة من العمل في العراق، وقالت الناطقة بلسان الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية: (إن هذه المنظمات لا تعتمد على تمويل حكومي؛ لذا فليس للحكومة أية سيطرة).

وبطبيعة الحال لا تعدُّ هذه التصريحات سوى من باب ذر الرماد في العيون؛ ذلك أن هذه المنظمات قد قُدمَت لها كافة التسهيلات لأداء مهمتها، وليس أدلَّ على ذلك من تمهيد الطريق أمامها لدخول العراق بحرية مطلقة، كما انتفعت هذه المنظمات بالخدمات المقدمة للجيش الأمريكي؛ إذ نقلت معظم معداتها ووسائل التنصير من كتب وأشرطة مرئية وصوتية عبر أسطول النقل الجوي والبحري والبري.

وسائل التنصير:

لقد أصبح العراق ساحة مفتوحة بعد احتلال القوات الأمريكية له، وقد وفَّر ذلك للمنظمات التنصيرية مجالات واسعة للحركة في مختلف مناطق البلاد، وإن كان التركيز – كما صرح المنصرون أنفسهم – على شمال العراق وجنوبه، ويمكن إجمال أهم الوسائل المتبعة في العراق، وَفْقاً للتقارير الصادرة عن المنظمات التنصيرية:

١ **الإغاثة الطبية والخدمية:** وتُعَدُّ هذه الوسيلة من أقدم الوسائل التنصيرية التي استعان بها المنصرون منذ بداية نشاطهم في العالم الثالث، وقد عانى العراق من تردِّي الخدمات الطبية كنتيجة طبيعية للحصار الذي امتد أكثر من ثلاثة عشر عاماً، ثم ما تعرضت له المؤسسات الطبية من عمليات نهب وإهمال بعد سيطرة القوات الأمريكية على البلاد، ويأتي هنا اسم (خدمة الكنيسة العالمية) المعروفة اختصاراً (سي – دبليو – أس) التي تتكون من ٣٦ مجموعة إنجيلية، والتي قامت بإرسال معونات طبية إلى العراق بقيمة ١,٢ مليون دولار، وقد قُدِّمَت على شكل مساعدات طبية لمستشفيات في: الموصل وبغداد والبصرة، كما أرسلت هذه المنظمة هدايا عينية إلى طلاب المدارس، وزودت بعض اللاجئين بالأطعمة، وغالباً ما كانت هذه المعونات تتضمن شعارات (إنجيلية)، وربما بعض القصص والكتيبات المرفقة لأطفال المدارس.

لقد أصبح العراق ساحة مفتوحة بعد احتلال القوات الأمريكية له، وقد وفَّر ذلك للمنظمات التنصيرية مجالات واسعة للحركة في مختلف مناطق البلاد.

٢ **الكنائس العراقية:** شكلت الكنائس العراقية بؤر انطلاق للعديد من المنظمات التنصيرية؛ فقد كانت هذه الكنائس تزود المنصرين بقوائم الأُسَر المسلمة الفقيرة، ثم يقوم المنصرون بتوزيع المعونات الغذائية والعينية عليهم، وقد شاهدنا بأم أعيننا بعض العوائل الفقيرة المسلمة تقف على أبواب الكنائس في منطقة (كامب سارة) ببغداد طمعاً في الحصول على معونات غذائية، خاصة مع شح أو انعدام المعونات والمساعدات المقدَّمة من قِبَل الدول الإسلامية، بسبب سياسة تجفيف المنابع التي انتهجتها السياسة الأمريكية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وكان هذا سبباً في موجة الاستهداف الذي تعرضت له كنائس نصارى العراق – وإن كنا لا نجيز ذلك – في أغسطس من عام ٢٠٠٥م، ولذلك تراجعت معظم هذه الكنائس عن سياسة دعم المؤسسات التنصيرية علناً؛ فقد صرح (يونادم كنة) ممثل الكلدان الآشوريين في حكومة بريمر لهيئة الإذاعة البريطانية قائلاً: (إن الفِرَق التبشيرية الغربية – وبالأخص الأمريكية – جاءت بعد الاحتلال، وأسهمت أنشطتها في تعكير الأجواء بسبب قيامها بالتبشير بين غير المسيحيين). وقال: (إن الغضب من هذه الأنشطة قد يكون سبباً في التفجيرات التي تعرضت لها الكنائس في عدد من مدن

العراق، كما أن هذه الفِرَق كانت محل رفض من الكنائس العراقية نفسها).

٣ **وسائل الإعلام:** شكلت هذه الوسيلة الحديثة جانباً مهماً من جوانب التنصير؛ إذ جرى استغلال وسائل الإعلام - خاصة التلفزيون والراديو - في عرض البرامج التنصيرية، وإن كانت بصورة غير مباشرة، وليس أدلَّ على ذلك من تخصيص قناة فضائية أمريكية باسم (الحرة - العراق)، يجري من خلالها عرض عدداً من المواد الإعلامية التي تحث على اتباع أسلوب الحياة الأمريكية، على اعتبار أنها تمثل قمة الحضارة والانفتاح، كما خصص راديو (سوا) الذي يُدعَم بصورة مباشرة من الإدارة الأمريكية موادَّ مختلفة عن الحياة الاجتماعية والسياسية لنصارى العراق، وهناك قناة محلية عراقية تبث من بغداد باسم (صوت المحبة) تحث على التنصير بصورة واضحة وصريحة، والأخطر من هذا كله أن الإدارة الأمريكية دعمت بصورة مباشرة افتتاح قناة خاصة بالنصارى العراقيين على القمر (عربسات) باسم قناة (آشور)، وهي قناة تنصيرية من الدرجة الأولى، وإن كانت معظم برامجها تُبَث باللغة السريانية، ومديرها هو يعقوب يعقوب، واعتمد في إدارة هذه القناة على تمويل مباشر من المنظمات التنصيرية الأمريكية خاصة، ولم تعتمد هذه المنظمات التنصيرية على هذه الوسائل فقط، بل بدأت تقوم بنفسها بتوزيع الأشرطة المرئية على الأُسَر المسلمة مرفقة بالمعونات الغذائية المقدمة لهذه الأسر. وتتألف تلك المواد من أفلام فيديو على رأسها فلم (يسوع) الذي انتجته السينما الأمريكية ليتحدث عن القصص المحرفة لنبي الله عيسى، عليه السلام، وجرى (دبلجته) إلى أكثر من ٧٠ لغة وأكثر من ٢٠٠ لهجة محلية، وقد وُزِّع هذا الفلم في مناطق متفرقة من العراق، وباللهجة العراقة المحلية.

٤ **المطبوعات:** بلغ عدد نسخ الإنجيل التي دخلت إلى العراق حتى عام ٢٠٠٧م أكثر من مائة ألف نسخة، وقد وُزِّعَت جميعها مرفقة بأشكال من المعونات والمساعدات. يقول (جوان وايت) وهو منصِّر يعمل لحاسب (الهيئة المعمدانية الجنوبية في تصريح خاص للتلفزيون الألماني: (نحن نتنكر كسائحين، ثم نقول بالاختلاط بالعراقيين وتوزيع عدد من الأناجيل المزخرفة الخاصة بالأطفال، وهي عبارة عن قصص مصورة، وقد وزعنا ما يقارب ١٠ آلألف نسخة).

٥ **إقليم كردستان:** إن من أخطر الوسائل المستخدمة في التنصير في العراق، استغلال هذه المنظمات لوضع كردستان الشاذ ضمن الدولة العراقية، خاصة الحماية التي توفرها حكومة هذا الإقليم للمنظمات التنصيرية العاملة فوق أراضيها، يصف (كروس ووك) الذي أشرنا له سابقاً في مقابلة صحفية للتسهيلات المقدمة من قِبَل حكومة هذا الإقليم للمنظمات التنصيرية بقوله: (في المنطقة الكردية تجد أشياء رائعة حقاً؛ فقد التقينا برئيس وزراء الأكراد، وأخبرنا أنه سيُسَر جداً بأي وجود مسيحي في المنطقة، وهناك إذن مطلق بإقامة الكنائس هناك)، ثم يقول أيضاً: (في الفترة التي قضيناها بالعراق أقمنا دورة تدريبية نهارية في أربيل لـ (١٤٠) مؤمناً واستمرت خمسة أيام، شجعناهم وعلمناهم المبادئ الأساسية في التعامل مع المسلمين، وأوضحنا لهم التحديات التي يواجهونها، وأجبنا على أسئلتهم، كما قمنا بتوزيع الكتب والإرشادات عليهم). ولم تكن هذه المنظمات جديدة العهد بالعراق، وإنما هي تعمل هناك منذ عام ١٩٩١م، نظراً لتحكم الأكراد بمقدرات كردستان منذ ذلك التاريخ؛ فهذه منظمة (كاريتاس) الكاثوليكية العالمية يقول مسؤول مكتبها بالقاهرة: (إن كاريتاس تعمل في العراق منذ أكثر من عشرين عاماً، لكنها ضاعفت من نشاطها بعد حرب الخليج الثانية؛ خاصة في منطقة شمال العراق التي تُعدُّ أرضاً خصبة لأنشطة المنظمات الكنسية بمختلف طوائفها)، ونظراً للنشاطات الصريحة التي لا يرافقها أي تحفظ في المناطق الكردية، فقد قدم الاتحاد الإسلامي الكردستاني استنكاراً إلى مسعود البرزاني رئيس الإقليم نظراً لما يجري من نشاطات تنصيرية تمسُّ العقيدة الإسلامية.

٦ **رعاية الأيتام:** لقد أفرز الاحتلال الأمريكي للعراق، وما أعقبه من قتل وتدمير وتهجير، أفرز ظاهرة خطيرة انتشرت في المجتمع العراقي؛ ذلك أن عدداً كبيراً من الأطفال - ويقدر عددهم بأكثر من خمسة ملايين - فقدوا أحد الوالدين أو كلاهما خلال هذه الأحداث، وقد كشفت تقارير غربية إعلامية عن وجود عصابات منظمة تقوم بخطف هؤلاء الأطفال أو اقتيادهم بعد استشهاد ذويهم إلى القوات الأمريكية، التي تسلمهم بدورها إلى المنظمات التنصيرية، وفي واقع الحال لا نعرف عدد هؤلاء الأطفال على وجه التحديد لعدم وجود أي جهة تهتم بإحصاء هذه الجوانب، ولكن هناك العديد من الأطفال الذين جرى خطفهم من مناطق في بغداد وديالى والفلوجة، واقتيدوا إلى جهة مجهولة، ولعل أشهر قضية تذكر في هذا الجانب، وهي التي شكلت فضيحة أخلاقية بكل المعايير هزت ضمير الإنسانية، هي قضية (ملجأ الحنان لرعاية الأيتام) في بغداد، بعد أن وجد أطفال الملجأ بالرمق الأخير، وقد رُبِطُوا بالحديد بأسرَّتهم، وقد

أعلنت شبكة (CBS) الإخبارية الأمريكية في حينها من خلال مراسلها في بغداد، عزم ضابط أمريكي من ولاية (وسكنسن) السعي للحصول على الموافقات اللازمة لنقل أطفال دار الحنان إلى الولايات المتحدة لتلقي الرعاية المطلوبة لهم، ولن يكون ذهاب هؤلاء الأطفال إلى أمريكا إلا من أجل التنصير.

وتؤكد الإحصائيات على أن نحو ١٠٠ منظمة تنصيرية قد تدفقت إلى أرض العراق خلال عام ٢٠٠٣م، ولا يقتصر النشاط التنصيري على الإنجيليين، بل إن الأرثوذكس يتمركزون في الموصل وما حولها من شمال العراق؛ وذلك بمساعدة (هيئة الأساقفة الأمريكيين الأرثوذكسيين) و (مجلس الشرق الأوسط الكنائس)، مع وزارة الخارجية اليونانية، وتقوم الكنائس العراقية بتزويد المنظمات التنصيرية بقوائم الأسر الفقيرة، فينطلق المنصِّرون إليها حاملين الطعام والدواء والمواد التموينية، فيتلقفها الأهالي البؤساء مضطرين، وفي تلك الأثناء يعرض عليهم الدين النصراني، ومن هذه الهيئات:

١ - هيئة الإرساليات الدولية الذراع التبشيرية للمعمدانيين الجنوبيين، الذين يُعدون أكبر طائفة بروتستانتية في أمريكا.

٢ - مجلس الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

٣ - مجموعة من المعمدانيين الجنوبيين من ولاية نورث كارولينا.

٤ - هيئة المعونة الأمريكية.

٥ - منظمة (كريستيان شاريتي ورلد نيشن إنترناشونال).

٦ - منظمة المجتمع الدولي للإنجيل.

٧ - منظمة تعليم أمة كاملة، وتعرف اختصاراً بـ (داون).

٨ - منظمة سامرتيان بيرس.

٩ - منظمة المنصّرين البروتستانت.

١٠ - مؤسسة صوت الشهداء.

١١ - القسّ البروتستانتي (جون حنا) من ولاية أوهايو.

١٢ - المنصّرة (جاكي كون).

١٣ - مركز غلوبل ميشن يونيت (Global Mission unit) التنصيري العالمي.

وكل تلك المؤسسات التنصيرية في العراق تخضع إلى هيئة تنسيقية عليا باسم: (مكتب تنسيق إغاثة العراق: (IRCO).

وتدخل هذه المنظمات إلى العراق تحت اسم (منظمات إغاثة إنسانية)؛ فالمسؤولون الأمريكيون يعترفون بوجود المنصِّرين ويؤكدون أنهم يقدمون العون للناس لا التنصير، والعراقيون يفرحون بتلك المعونات، وقد ذكر مسؤول حكومي لمجلة (تايم) أنه بالنظر إلى العلاقات الودية بين الرئيس بوش واليمين المسيحي الصهيوني ومساندة المنظمات الخيرية الدينية، فإنه يكاد يكون من المستحيل أن يمنع البيت الأبيض منظمات الإغاثة الإنسانية من الذهاب إلى العراق.

أما الأخطر في عمليات التنصير في العراق فهو ما تشهده المناطق الشمالية بإقليم كردستان؛ حيث أصدر مركز غلوبل ميشن (Global Mission Unit) التنصيري العالمي تقريراً يتضمن أسماء الهيئات والمنظمات التنصيرية التي تعمل في شمال العراق، وفي مقدمتها:

١ **جمعية الكتاب المقدس:** ولها مكتب في مدينة أربيل، وتطبع كل نشراتها بمطبعة الثقافة التابعة لوزارة الثقافة العراقية في أربيل.

٢ **منظمة تطوير خدمات الشرق الأوسط البريطانية:** ومركزها الرئيس في القاهرة، ولها ثلاثة مكاتب في العراق؛ في أربيل ودهوك والسليمانية، وتقوم على أنشطتها مجموعة كاملة موفدة من المكتب الرئيس للمنظمة في مصر، تحت رئاسة (د. ألكسندر رسل) بريطاني الأصل، وهو يعمل أستاذاً للغة الإنجليزية بكلية الآداب في جامعة صلاح الدين في أربيل.

٣ **منظمة ينبوع الحياة الأمريكية:** ومركزها في مدينة شقلاوة القريبة من أربيل، بدعم مباشر من مكتب مساعدة الكوارث الخارجية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، تحت ستار حفر الآبار وتوفير مياه الشرب النقية.

٤ **منظمة القوافل الطبية الدولية:** ومركزها الرئيس مدينة «بورتلاند» الأمريكية، وقد ذهبت إلى العراق برفقة الجيش الأمريكي في حرب الخليج الثانية، وتعمل بدعم مباشر من مكتب مساعدة الكوارث الخارجية، وتحت إشراف مكتب التنسيق العسكري، ولها أربعة مكاتب في السليمانية، وأربيل وزاخو ودهوك.

٥ **منظمة المصادر البريطانية:** وتعمل في مجال تدريس الكمبيوتر واللغة الإنجليزية، ولها مكاتب فرعية عدة، ومكتب رئيس في مدينة شقلاوة وضواحيها.

٦ **منظمة كاريتاس:** وقد أعلنت «نشرة النيابة الرسولية الكاثوليكية التي تصدر في القاهرة، في عددها رقم (٤٦)، أن منظمة (كاريتاس) الكاثوليكية العالمية، بالتعاون مع مكاتبها داخل العراق (لم تحدد مواقعها) وبتنسيق مع فروعها في تركيا وسوريا ولبنان والقدس، قد أعدت كمية ضخمة من المساعدات الإنسانية تسد احتياجات ما يقرب من نصف مليون عراقي.

٧ **منظمة أكورن** ACORN : المدعومة من الفاتيكان، وتقوم بإدخال عشرات من الأكراد المسلمين إلى دورات تنصيرية في كنائس خاصة بعد إغرائهم برواتب كبيرة تبلغ ٦٠٠ دولار شهرياً، ويجري اختيار المتميزين منهم وإرسالهم إلى الفاتيكان، ليعودوا بعد فترة كـ (مبشِّرين).

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

مسيرة السلام
من أوسلو إلى واشنطن

نـــائـــــل نخـــلـــة

مسيرة السلام من أوسلو إلى واشنطن أبرز معالمها: تهويد القدس، مضاعفة الاستيطان ثلاث مرات، استئصال المقاومة في الضفة الغربية، انفصال ديموغرافي وسياسي بين الضفة والقطاع.

لقد صفَّق ضيوف ٦٠ دولة طويلاً أمام مشهد مصافحة الرئيس الراحل ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرئيل السابق إسحاق رابين في واشنطن في الثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٩٣م، هذا الاتفاق الذي أُعلِن فيه عن نجاح الطرفين (الفلسطيني والإسرائيلي) بالوصول إلى اتفاق أوسلو.

إن اتفاق أوسلو الموقَّع في واشنطن كان من المأمول أن ينتهي كحَلٍّ مرحلي نهاية عام ١٩٩٩م ينتهي بعده الاحتلال عن كامل الضفة الغربية والقدس المحتلة، وإيجاد حل مقبول لدى الطرفين في موضوع اللاجئين والمياه والحدود والمستوطنات وغيرها من قضايا الوضع النهائي.

إلا أن حسابات الحقل لم تكن على قدر حسابات البيدر فلسطينياً ولا حتى عربياً؛ فلا الاحتلال انتهى، وبقيت الضفة مقسَّمة إلى ثلاث مناطق على شكل كانتونات منقسمة ومعزولة، وبات الاستيطان غولاً يهدد الأرض والإنسان الفلسطيني معاً، وهُوِّدت القدس.

فما الذي جرى؟ وما الذي حدث على امتداد ١٧ عاماً من المفاوضات المباشرة وغير المباشرة؟ ولماذا تستغرق ما تعرف بـ (مسيرة السلام) أكثر من عقدين من المفاوضات بدون نتائج؟

أوسلو اتفاق بلا اتفاق:

ذهب الفلسطينيون والعرب إلى مؤتمر مدريد بداية عقد التسعينيات بضغوط أمريكية تحت عنوان الأرض مقابل السلام، وترأس الفريقَ الفلسطيني في ذلك الحين الدكتور حيدر عبد الشافي، وبعد ثلاث سنوات يتفاجئ الجميع بأن قيادة فتح في تونس دخلت خلال هذه المدة بمفاوضات مع رئيس وزراء إسرائيل المغدور إسحاق رابين توِّجت باتفاق أوسلو في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣م وُقِّع في واشنطن.

وأسوأ ما في هذا الاتفاق بحسب رأي كثير من المعلقين – وحتى قيادات متنفذة في فتح – أنه أجَّل قضايا أساسية مثل: اللاجئين والقدس والمستوطنات والمياه والأسرى والحدود إلى الوضع النهائي.

فدخل الفلسطينيون (ومعهم العرب) في اللعبة التي تجيدها إسرائيل دوماً؛ وهي: المماطلة والمراوغه، وضاعت القضية الأساسية؛ ألا وهي إنهاء الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية.

استخدم رابين منذ توقيع اتفاق أوسلو إلى حين اغتياله نهاية عام ١٩٩٥م على يد متطرف صهيوني يدعى يغال عامير

مصطلحَ: «لا يوجد مواعيد مقدسة» «للتهرب من مراحل انسحاب قوات الاحتلال من مراكز المدن الفلسطينية والتجمعات المدنية في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ ثم انتقلت السياسة الإسرائيلية إلى مركز اليمين المتطرف بقيادة بنيامين نتنياهو؛ وبذلك دخلت ما تسمى بعملية السلام إلى نفق مظلم إلى نهاية عام ١٩٩٨م، وأتت بعدها حكومة عمالية بقيادة إيهود باراك الذي روَّج للسلام مع سوريا وأهمل الملف الفلسطيني، وبعد فشله أمام إصرار الرئيس السوري حافظ الأسد على عودة الجولان المحتل كاملاً انتقل مرة أخرى إلى الملف الفلسطيني تحت عنوان: «ضرورة حرق مراحل اتفاق أوسلو والانتقال مباشرة إلى مفاوضات الوضع النهائي» وأقنع الإدارة الأمريكية بقيادة بل كلينتون وقتها بهذا الأمر ليجرَّها مع ياسر عرفات إلى مفاوضات كامب ديفيد أواسط عام ٢٠٠٠م لتنتهي بفشل صاخب تندلع على أثرها انتفاضة الأقصى في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر للعام نفسه، ويُسدَل الستار مرة أخرى على عملية السلام في المنطقة.

وتُسقِط انتفاضة الأقصى باراك بعد عام واحد فقط، وجاء شارون ليدمر ما تبقَّى من رموز اتفاق أوسلو في التاسع والعشرين من شهر مارس لعام ٢٠٠٢م فاحتل مدن الضفة الغربية التي صُنفَت كمناطق (١) خاضعة للسيطرة الفلسطينية الكاملة، وحاصر مقر الرئيس الفلسطيني وقتها (ياسر عرفات) حتى جرى اغتياله نهاية عام ٢٠٠٤م في رام الله. أما المشهد المقابل فكان انتصار المقاومة في قطاع غزة؛ حيث باتت المستوطنات تشكِّل هناك عبئاً أمنياً ثقيلاً على كاهل شارون الذي كان يوصف في الصالونات السياسية الصهيونية بأنه أبو الاستيطان، ثم اضطر مرغماً على تفكيك جميع مستوطنات قطاع غزه والنقاط العسكرية التابعة للجيش الصهيوني ودون أي ثمن أو تعهُّد فلسطيني، فاعتبرته المقاومة الفلسطينية ومِن ورائها الشعب الفلسطيني بمختلف تشكيلاته وشرائحه انتصاراً فلسطينياً نظيفاً خالصاً.

ثم دخل شارون في غيبوبته وحلَّ مكانه نائبه في الحكومة إيهود أولمرت الذي عاش مرارة فوز حماس الكاسح بانتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني وتشكيل حكومة تابعة لها، فحاصرها العالم ومن ورائهم إسرائيل، ورفض رئيس وزرائها الدخول في مفاوضات مع شريكه في مسيرة التسوية الرئيس أبو مازن الذي فاز في الانتخابات الرئاسية التي جرت في شهر كانون الثاني لعام ٢٠٠٥م، بذريعة أنَّ كيان السلطة الفلسطينية يسيطر عليه تنظيم معادٍ ألا وهو حركة المقاومة الإسلامية حماس.

وبعد عزل الرئيس محمود عباس لحكومة حماس على أثر سيطرة الأخيرة عسكرياً على قطاع غزه أواسط عام ٢٠٠٧م، وتعيين سلام فياض رئيساً لحكومة انتقالية جديدة في الضفة الغربية عادت الاتصالات بين الجانبين وتوِّجت بمؤتمر أنابولس في الولايات المتحدة الأمريكية.

أنابولس والأمن لإسرائيل:

برعاية جورج بوش الابن وبحضور أبي مازن وإيهود أولمرت وعدد من زعماء العرب وممثلين عن اللجنة الرباعية الدولية عُقِد اجتماع أنابولس في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ٢٠٠٧م وتوِّج في نهايته باتفاق الطرفين (الفلسطيني والإسرائيلي) على بيان سُمِّي بـ «التفاهم المشترك». وهذا الاجتماع كما قال عنه مسؤول عربي شارك في جلساته أمام وسائل الإعلام: إن الأزمة الحقيقة لهذه المفاوضات التي أُعلِن عن انطلاقها بين الفلسطينيين والإسرائيليين أنها تعتمد على خريطة الطريق؛ أي أنها معتمدة على مقاربة أمنية

فقد اشترط بوش في حينه بدء المفاوضات أو تنفيذ أي اتفاق متوقَّع بين الجانبين بتنفيذ المرحلة الأولى من خريطة الطريق؛ أي تفكيك ما يسمى بالشبكات «الإرهابية» في الأراضي الفلسطينية؛ وهو ما يعني استئصال المقاومة ومصادرة سلاحها ومنع عملياتها ضد الاحتلال واعتقال المتعاطفين معها وتجفيف منابع تمويلها وإغلاق الجميعات الخيرية والقضاء على أي نشاط أو مظهر يساندها أو يدعمها.

وبدأت اللقاءات واجتمع أبو مازن مع أولمرت في بيته في القدس المحتلة لأكثر من ٤٠ مرة، وكانت هناك فقط تدور المفاوضات كما صرَّح بذلك صائب عريقات رئيس فريق المفاوضات عن الطرف الفلسطيني، إلى أن عُلِّقت بقرار من الرئيس محمود عباس بعد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزه في نهاية عام ٢٠٠٨م الذي راح ضحيته أكثر من ١٥٠٠ شهيد وآلاف الجرحى، ودُمِّرت فيه جميع مقرات السلطة في غزه وشُرِدَت مئات الأسر التي فقدت منازلها في الحرب ولا زالت تعيش في العراء حتى هذه اللحظة.

ثم سقط أولمرت في شَرَك الاختلاسات وسرقة المال العام في إسرائيل، وأجريت بعدها انتخابات نيابية جديدة هناك في أواسط شهر شباط عام ٢٠٠٩م وتمكَّن نتنياهو – على الرغم من خسارته أمام مرشحة حزب كاديما (حزب أولمرت) بمقعد واحد – من تشكيل حكومة ائتلافيه مع أحزاب يمينية متطرفة وفي

مقدمتها حزب وزير الخارجية الإسرائيلي اليوم أفيغدور ليبرمان.

أوباما والشجرة:

مع تغير الخريطة السياسية في إسرائيل تغيرت خريطة أمريكا السياسية أيضاً؛ إذ فاز بارك حسين أوباما بمقعد الرئاسة عن الحزب الديمقراطي هناك وتصاعدت معه آمال العرب والفلسطينيين بحصول تغيير في المواقف الأمريكية المنحازة لإسرائيل ولكن سقط أوباما من أول اختبار وتبخرت معه آمال العرب.

لقد صعد أوباما على شجرة الاستيطان من اليوم الأول لرئاسته؛ فأعلن أنه على حكومة إسرائيل وَقْف النشاطات الاستيطانية فوراً وبشكل كامل في الضفة الغربية ومدينة القدس المحتلة قبل البدء بمفاوضات مع الطرف الفلسطيني، وتبعه بذلك الجانب الفلسطيني ومن خلفه لجنة المتابعة العربية للسلام المنبثقة عن جامعة الدول العربية. لكن تبدل الموقف الأمريكي أمام إسرائيل؛ حيث أعلن أوباما بعد شهور قليلة أنه على إسرائيل تجميد الاستيطان وليس وقفه، ثم استثنى من التجميد مدينة القدس المحتلة والتجمعات الاستيطانية الكبرى، فنزل هو عن الشجرة وأبقى لجنة المتابعة العربية والطرف الفلسطيني معلقاً هناك، لا يعرف كيف يتصرف؟ فكان لزاماً عليهم البحث عن حلول خلاَّقه، وبالفعل هذا ما كان؛ فابتدع مصطلح (المفاوضات غير المباشرة) مقابل تجميد الاستيطان باستثناء القدس لمدة ١٠ شهور تنتهي في السادس والعشرين من شهر سبتمبر لهذا العام، وبعد ثلاثة شهور فقط ضغطت الإدارة الأمريكية على الطرف الفلسطيني ومن خلفه الجانب العربي للشروع في مفاوضات مباشرة متجاهلة الشروط الفلسطينية بضرورة الوفاء باستحقاقات عملية السلام؛ وهي تحديد مرجعية تفاوضية تقوم على أساس القرارات الدولية، والبدء بها عند النقطة التي وصلت إليها المفاوضات السابقة وليس من نقطة الصفر، ومناقشة جميع قضايا الوضع النهائي وتمديد قرار تجميد الاستيطان في الضفة الغربية.

واشنطن مرة أخرى:

في الثاني من أيلول بدأت المفاوضات المباشرة بإعلان واشنطن – وبرعاية أمريكية وحضور أردني ومصري – عُقِد أوَّل اجتماع بين أبي مازن ونتنياهو، بحضور الرئيس الأمريكي أوباما الذي أعلن أن هدف هذه المفاوضات الوصول إلى اتفاق إطار حول قضايا الوضع النهائي في مهلة أقصاها عام واحد إلى أن ينفَّذ هذا الاتفاق على مدى ١٠ سنوات، تكون في نهايته قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة ودولة يهوديه للشعب اليهودي فقط مع ضمان أمن إسرائيل.

وتعود المفاوضات مرة أخرى تحت ضغوط أمريكية لخدمة مصالحها في المنطقة؛ فكما صرَّح قائد عملياتها العسكرية في العراق وأفغانستان بأن الوصول إلى سلام الشرق الأوسط يمهد الطريق أمام قواته للانتصار في هاتين المنطقتين الساخنتين ويخدم أمريكا في صراعها مع إيران.

ولكن ما إن دأبت هذه المفاوضات على العمل بلقاء في واشنطن وآخر في شرم الشيخ حتى برزت إلى السطح مرة أخرى قضية تجميد الاستيطان التي أعلنت عنها الحكومة الإسرائيلية.

ومع فشل الضغوط الأمريكية – هذا إن وجدت – على إسرائيل بتمديد تجميد الاستيطان في الضفة الغربية، وأمام التصريحات التي صدرت عن الرئيس أبي مازن برفضه العودة إلى الاستمرار بهذا المفاوضات ليوم واحد إذا استمر الاستيطان يبقى ثمة سؤال كبير معلَّق ستجيب عنه الأيام القليلة القادمة، وهو: هل سينجح الفلسطينيون هذه المرة بفرض مواقفهم على الحكومة الإسرائيلية، أم أن الحلول «الخلاَّقه» التي دُرِج على تسميتها في اللغة السياسية (الشرق أوسطيه) خلال العقود الماضية ستتمكن من تجاوز هذه العقبة والاستمرار في المفاوضات وكأن شيئاً لم يكن، خاصة مع إصرار الحكومة الصهيونية ومعها قطعان المستوطنين على رفض تمديد قرار تجميد الاستيطان وهذا ما كان بالفعل على الأرض؛ حيث تشير التقارير الميدانية إلى أن المستوطنين شرعوا منذ وقت ليس ببعيد في بناء أكثر من ألفي وحدة سكنية في مستوطنات الضفة الغربية متجاهلين المطالبات الدولية بوقف الاستيطان لاتاحة الفرصة أمام المفاوضات المباشرة للنجاح والتقدم.

حقائق وأرقام:

- يقيم نحو ٣٠٠ ألف إسرائيلي في أكثر من مئة مستوطنة، أقامتها إسرائيل في الضفة الغربية. وهذه المستوطنات لها بنية تحتية منفصلة بجوار مناطق فلسطينية ويتولى حمايتها الجيش الإسرائيلي.

- يقيم ٢٠٠ ألف آخرون في القدس الشرقية العربية التي استولت عليها إسرائيل أيضاً في حرب عام ١٩٦٧م أو في مناطق من الضفة الغربية ضمتها إسرائيل إلى القدس بعد الحرب، وأصبح عدد من هذه المستوطنات الآن جزءاً لا يتجزأ من المدينة.

- يقيم نحو ٢.٥ مليون فلسطيني في الضفة الغربية والقدس الشرقية. وضمَّت

إســـرائيل القـــدس الشـــرقية كجزء من عاصمتها في خطوة لم يُعترَف بها دولياً. ويريد الفلســـطينيون أن تكـــون القدس الشـــرقية عاصمة دولتهـــم التي يُزمعون إقامتها في الضفة الغربية وقطاع غزة.

■ يقـــول الإســـرائيليون: إن معظـــم النشاط الاستيطاني اليهودي يحتل واحداً بالمئة مـــن الضفة الغربيـــة لكن منظمة حقوق الإنســـان الإســـرائيلية بـ (تسيلم) تقول: إن النشـــاط الاســـتيطاني بما في ذلك ممرات الأراضي التي أقيمت حولها أسوار تمثل نحو ٤٢ في المئة من مساحة المنطقة.

■ يقـــول عدد من المســـتوطنين الذين يقيمون في مستوطنات قريبة من مدينتي (تـــل أبيب والقدس): أن الدافع وراء ذلك هو أسعار المنازل الأرخص. ويعتبر آخرون أنفسهم رواداً يمارسون حقوقهم التوراتية على أراضٍ يطلقون عليها يهودا والسامرة.

■ في عام ٢٠٠٤م أعلن رئيس الوزراء الإســـرائيلي آنذاك آرييل شـــارون خطة للإبقـــاء على مســـاحات مـــن الأراضي بها نحو ست مســـتوطنات في أي اتفاق سلام في المســـتقبل. ولم يبتعد أي زعيم إسرائيلي علانية عن هذا الاقتراح الذي يثير إمكانيـــة التخلي عن مســـتوطنات صغيرة تأوي نحو ١٠٠ ألف يهودي.

■ بتاريخ ٢٠١٠/٩/٢٦م نشرت صحيفة يديعوت أحرونـــوت جدولاً يوضح مراحل التخطيـــط والإقـــرار والبدء فـــي البناء التي ســـيتم العمل بها بمجرد انتهاء فترة التجميد.

37.000 وحدة سكنية	**مرحلـة التخطيط:** المبادرون للبناء يحصلون على الإذن من «لجنة التخطيط العليا» فـــي الإدارة المدنية بعد أن تكون فحصت الخطة ونشـــرتها للاعتراضات. هذه الخطط تلقَّت أيضاً إذن بناءٍ من وزير الدفاع.
11.000 وحدة سكنية	**مرحلـة الإقـرار:** مبـــادرو البنـــاء حصلوا أو اشـــتروا الحق باســـتخدام الأرض في إجـــراء إداري خاص للبناء في المســـتوطنات. والآن ينتظـــرون ترخيص البناء من الســـلطة المحليـــة؛ وهو إجـــراء إداري عادي يتم أيضاً في كل ســـلطة محلية داخل نطـــاق الخط الأخضر وليس مطلوباً له إذن من وزير الدفاع.
2000 وحدة سكنية	**يمكن البدء بالبناء:** المبادرون حصلوا على كل تراخيص البناء، ونظرياً يمكنهم اليوم – مع نهاية الأمر – الشـــروع في البناء. لو ســـاروا إلى وضع الأساسات قبل عشرة أشهر لكان مسموحاً لهم أن يواصلوا البناء حتى في فترة التجميد. بعد اتفاق أوســـلو عام ١٩٩٣م ضاعفت إســـرائيل ثلاث مرات عدد المســـتوطنين ومرتين عدد المستوطنات بين عامي ١٩٦٧م و ١٩٩٣م. وجرى نزع المواطنة عن ٣٠٣٣ فلســـطينياً مقدسياً، وبين اتفاقية أوســـلو وعام ٢٠٠٨م جرى نزعهـــا عن ١٠١٠٢ من المواطنين بينهم ٤٥٧٧ عام ٢٠٠٨م. تستولي إسرائيل من خلال جدار الفصل العنصري على نحو ١٣٪ من مســـاحة الضفة الغربية وتصادر إســـرائيل من خلال ما تُعرَف بالمنطقة العازلة في قطاع غزة بعد انسحابها منه نحو ٢٤٪ من مساحته الإجمالية وتسعى إسرائيل إلى ضم المستوطنات الكبرى في الاتفاق النهائي مع الفلســـطينيين إلى وراء الخـــط الاخضر (حدود فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨م) لتبتلع ما مساحته ٤٢٪ من مساحة الضفة الغربية؛ أي ما يقرب من نصف مساحتها التي يعيش فيها أكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني في حين يستوطن في هذه المنطقة المصادرة ٣٠٠ ألف مستوطن إلـــى جانب اعتقال إســـرائيل أكثر من ١٠ آلاف أســـير فلســـطيني، منهم ٣٠٠ أســـير أمضى أكثر من ١٧ ســـنة في الاعتقال، وأكثر من ٣٠٠ طفل فلســـطيني تقلُّ أعمارهم عن ١٦ عاماً، و ٣٦ أسيرة فلسطينية.

إستراتيجية أوباما في أفغانستان وباكستان...

انسحاب مدبَّر خوفاً من الهزيمة الساحقة!

موسى القلاب(*)

الإستراتيجية الأخيرة للرئيس الأمريكي باراك أوباما، التي أعلنها في السابع والعشرين من مارس/آذار ٢٠٠٩م، تعني بالمصطلح الإستراتيجي العسكري أنها: (انسحاب مدبَّر) للقوات الأمريكية والحليفة لها من أفغانستان وباكستان، خوفاً أو هروباً من الهزيمة الإستراتيجية الساحقة الماحقة التي تنتظر الولايات المتحدة الأمريكية وشركاءها في تلفيقة (الحرب على الإرهاب) التي اخترعتها مجموعة (بوش الابن، وتشيني، ورامسفيلد)، وارتكزت عليها طيلة السنوات الماضية، كإستراتيجية أمريكية وغربية جديدة تحت مظلة أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١م في نيويورك وواشنطن دي سي، وكان ذلك من أجل تحقيق مآربَ ومصالح وأطماع؛ كانت معروفة لدى كثيرين في منطقة الشرق الأوسط ووسط آسيا، قبل شن الحرب وتدمير أفغانستان عام ٢٠٠١م. ووظفت الإدارة الأمريكية السابقة القوات الأمريكية المسلحة براً وبحراً وجواً، ومعها دول مشاركة أو زعماء شركاء في مشروع (الحرب على الإرهاب) قيل عنها: إنها دول (راغبة) بالحرب على الإرهاب جنباً إلى جنب مع واشنطن، مثل بريطانيا وغيرها؛ وفي فترة لاحقة شاركت قوات من دول أعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو).

(*) باحث وكاتب في الشؤون الإستراتيجية

هنالك مستفيدون كثيرون من توظيف القوات المسلحة الأمريكية والبريطانية وحلفائهما؛ خاصة من بعض الدول الصناعية ذات المصالح المشتركة معهما؛ إذ إن النخب الثلاثة (حسب التسمية الديمقراطية) السائدة داخل المجتمعات الغربية، التي تتحكم في قرارات تلك الدول الصناعية ومقدراتها وعلى رأسها الولايات المتحدة، هي : (النخبة السياسية التي تأتي للحكم عن طريق صناديق الاقتراع وتقوم بخدمة مآرب النخبة الصناعية مقابل مصالح مشتركة بين الطرفين، والنخبة الصناعية التي تتألف من أصحاب شركات الصناعات الدفاعية الكبرى (السلاح)؛ وهمُّها بيع صفقات السلاح ومشاريع التطوير بمليارات الدولارات وليس بالملايين. والنخبة العسكرية التي تنفذ أوامر وتعليمات النخبة السياسية ورغبات النخبة الصناعية إلى حد كبير، بممارسة فنون الحرب وإستراتيجياتها وخططها وتكتيكاتها؛ وإلا فإن مصيرها التسريح والبطالة).

تلك هي الإستراتيجية الأمريكية التي كان قد أطلقها الرئيس الأمريكي باراك أوباما نحو أفغانستان وباكستان قبل أكثر من عام. وهي في حقيقة الأمر مرحلة انتقالية لا بد منها بين الوضع السابق والوضع اللاحق؛ وإلا فإن مصير القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو (الأطلسي) المجمَّعة من ٢٢ دولة، سيكون حالكاً مع تزايد هجمات حركة طالبان في كلٍّ من أفغانستان وباكستان بعد مرور عدة سنوات على تلك الحرب الفاشلة.

إن إستراتيجة الرئيس الأمريكي الأخيرة، حملت في طياتها كثيراً من الدلالات الجديدة والمتغيرات العميقة على ساحة القتال ضد حركة (طالبان) في كلٍّ من أفغانستان وباكستان.

تلك الإستراتيجية التي كانت تُسمى في زمن الإدارة الأمريكية السابقة برئاسة جورج بوش الابن (الحرب على الإرهاب العالمي) بقوات أمريكية وقوات من حلف الناتو؛ فماذا تعني تلك الدلالات والمتغيرات؛ لا سيما بعد أن رحلت الإدارة السابقة وحلت محلها الإدارة الأمريكية الجديدة، صاحبة الإستراتيجية الجديدة التي تقول بصريح العبارة : (إن القتال ليس مسؤوليتنا... إنه مسؤولية العالم وباكستان وأفغانستان جميعاً)؟

وفي هذا السياق أوضح الرئيس الأمريكي باراك أوباما؛ عند استعراضه للإستراتيجية الأمريكية الجديدة التي كان قد أطلقها أمام حشد كبير من معاونيه ووسائل الإعلام؛ من الغرفة رقم ٤٥٠ الواقعة في بناء (دوايت أيزنهاور) في العاصمة واشنطن؛ وبما لا يدع مجالاً للشك: أن مشكلة طالبان على طول الحدود (الباكستانية – الأفغانية) لم تعد مشكلة أمريكية أو تهديداً للأمن القومي الأمريكي فحسب، بل هي مشكلة دولية؛ حيث ضربت التفجيرات المدمرة في أوقات سابقة كلاً من لندن ومدريد وبالي وإفريقيا وأهدافاً في الشرق الأوسط، وأماكن أخرى من العالم؛ فكل المجتمع الدولي ودول العالم مطالبون منذ اليوم فصاعداً – على حد قوله – بأن يشاركوا في الجهود الأمريكية والأطلسية لمحاربة الإرهاب في أفغانستان وباكستان، وليس القوات الأمريكية وحلف الناتو فقط.

(كل المجتمع الدولي ودول العالم مطالبون منذ اليوم فصاعداً بأن يشاركوا في الجهود الأمريكية والأطلسية لمحاربة الإرهاب في أفغانستان وباكستان، وليس القوات الأمريكية وحلف الناتو فقط).

الرئيس الأمريكي باراك أوباما

ولكن المشاركة المحلية الفورية – حسب رؤية الرئيس أوباما – لا بد أن تبدأ من أفغانستان ذاتها ومن باكستان أيضاً؛ إذ إنهما الدولتان المعنيتان مباشرةً بالأمن والاستقرار داخل أراضيهما وعلى حدودهما الدولية.

إن هذا التوجه الجديد يدل دلالة واضحة على مدى التحول الكبير في اتجاه (الإستراتيجية الأمريكية نحو الحرب ضد طالبان، بشكل خاص والإرهاب على الساحة العالمية بشكل عام)، من وجهة نظر جديدة تشير إلى أن هذه الإستراتيجية ما هي إلا انسحاب مدبر كبديل عن الهزيمة الساحقة التي تنتظر القوات الأمريكية والحليفة في أفغانستان وباكستان.

وحتى تزداد الحكومتان الشريكتان في هذه الإستراتيجية في كلٍّ من كابول وإسلام أباد طمأنينة وهدوءاً على الرغم من شعورهما بالكارثة القادمة، إذا ما انسحبت القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو من بلديهما، قرر الرئيس أوباما في حينه تعزيز القوات الأمريكية في أفغانستان بنحو أربعة آلاف جندي أمريكي؛ للقيام بمهمة تدريب الجيش والشرطة الأفغانية؛ (إذ من المقرر أن يصل تعداد الجيش الأفغاني إلى ١٣٤ ألف جندي والشرطة الأفغانية إلى ٨٢ ألف شرطي) لغاية عام ٢٠١١م. ومن هنا يتبين أن صلب الإستراتيجية الأمريكية

الأخيرة تتمثل في تدريب ومساعدة القوات الأفغانية (جيشاً وشرطةً) في الوقت الضائع وهي الفترة الانتقالية قبل الانسحاب النهائي المدبَّر، وليست في قتال طالبان.

مع أن هذا الدور التدريبي الأمريكي لن يستمر إلى الأبد في أفغانستان؛ بل سيبقى إلى مدة قد لا تتجاوز ثلاث سنوات على أقصى حد. وبعدها ستنسحب القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو من أفغانستان ومنطقة الحدود مع باكستان، وتترك مسؤولية الأمن فيها على عاتق دولها وحكوماتها.

لقد وصف الرئيس أوباما الإستراتيجية الأمريكية الأخيرة بأنها: (الأقوى، والأذكى، والأكثر شمولاً). ويُستنتج من ذلك أن هذه الإستراتيجية ترتكز على مفهوم إستراتيجي جديد، وهو أن الدور المباشرَ للقوات الأمريكية في أفغانستان قد تقلَّص بحيث تقتصر العمليات القتالية للجنود الأمريكيين على الدفاع عن النفس في قواعدهم العسكرية وأثناء انتشارهم في منطقة الواجب، ثم تنفيذ ضربات جوية أمريكية من بعيد كإسناد فوري ومباشر للقوات الأفغانية والقوات الباكستانية؛ سواء بطائرات من دون طيار، أو طائرات القتال والهجوم الأرضي الأمريكية، أو بالطائرات العمودية المقاتلة أو بصواريخ (أرض، أرض)، ضد مواقع محددة للقاعدة وطالبان، داخل أفغانستان أو على الحدود (الأفغانية – الباكستانية) أو حتى داخل باكستان نفسها، وذلك بعد التشاور والتنسيق مع الحكومة الباكستانية.

إلا أن موافقة الرئيس الأمريكي على تعزيز القوات الأمريكية بحوالي ١٧ ألف جندي للعمل في المنطقة الجنوبية والشرقية من أفغانستان، كان يهدف منها إلى مساعدة الشرطة الأفغانية في حماية وإنجاح عملية الانتخابات الأفغانية التي جرت في شهر أغسطس ٢٠٠٩م؛ ولذا فإن هذا الهدف كان محدداً سلفاً، وكان مرتبطاً بواجب معيَّن؛ وليس من أجل القيام بعمليات هجومية ضد طالبان في المنطقتين المذكورتين.

وعليه فلن تقوم القوات الأمريكية العاملة في أفغانستان البالغُ تعدادها نحو ٦٨ ألف جندي، بمطاردة قوات طالبان وتنفيذ عمليات أرضية هجومية واسعة النطاق ضد معاقلها كما كانت تقوم به من قبل، إلا في حالات نادرة ومحدودة جداً. إلا أن هذا الوضع الجديد كان له من المخاطر على القوات الأفغانية ما هو أسوأ مما كان عليه قبل ذلك بكثير؛ حيث شجع عناصرَ طالبان على إظهار مزيد من التصميم والإصرار، وتنفيذ العمليات التفجيرية ضد قوات الجيش والشرطة الأفغانية، أكثر من أي وقت مضى، وكذلك الأمر داخل باكستان ضد قوات الشرطة والجيش الباكستاني. وهذا ما حدثت بداياته في نهاية مارس ٢٠٠٩م في كلٍّ من باكستان وأفغانستان، وخلال عام ٢٠١٠م. ولن تقف تحديات طالبان عند هذا الحد؛ إذ ستزداد حدَّةً مثل تلك العمليات التفجيرية ضد قوات الجيش والشرطة في باكستان وأفغانستان، وهي – بلا شك – من أكبر التحديات التي ستواجه الحكومتين (الأفغانية والباكستانية) من الآن فصاعداً، وربما تكون النهايات بالنسبة لهما أسوا من المتوقع بكثير خلال عامي (٢٠١١م – ٢٠١٢م).

كما أن القوات متعددة الجنسيات بقيادة حلف الناتو التي يصل تعدادها في أفغانستان حوالي ٣٥ ألف جندي؛ لن تُقدِم على التورط في مأزق المطاردة والوقوع في فخ الكمائن البشرية الملغمة، ولا سيما أن عناصر طالبان، هي الأكثر خبرة بطبيعة المنطقة والتضاريس والمسالك الوعرة، وهي الأكثر قدرة على الاختباء والتسلل والتكيف مع ظروف الطقس والأحوال الجوية داخل أفغانستان ومنطقة الحدود مع باكستان؛ إذ إن تلك العناصر ليست غريبة عن المنطقة ولم تأتِ من بعيد أو من خارج أفغانستان أو من (الفضاء الخارجي) بل هم من أبناء القبائل الأفغانية التي عاشت داخل الأراضي الأفغانية أو على حدودها الشرقية مع باكستان، منذ مئات بل آلاف السنين. وهذه الحقيقة تغيب عن أذهان كثيرٍ من السياسيين والعسكريين والمخططين الغربيين عموماً، والأمريكيين

بشكل خاص، عن قصد أو غير قصد، أو ربما لا يريدون الاعتراف بها صراحةً، أمام الرأي العام الأمريكي والأوروبي لأسباب متعددة لا مجال للخوض فيها الآن.

ولعل من أهم القراءات الدقيقة في مسألة الإستراتيجية الأمريكية الجديدة؛ أن طالبان لو كانت معزولة عن قاعدة شعبية قبلية قوية تعيش على الأرض الأفغانية أو قريباً منها، لما تمكنت من الإفلات من التدمير الشامل منذ عام ٢٠٠١م، ولَمَا استمرت في تصعيد عملياتها المميتة ضد القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو حتى اليوم.

وهنا من حق أي محلل إستراتيجي أن يتساءل عن سرِّ قوة عناصر طالبان التي ما زالت تمارس نشاطاتها ضد القوات العسكرية الأمريكية وقوات حلف الناتو، وضد الجيش الباكستاني على الحدود المشتركة بين باكستان وأفغانستان أو داخل باكستان ذاتها؛ طيلة السنوات الماضية.

وبهذا الصدد؛ اعترف الرئيس الأمريكي أوباما في خطابه حول الإستراتيجية الأمريكية الجديدة عند تسلُّمه السلطة، بأن عام ٢٠٠٨م كان مميتاً وقاتلاً بالنسبة للقوات الأمريكية وشركائها، وأن (العمليات الإرهابية) كانت خلال العام الماضي في تصاعد أكثر من أي وقت مضى خلال الأعوام السبعة المنصرمة.

وثمة خيط دقيق يقود إلى هذه الحقيقة التي كان يجهلها (أو يتجاهلها) كثيرون من أصحاب القرار في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» وقيادة حلف الناتو، وهو أن الرئيس أوباما طالب الاستخبارات العسكرية الباكستانية صراحةً بقطع صِلاتِها مع عناصر طالبان، وفي مقابل ذلك ستقوم الولايات المتحدة بتعويض باكستان بمبالغ مالية تصل إلى ١,٥ مليار

إن القراءة المتأنية في إستراتيجية أوباما الأخيرة، يُستخلص منها أن القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو لن تكون رأس الحربة في مقاتلة الإرهاب والقاعد وطالبان منذ الآن فصاعداً.

دولار سنوياً ولمدة ٥ سنوات قادمة، لبناء مشاريع اقتصادية وتنموية ودعم برامج الديمقراطية فيها. وهذا - فعلاً - يدل على وجود علاقة سرية وتاريخية قوية بين طالبان من جهة والاستخبارات الباكستانية من جهة أخرى، وأن هذا الأمر ليس بجديد وطارئ؛ فهو استمرار لمراحل التعاون المباشر والعلاقات المتينة التي كانت قائمة بين الطرفين، إبان عمليات مقاومة الغزو السوفييتي الشيوعي السابق لأفغانستان.

وهي علاقة كانت قائمة بعلمِ وتخطيطِ الحكومات الباكستانية السابقة، وبُنيَت - أصلاً - على قاعدة (دينية - قَبَلية - شعبية) ومصالح مشتركة قوية، لم تنجح فلسفة بوش وفريقه الجمهوري: «الحرب على الإرهاب» و «عملية الحرية الدائمة» Operation Enduring Freedom OEF، في حلِّ عرى المودة والتعاون بينهما منذ حرب عام ٢٠٠١م حتى اليوم.

وعليه فإن القراءة المتأنية في إستراتيجية أوباما الأخيرة، يُستخلص منها:

أن القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو لن تكون رأس الحربة في مقاتلة الإرهاب والقاعد وطالبان من الآن فصاعداً، بل ستكون عاملاً مؤازراً في مجالات التدريب والإسناد الناري الجوي والدعم الاقتصادي لفترة زمنية انتقالية محددة، ويُترك أمر القتال على الأرض لقوات الدول والحكومات المعنيَّة وشرطتها مثل أفغانستان وباكستان، وهذا شأنهما وستتحملان كافة المسؤوليات والتبعات والخسائر البشرية والمادية بعد اليوم. ويعني ذلك توجيه رسالة أمريكية رسمية واضحة الخطوط للحكومتين (الأفغانية والباكستانية) تقول: إما أن تُثبِتُوا جدارتكم في هذا المجال، أو لا مكان لكم في الحكم، والبديل بطبيعة الحال عودة طالبان إلى الحكم من جديد.

وبذلك يكون الرئيس أوباما قد قلب إستراتيجية الإدارة الأمريكية السابقة في الحرب على الإرهاب العالمي - وكذلك تغيير الأنظمة السياسية بالقوة العسكرية الأمريكية - رأساً على عقب، على مدى المستقبل المنظور على الأقل. ورمى بالمشكلة برمَّتها على عاتق أصحابها في أفغانستان وباكستان من جديد، ممهداً الطريق لانسحابٍ مدبَّر (منظَّم) تجريه القوات الأمريكية وقوات الناتو، ربما تكون بداياته في عام ٢٠١١م؛ إذْ إن هذا التاريخ لم يأتِ من فراغ، كونه آخر مهلة محددة للقوات الأمريكية للانسحاب من العراق أيضاً.

المصادر:

- **غلوبال سيكيورتي.**
www.globalsecurity.org
- **مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية في واشنطن.** www.csis.org
- **مؤسسة ضد الحرب الأمريكية.**
www.antiwar.com
- **الصحافة العالمية ووكالات الأنباء.**

سجون الاحتلال...
ملاحم وبطولات

فـــؤاد الخـــفـــش(*)

كثيـــرةٌ هي المظالم التي تعرَّض لها الشـــعب الفلســـطيني منذ احتلال أرضه واغتصابها على يد شـــذَّاذ الآفـــاق، وقد تكون من أبرز تلك المظالم والانتهـــاكات حملات الاعتقـالات الكبيـرة التـي لا حـــد لها ولا إحصـاء، والتي يمكـن القول عنها: إنها شـــملت كل بيت فلسطيني .

ففي ســـجون الاحتلال الموت البطيء والقتـــل المنهج للروح والجســـد؛ حيث يوجد مهندسون بشـــريون كلٌّ وظيفتهم دراسة أساليب وسبل وطرق تدمير الأسير الفلسطيني وإخراجه مدمَّراً محطماً لا كيان له ولا وجود، يلعن تلك الســـاعة التي ناضل بها من أجل الوطن.

في هذه الســـجون، التي لـــم تُعَد أصلاً للبشـــر، والتي ورث غالبيتها الاحتلال من الانتداب البريطاني ومنها سجون موجودة من زمن الأتراك، فيها رجال ونســـاء وأطفال وشيوخ مضى على اختطافهم عقود عديدة وأعوام مديدة. وأعياد ومناسبات وأفراح وأتراح مرت عليهم وهم أسرى ومعتقلون.

وحتى لا يكون كلامي جامداً ومن دون أمثلة سأتطرق للحديث عن مجموعة من الحالات الإنســـانية لبعض الأسر، توضح مدى معاناة هذه الفئة التي تنتمي إلى أمة المليار مسلم صاحبة الجذور العربية العريقة.

هناك فـــي مكان ما جنوب فلســـطين المحتلـــة يربض (نائل البرغوثـــي) المعتقـــل منذ عام ١٩٧٨م وقـــد أتم ٣٢ عاماً كاملة متواصلة في ســـجون الاحتلال هو وابن عمه (فخري البرغوثي) المعتقل في الســـنة المذكورة ذاتها، وتعـــود أصولهما لقرية كوبر بمنطقة رام الله .

نائل البرغوثي اعتُقل وهو فتى صغير واليوم ومع السنين أصبح عمره أكثر من خمســـين عاماً، توفيت والدتـــه، وانتقل إلى رحمة

(*) كاتب وباحث فلسطيني متخصص في شؤون الأسرى والمعتقلين.

الله والده وكذلك أعمامه، شـــاب شـــعر رأسه ولم تستطع الأيام القاسية التي أمضاها نائل البرغوثي يتنقل فيها من إضراب عن الطعام إلى مواجهة مباشرة مع أصحاب الخوذ العسكرية، لم تستطع تلك الأيام أن تحني ظهره؛ لأنه إنسان رياضي استطاع أن يعوِّد جسده على ممارسة الرياضة في كل يوم. وفي زنزانة ضيقة يجلس نائل بابتســـامة لا تفارق محياه، يحدِّث رفاق دربه أنه يريد أن يخرج ويتزوج وينجب أطفالاً ويحدثهم عن أسمائهم التي يريد أن يطلقها عليهم، فالأمـــل لا يغادره، ويقول: إنّ عاجلاً أم آجلاً ســـنخرج من هذه السجون وسنعود نكمل مسيرة البناء.

بجـــواره ابن عمه فخري الذي تختلـــف قصته بجزئية واحدة، وهي: أن فخري متزوج وقد أنجبت له زوجته قبل اعتقاله طفلاً وكانت تحمل في أحشـــائها طفلاً آخر خرج إلى الوجود من دون أن يكون الوالد موجوداً، كبر الطفلان (شادي وهادي) وأرضعتهما أمهما الفاضلة لبن العزة وحب فلسطين وعرفوا والدهم من خلال الصور ومن خلال شباك الزيارة والأسلاك الشائكة، كبر الطفلان وسارا على درب الوالد وخططا لخطف جنود وإطلاق سراح والدهما فكان مصيرهما السجن، والتمَّ شـــمل الأسرة في السجن وفي زنزانة ضيقة التف الشابان حول والدهما يقبِّلونه في المرة الأولى التي يلتقون بها من دون أســـلاك شـــائكة وأشباك حديدية، فكان اللقاء ملحمة تاريخية لم يبقَ أحد بالسجن إلا بكى، وكان فخري يبكـــي ويقبِّل، وأولاده: أحدهما يده معلقـــة برقبته، والآخر انكب يقبـــل قدميه ويقول له: لقد اشتقت لك يا حنون وبقيت الأم وحيدة تتخيل شكل اللقاء وتمســـح دموعها عن خدها تبتهل إلى الله أن يجمع شمل الأسرة من جديد.

وكذلك الأسير عبادة سعيد بلال، وهو فتى فلسطيني من مدينة نابلس شاء الله له أن يفقد نعمة البصر، ينتمي إلى أسرة مجاهدة صابرة، له أربعة إخوان كلهم معتقلون: (عثمـــان) محكوم مدى الحياة، و (معـــاذ) أيضاً محكوم مدى الحياة ٢٦ مـــرة، والأخ الكبير (بكر) معتقل، والأخ (عمـــر) أيضاً ما إن يخرج من الســـجن حتى يعود. لقد قرر عبادة أن يســـلك الدرب مع الســـالكين وأن يجاهد في فلسطين ولم يشعر أن إعاقته البصرية قد تشكل له عائقاً أو حائلاً، لقد قاده قدره إلى السجن وحُكِم بأحد عشـــر عاماً، وقبل أقل من عام وفي وسيلة للضغط على هذه الأســـرة المجاهدة اعتُقلت زوجته وجرى إخضاعها للتحقيق ووُضعَـــت بزنزانة بجوار زوجها وجرى اعتقال أم عبـــادة الحاجة رابعة وهي امـــرأة تجاوز عمرها ٦٥ عاماً؛ في محاولة للضغط على الأسير الفلسطيني الذي وقف يصرخ ويبكي لحال أمه وزوجته المعتقلتين، ويقول:

ونفوســـنا مهمـــا ســـما أعداؤنـــا تبقـــى كبـــارٌ
أعداؤنـــا مهمـــا طغـــوا فمـــآل جمعهـــم اندحـــارٌ
ســـيزول ليـــل الظالمـــين ويخـــرج مـــع الفجـــر النهارٌ

ارتعدت فرائص الأم الفلســـطينية الأسيرة وقالت له: لا تبكِ يا بني؛ فالرجال في فلســـطين لا يبكون وإياك أن أكون الحلقة الأضعف التي قد يســـاومونك عليها لانتزاع اعترافات تؤذي بها نفسك ورفاق دربك، قاطعتها الزوجة الفاضلة (نيللي الصفـدي) من الزنزانـة المجـاورة وقـالـت: إيـاك يا عبادة! كلنا فداك لا تضعف يا زوجي العزيز، هي ضريبة حب الوطن والانتماء إلى هذا الدين، الثبات الثبات. وشكَّل المعتقلون الثلاثة داخل مركز تحقيق صهيوني أقيم على أرض مغتصبةٍ حـــواراً وملحمة تاريخية بحاجة فقط إلى كاتب سيناريو لكي يبدع بذلك قصة تاريخية عظيمة.

وعلى بعد عدة كيلو مترات تقبع أســـيرات الشـــعب الفلســـطيني، حرائر هذه الأمة، تجلـــس (كفاح جبريل) التي اعتُقلت من بيتها ومن وســـط أسرتها مع أنها تعاني من مرض نادر وحالتها الصحيـــة صعبة والدم لا يصل إلى أطراف يديها... تجلس هذه الأسيرة تقرأ كتاب الله تصبِّر نفســـها، تعدُّ الأيام، وتأمـــل بالإفراج عنها؛ فهي معتقلة بدون تهمة؛ فقط اعتقالٌ إداري احترازي، تهمتها أنها تحب فلســـطين، كانـــت كل أمنياتها أن تكون بجوار ابنتها ضحى وهي تجهز نفسها للذهاب إلى المدرسة.

وبجوارها الأسيرة (منتهى الطويل) أم عبد الله، التي لها خمســـة أولاد تركتهم من دون أن تستطيع مشاركتهم إفطار شـــهر رمضان وإعداد الطعام وتمشـــيط ضفائر ابنتها الصغيرة قبل أن تذهب إلى المدرسة.

في ســـجون الاحتـــلال ملاحم وقصـــص وبطولات وتضحيـــات أردْتُ أن أضع القارئ في صورة بعضها، لم أنمِّق الكلمات ولم اختر العبارات، وتركت القصة بعفويتها تتحدث عن نفســـها وتروي معاناتها للناس. لعل أبطالها يجدون من يعرف عنهم ويشـــعر بهم ويسعى لنصرتهم؛ ولو بالدعاء.

حَمَلَة الثقافة العربية الإسلامية

والعمل الحكومي في غرب إفريقيا

د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

إن جنود الإلحاد اليوم يسعون سعياً حثيثاً إلى قلع جذور الإيمان من أعماق القلوب، ولا يستثنون ديناً من دين، بل ظلوا يكيلون لجميع الأديان السماوية بالكيل الواحد جزافاً ليرموها في سلة الخزعبلات والخرافات؛ لأنها لم تقدِّم وسائل الغنى والنِّعَم والرفاهية والترف؛ بل كانت عقبة في سبيل الاختراعات والكشوفات التي سعدت بها البشرية اليوم، إلى غير ذلك من مغالطات وسفسطات يروجها المنحرفون ويدسُّونها في أفكار الشباب الغُر[١].

(١) آدم عبد الله الإلوري، فلسفة النبوة والأنبياء في ضوء القرآن والسُّنة، الأزهر: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ص ٢٢ – ٢٣.

زهرات الإسلام في غرب إفريقيا:

لقد أقام الإسلام دولاً وممالك في غرب إفريقيا، سمع العالم كله بخبرها، وسجل لها التاريخ صفحات خالدة في مفاخر تالدة، منها دولة غانة، وصنغى وبرنو، وهلمَّ جراً. ولولا الإسلام لما كان شيء من ذلك كله في القرون الوسطى[٢].

ولم يزل عدد حجاج المسلمين يربو كلَّ عام على الرغم من وضع العدو الصليبي عقبات وعراقيل في سبيل من يريد الحج من الرجال والنساء؛ كل ذلك دليل على مزية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهو ما جعل نصارى نيجيريا يقتبسون من شعائر الإسلام كثيراً مما ليس في أصول ديانتهم لاقتناص المسلمين إلى دينهم، بل لإبعادهم عن الإسلام بدس السموم في مبادئه وتاريخه، وتشويه وجهه المليح، والتجني على الحقائق التي جاء بها[٣].

(٢) آدم عبد الله الإلوري، الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص١٦.
(٣) آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص١٧ – ١٨.

التعليم العربي الإسلامي في غرب إفريقيا:

يرجع التعليم العربي في غرب إفريقيا إلى وقت دخول الإسلام فيها، وقد كان يقوى مع قوة الإسلام حيناً، ويضعف مع ضعفه حيناً آخر كما هو الواقع في مختلف البلاد؛ لأن المسلمين يلزمهم أن يؤدوا صلواتهم المفروضة كل يوم وليلة بسورٍ من القرآن وآياته، كما أنهم يقيمون الصلاة ويأتون في كل هيئة من هيئاتها بألفاظ عربية من آذان، وإقامة، وتكبير، وتسميع، وتهليل، وتشهُّد، لا تتبدل تلك الألفاظ بسواها[٤].

لهذا، لا يكاد إنسان يعتنق الإسلام حتى يُسرِع إلى تعلُّم هذه الكلمات العربية ثم إلى تعلُّم القرآن؛ ولذلك يقوم بعضهم بدرسة علوم وقواعد اللغة ليتسنى له فهم القرآن وما إليه. وهكذا، انتشرت اللغة العربية بسهولة، وصارت لغة العلم والأدب والتاريخ في غرب إفريقيا.

وامتد التعليم من شمال إفريقيا إلى غربها، وأُنشئت معاهد عالية في غانة، ومالي، وصنغى وكاشنة، وكنو، وبرنو، وزاريا. وكان أهل غرب إفريقيا، يستقدمون إلى بلادهم العلماء العرب من المغرب، ومن الطوارق الملثمين المجاورين لهم في الصحراء الكبرى كالشناقطة. ويسافر بعضهم لطلب العلم إلى فاس، والقيروان، ومصر وغير ذلك من البلاد العربية.

ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي في القرن الثامن عشر الميلادي، وأسس

(٤) آدم عبد الله الإلوري، نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، لاغوس: دار النور للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ص١٤٣.

الدولة الإسلامية التي تحكم بالشريعة، فقامت بذلك نهضة علمية، فازدهر العلم والأدب، وتشرَّف الطلاب، وعلت ذؤابة العلماء؛ لأنهم أهل الحل والعقد في شؤون الدولة، فنجب مئات من الفقهاء، والعلماء، والأدباء، فظلوا كذلك حتى احتل الإنجليز والفرنسيون هذه البلاد. وفي ذلك العهد يقول عبد الله بن فودي شقيق الشيخ عثمان بن فودي في ازدهار العلم وثقافته:

ومدارس أضنى بحب شهودها
فيها نجاح حوائج المتحوجِ[1]
وجحاجح علماء يحلب رفدهم
كلٌّ كبحر في العطا متموجِ
ولهم ككان ومبتدأ في جارهم
عمل لغيرهم كلم أو في يجِ

تعليم اللغة العربية لغير العرب:

اللغة العربية لغة راقية ذات ثقافة عالية، تتكلم بها أمة عظيمة في إفريقيا، وآسيا لا يقلُّ عددها عن مائة مليون، وبذلك، صارت العربية لغة العلم والأدب والتاريخ والتأليف في إفريقيا بشكل عام، وفي غرب إفريقيا بشكل خاص.

وقد اهتم المسلمون العجم بالعربية حتى كادوا يفوقون العرب في إتقانهم لها أو في المحافظة عليها، بل ظلت الثقافة العربية تراث كل مسلم، وحقه الشرعي لا فرق بينه وبين العرب الصميم. وهكذا اشتهر أعلام من العجم، يرجع إليهم الفضل في حفظ العلوم والفنون.

أما اليوم، فقد تغيرت الأوضاع والبيئات في كل جزء من أجزاء العالم، واحتلت اللغات الأوروبية المحل الأول، ولم تعدِ العربية لغة العلم والأدب والتاريخ في العالم الإسلامي بل انحصرت في مجال الدين؛ حيث صار الذين يتعلمونها إنما يتعلمون بدافع الغيرة الإسلامية، ونشرها بين أهاليهم.

من أجل هذا يجب أن نفرق بين أبناء العرب الذين يتعلمون العربية في بلادهم لتحمُّل الوظائف الرسمية هناك، وبين أبناء العجم الذين لهم لغتهم الأصلية لتحمُّل المسؤولية الدينية في بلادهم التي لا تزال تحكمها دول غير عربية ولا إسلامية، فإنها غالباً ما تكون معارضة لتعليم العربية الإسلامية.

(١) عبد الله بن فودي، تزيين الورقات، الناشر مكتبة (أبو) بكر أيوب بمدينة كنو، نيجيريا.

مشكلة التعليم العربي في غرب إفريقيا:

إن المشكلات التي تجابه العالم الإسلامي في التعليم تختلف بوجه خاص عن المشكلات التي تواجه العالم العربي؛ فالعالم الإسلامي في غرب إفريقيا يعاني مشكلة تعدد اللغات: من اللغة الأم، ولغة الحكومة، ولغة الديانة، كما في نيجيريا – مثلاً – فقد كان لها أكثر من مائتي لغة، وقد اعترفت الحكومة بثلاث منها، وهي: الهوساوية واليرباوية والإيبوية، وتسعى الحكومة لفرض إحدى هذه اللغات الثلاث في المدارس إلى جانب اللغة الرسمية التي هي الإنكليزية.

أما المسلمون منهم فيسعون إلى فرض تعلُّم اللغة العربية أو الإسلامية عليهم؛ فإن الدواعي إلى تعلُّم العربية أحد أربعة:

الصنف الأول: هم قوم يتعلمونها كلغة أبيهم وأمهم، أو كلغة رسمية لحكومة بلادهم، وأولئك هم العرب الأقحاح الذين يعيشون في ظل دولة عربية محضة.

الصنف الثاني: قوم يتعلمونها لإشباع رغبتهم فيها؛ لأنها لغة حية ذات ثقافة خالدة عريقة في التاريخ، يتكلم بها جيل كبير من الناس يبلغون على الأقل مائة مليون نسمة في آسيا وإفريقيا،

ومعرفة هذه اللغة – حسب رأيهم – نافعة ومفيدة في المجتمع الدولي. وهذا هو أسلوب المستشرقين والسياسيين الذين لا ينظرون إلى اللغات من زاوية الأديان، بل من زاوية أخرى.

الصنف الثالث: قوم يتعلمونها ليكونوا على بصيرة من مبادئ دين الإسلام، كمعرفة ما يؤدي به المسلم الصلوات المفروضة: من آذان وإقامة وتشهُّد، وبعض السور القصيرة، أو ما يؤدي به بعضهم مناسك الحج: من تلبية، وأدعية مأثورة لا يمكن أن تُستبدَل بغير العربية، وحكم هذا النوع فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

الصنف الرابع: قوم يتعلمونها للتخصص فيها ليصبحوا مجتهدين، داعين في مسائل الدين الإسلامي.

وهنا تظهر مشكلة العمل الحكومي لمن أتقن اللغة العربية في غرب إفريقيا، وهي: أن الطالب المتخرج من المرحلة الثانوية أو الجامعية يقتحم كل عقبة، ويتحمل كل مشقة للتعمق في الثقافة العربية الإسلامية ثم يتخرج وهو كَلٌّ على مولاه، لا يجني شيئاً من وراء المتاعب التي عاناها، والصعوبات التي ذلَّلها، والليالي التي سهرها. وقد قاسى أضعاف ما يقاسيه طالب الإنجليزية أو الفرنسية قبل التخرج، ثم لا يجد ما يضمن المعيشة الضرورية، ولا يرشَّح إلى وظيفة أو مكانة تصبوا إليها الأنفس؛ إذ ليس هناك من الدواوين الحكومية غير وزارة الخارجية، أو وزارة الإعلام، أو قسم شؤون الحجاج، والحكومة في هذه المؤسسات لا تحتاج إلى أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة؛ فهل نطلب من مئات الألوف أن يتعلموا العربية من أجل العمل الحكومي والحالة هذه؟ أليس من العبث أن يسعى أي فرد أو جماعة أو حكومة محلية كانت أم أجنبية في تكثير سواد طلاب العربية بتوزيع المِنح عليهم من داخل البلاد وخارجها؟ فإن توزيع المنح من الدول العربية على الأقطار الإفريقية لا تدوم إلى الأبد؛ وإلا كان كمن يزرع في أرض قفر لا ينبت فيها الكلأ، ولا يثمر الخير[1].

يجب أن يكون حل مشكلة العمل والوظيفة نابعاً من صميم المجتمع، ومن داخل البلاد بين أبنائها، لا من الخارج؛ لهذا يجب أن نعيد النظر ونسأل: كيف كان يعيش علماء الإسلام في إفريقيا في ماضيها حتى خلقوا لأنفسهم دويلة ضمن دولة، وفرضوا كيانهم على السلاطين والأمراء في كل مكا ن، وهم لا يتقاضون أجوراً شهرية من أية حكومة أو منظمة؟ وهو شر ما مُنِي به علماء الإسلام اليوم أن يمدوا أيديهم إلى دولة أو منظمة آخر كل شهر ليجدوا ما يسدون به حاجتهم اليومية.

ولذلك قُطعَت ألسنتهم، وخفت صوت الحق، وجاهر أهل الباطل ببطلانهم. فالعلماء الأحرار الذين يقولون الحق، ولا يخشون لومة لائم، إنما كانوا يجدون مكاسبهم من عَرَق جبينهم أو يجمعون ما قدر الله لهم من تقاليد مجتمعهم بوجه شريف.

لو أننا بحثنا ذلك الأسلوب، وأدخلنا عليه التطوير والتحسين، لانحلَّت المشكلة في غرب إفريقيا عامة. وفي نيجيريا خاصة. إن الوظائف الحكومية التي كبرت اليوم، وبنيت لها عمارات ضخمة، كانت نابعة من صميم المجتمع، وقد كانت تافهة سافلة بادئ أمرها، ثم تطورت وتحسنت حتى ارتقت إلى صورتها الحاضرة.

(١) آدم عبد الله الإلوري، نظام التعليم العربي، المرجع السابق، ص١٥٠ – ١٥١.

طريقة معيشة علماء غرب إفريقيا:

إذا استثنينا أفراداً قليلين في بلاد هوسا[2] التي تنصِّب القضاة الشرعيين بموجب الحكومة المحلية التي هي من آثار الحكومة الإسلامية المندرسة، فإن الأغلبية الساحقة من العلماء والأئمة في غرب إفريقيا، لا يتقاضون أجوراً آخر كل شهر من جهة رسمية أو غير رسمية؛ وإنما كانوا يعتمدون على أنفسهم، ويأكلون من عرق جبينهم، ومما عملت أيديهم من زراعة أوصناعة أو خياطة أو تجارة.

ثم ظهرت لهم من صميم عملهم ومجتمعهم طريقة أخرى، وهي طريقة جمع الصدقات والهدايا، ويجمعون ذلك في الحفلات الإسلامية، أوَّلها حفلة تسمية المولود يوم سابعه، ثم حفلة النكاح ثم حفلة الشكر ونحو ذلك من الحفلات المستحدثة عندهم.

تلك هي طريقة معيشة علمائنا في غرب إفريقيا، وهي أقرب إلى الحرية منها إلى طريقة الخضوع تحت رحمة الأجور الشهرية التي تستلزم تكميم أفواههم، وقطع ألسنتهم عن النصح والإرشاد بحرية كاملة[3].

(٢) هم قوم في شمال نيجيريا، أكثرهم مسلمين.

(٣) آدم عبد الله الإلوري، نظام التعليم العربي، المرجع السابق، ص١٥٤ – ١٥٥.

جديد

مجلة البيان

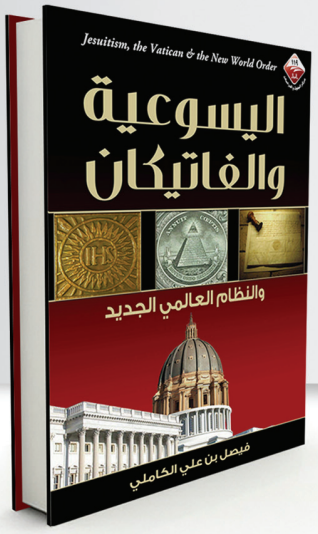

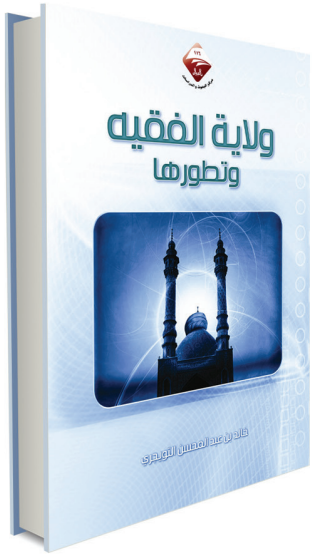

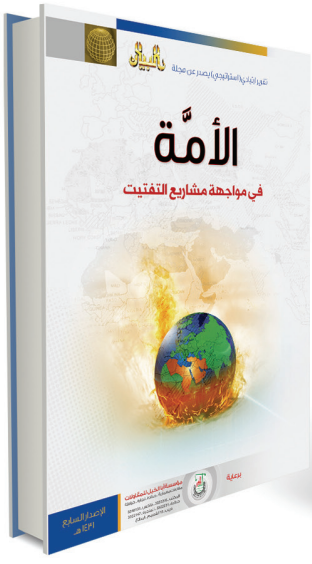

تحت إشراف / د. محمد بن عبد الله الدويش

مرصد الأخبار

الغرب واللعب بورقة الأصولية الإسلامية

في دراسةٍ تعاونية قام بها باحثون من المركز الإبداعي التجريبي بالهند بالتعاون مع المؤسسة البحثية الروسية «أوبزيرفر ريسيرتش فونديشن» خَلُص فيها الباحثون إلى أن الولايات المتحدة ورثت عن بريطانيا وفرنسا أسلوب استثمار الدين في الوصول إلى غاياتها الاستعمارية.

وسلطت الدراسة الضوء على احتراف الغرب ممثلاً ببريطانيا وأمريكا اللعب بورقة الإسلاميين؛ حيث كان لبريطانيا السبق في ذلك عندما قسمت شبه القارة الهندية على أسس دينية وعرقية أدت إلى تعزيز النزعة الانفصالية لدى شعوب المنطقة.

ومن جهة أخرى ذكر مدير مركز العلاقات الدولية سيرجي كونجينيان أن الولايات المتحدة تعلَّمت أصول اللعبة؛ عندما شجعت المجاهدين الأفغان على مقاومة الغزو الروسي، ثم محاولتهم لإعادة السيناريو الأفغاني في الشيشان بُعيد انهيار الاتحاد السوفييتي.

ومن الجدير بالذكر أن فريق الباحثين يعتزم مواصلة المزيد من البحوث والدراسات الإسلامية، وغيرها من القضايا ذات الاهتمام المشترك.

[جريدة المصريون: مترجم عن موقع هندي رسمي ٢٠١٠/١٠/٢م]

جلال سعد الشايب
galal_elshayp@hotmail.com

المساعدات مقابل وضع الأعلام

كشفت صحيفة ديلي تلغراف البريطانية عن محاولة استغلال الإدارة الأمريكية للمساعدات التي تقدِّمها لمنظمات الإغاثة العاملة في باكستان؛ في الترويج لبرامج سياسية مختلفة.

فقد ذكرت الصحيفة أن ثمة اتصالات مكثفة تجريها منظمات الإغاثة العاملة في باكستان مع واشنطن لتشيها عن طبع العلم الأميركي على مواد الإغاثة المرسلة من الولايات المتحدة إلى باكستان التي ضربتها فيضانات مدمرة.

كما أكدت على أن ١١ منظمة إغاثة عاملة بأفغانستان وباكستان؛ قد خاطبت المسؤولين الأميركيين بواشنطن قائلة: «إن التعليمات القاضية بوضع صورة العلم الأميركي على مواد الإغاثة تعرض حياديتها للخطر في بلد تعمه المشاعر المعادية للأميركيين».

وكانت الإدارة الأميركية قد ذكَّرت الشهر الماضي منظمات الإغاثة التي تستخدم تمويلاً أميركياً بالتزاماتها تجاه الولايات المتحدة، وجاء ذلك بعد زيارة المبعوث الأميركي لباكستان ريتشارد هولبروك لمعسكرات الإغاثة بباكستان الشهر الماضي وامتعاضه من عدم حصول أميركا على العرفان الذي تستحقه.

[صحيفة «ديلي تلغراف» البريطانية، الجزيرة ٢٠١٠/١٠/١٢م]

الجوع ومعدلاته المميتة

أوضح تقرير المؤشر العالمي للجوع الذي يصدره معهد دراسات إستراتيجيات الغذاء العالمي أن عوامل الفقر والنزاعات والاضطراب السياسي أدت إلى معاناة نحو مليار شخص من الجوع معظمهم أطفال في إفريقيا وآسيا.

ومن بين هذه الدول التي شملها التقرير أربع دول إفريقية وُصِف الوضع فيها بأنه «أكثر إثارة للقلق»، معتبراً جمهورية الكونغو الديمقراطية هي الأسوأ على الإطلاق؛ حيث إن حوالي ثلاثة أرباع سكان الكونجو لا يحصلون على غذاء كافٍ، كما تعاني البلاد من واحد من أعلى معدلات وفيات الأطفال في العالم.

وقد استخدمت ثلاثة عوامل لقياس المؤشر العالمي للجوع، هي: نسبة السكان الذين يعانون من سوء التغذية، وعدد الأطفال الذين تقل أوزانهم عن المعدل، ونسبة وفيات الأطفال.

والدول الثلاثة الأخرى التي صُنِّفت الأوضاع فيها على أنها «أكثر إثارة للقلق» هي: بوروندي وإرتريا وتشاد، وتعاني جميعها من الصراعات المستمرة والتوتر منذ عدة سنوات.

وما عدا هاييتي فإن كل الدول الـ ٢٥ التي صنِّفت على أن الأوضاع فيها «مقلقة» تقع في آسيا أو إفريقيا جنوب الصحراء. [البي بي سي: ٢٠١٠/١٠/١١م]

القنوات الإسلامية... خطر على المجتمع!

في أسبوعين تقريباً من شهر أكتوبر جرى إيقاف معظم القنوات الإسلامية السلفية وغيرها؛ التي كان من أشهرها الناس والرحمة والحافظ وصفا ووصال والبدر وغيرهم، وذلك في خطوات تدريجية.

والبداية كانت مع شركة البراهين العالمية التي أُغلق لها أربع قنوات هي: الناس والخليجية والحافظ والصحة والجمال، ثم جاء الدور على صفا ووصال، وصولاً إلى الرحمة والحكمة، وقنوات أخرى، ومن سَلِم من الإغلاق تعرض للإنذار، في خطوة سابقة للإيقاف.

وإن كان من العجيب إغلاق مثل هذه القنوات التي تعرِّف بالإسلام وتدعو إلى مبادئه؛ إلا أنه يبقى الأكثر عجباً؛ وهي الأسباب التي سيقت من بعض مسؤولي الدولة المصرية حول الإيقاف، متمثلة في أن ذلك «جاء في إطار سلسلة من الإجراءات لتنقية الفضاء العربي من دعاوى الفتنة والجهل والتطرف والانحراف».

كما أن هذه «الإجراءات التصويبية التي اتخذتها شركة نايل سات تجاه القنوات المتطرفة هي إجراءات تستهدف في مجملها الحفاظ على قيم المجتمع المصري والعربي».

وصرح آخر بأن: «هذه القنوات لا تهدم أفراداً؛ ولكنها تهدم المجتمع نفسه؛ وذلك يرجع إلى أنها تحض على كراهية الآخر ومن ثمَّ تصنع الفتنة الطائفية وتصدِّرها للمجتمع»، «وأنها تهديد للوحدة الوطنية، وتأجيج للفتنة ونشر «التشدد الديني» المتعصب، وهو ما يساعد في خلق ركائز الفكر الإرهابي»، وأعرب آخر عن أن إغلاقها جاء في إطار حملة لتنظيف القمر الصناعي من الخرافات والأحلام والكسب غير المشروع، وعدد من الاتهامات الأخرى لهذه القنوات.

ومن العجيب أيضاً أن فيروس الإيقاف أو حتى المنع أو التحذير لم يصب القنوات الغنائية ولا الراقصة ولا الفيديو كليب ولا التبشيرية النصرانية ولا القنوات الشيعية؛ إلا بضع قنوات على الهامش. [بتصرف من مواقع مختلفة وبتواريخ مختلفة]

الغباء الجديد .. صناعي ورقمي

مع بدايات عصر الكمبيوتر كان الحديث عن الذكاء الصناعي، متخيلين نظماً متكاملة تقدِّم لنا حلولاً عملية وتطبيقية لمشكلات الإنتاج والإدارة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة، وفي عصر الذكاء الرقمي تحول الخيال إلى واقع، وتحول معه الحلم إلى كابوس.

فالآن ومع أغرب تناقض عرفته الحضارة الإنسانية،وهو: أن نملك مثل هذه الترسانة الرقمية من المحمول، والـ «لاب توب»، والـ «آي فون»، والـ «بلاك بيري»، وقارئ الكتب الإلكتروني، «كندل» أو «سوني» أو «نوك»، أو «بايبروس»، وكلها مكتبات إلكترونية تخزِّن الآلاف من الكتب التي ينوي الفرد قراءتها، ولكنه لا يقرأ منها شيئاً.

التناقض المؤلم هو أن هذه الرقميات وضعت كل معارف ونظريات واختراعات العالم بين أيدينا، ثم حرمتنا من مجرد الالتفات إليها. فنحن نستطيع الحصول على أي كتاب في ثوانٍ وبأي لغة، بل وترجمة أي نص في دقائق معدودة، لكن؛ «المسجات» و «التويترات» و «الإيميلات» و «الرنات»، تحرمنا من الاستفادة الفعلية من هذه المعرفة؛ لأنها تصيب الإنسان بتشتيت الذهن وإنهاك البدن، ولن يجد دقيقة واحدة أو فرصة سانحة لكي يلتقط أنفاسه، ويبدأ بالقراءة.

إذ إننا تحولنا إلى مخلوقات رقمية وسطحية، نملك أسرع وأعظم تدفُّق لسيول المعلومات في التاريخ، لكن تواترها، وتوتُّرنا وتشتُّت أذهاننا يمنعنا من تحويل المعلومة إلى معرفة، ناهيك عن تحويل المعرفة إلى حكمة.

[بتصرف من مجلة علاقات، العدد ٤٦: ١٠/٢٠١٠م]

اقترضت الشركات في أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا نحو ٥٧٤ مليار دولار في شكل قروض مجمَّعة في الشهور التسعة الأولى من عام ٢٠١٠م بارتفاع ١٦٪ على أساس سنوي، وبلغ الإقراض في الربع الثالث من العام نفسه ٢١٢ مليار دولار من بينها ٤٥ مليار دولار؛ أي: ٢١٪ في صورة قرض أخذته «بي. أتش. بي بيليتون» لدعم عرضها للاستحواذ على بوتاش كورب.

هذا مع صفقات قروض مجمَّعة تبلغ ٦٠ مليار دولار يجري التفاوض بشأنها، لكنها لم توقع بَعْدُ؛ إذ السوق على المسار لتجاوز القيمة الإجمالية لقروض العام الماضي التي بلغت ٦٥٠ مليار دولار، وهو ما كان أدنى مستوى منذ عام ٢٠٠٣م، ومع ذلك تواجه أوروبا شتاءً بائساً بسبب البطالة المتزايدة، وتخفيضات في الخدمات، وغضباً من المكافآت السخية لكبار المصرفيين الذين يُلقَى عليهم باللائمة في الأزمة الاقتصادية.

[صحيفة العرب القطرية: ٢/١٠/٢٠١٠م]

أشار حسان بن نعمان؛ صاحب دار الأمة للنشر بالجزائر إلى أن ٣٥ مليون جزائري ليس لديهم سوى ٢٠٠ مكتبة في الجزائر كلها، متسائلاً: «كيف نتحدث عن المقروئية ولا توجد وسيلة القراءة، وهي الكتاب؟».

كما أكد محمد مولودي (صاحب دار الوعي للنشر) على أن الناشرين يقدمون قائمة عناوين يرونها جيدة للنشر، وتختار وزارة الثقافة القائمة النهائية في حدود ١٠٠٠ عنوان سنوياً، يطبعها الناشرون ثم تشتريها الوزارة منهم وتوزعها مجاناً على مكتبات بلديات الجزائر البالغ عددها ١٥٤٢ بلدية.

مؤكداً على قول حسان بن نعمان على أن عدد الناشرين في الجزائر يبلغ ٢٠٠ ناشر، حصة الواحد منهم من دعم الوزارة خمسة عناوين، في إطار دعم الدولة للكتاب وتشجيع الثقافة.

[موقع الجزيرة: ٤/١٠/٢٠١٠م]

جرى رصد أكثر من ٢٥٠ ألف حالة اشتباه بالملاريا – بحسب منظمة الصحة العالمية – بما في ذلك بعض السلالات القاتلة والمعروفة بالملاريا المنجلية. كما سجلت الأمم المتحدة ٨٨١ ألف حالة إسهال و٨٤٠ ألف حالة مرض جلدي ونحو مليون حالة من اضطرابات التنفس، وتمثل الحوامل قلقاً خاصاً؛ حيث ستضع نحو ٥٠ ألف امرأة تأثرت بالفيضان حملها في الشهر القادم، وهناك ٧٥٠٠ سيحتجن إلى جراحة بسبب مضاعفات متعلقة بالحمل.

[مواقع مختلفة]

أكدت وزارة التربية العراقية أنها لا تمتلك إحصاءات دقيقة عن نسبة الأمية في البلاد، لكنها توقعت أن تكون مقاربة للنسبة التي أعلنتها منظمات تعمل تحت إشراف وكالات تابعة للأمم المتحدة التي قالت: إن خُمُس العراقيين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٠ و ٤٩ سنة لا يعرفون القراءة والكتابة.

كما أوضح التقرير الأممي أن معدل الأمية بين العراقيات يبلغ ٢٤٪، و ١١٪ بين الرجال، في حين تبلغ النسبة في المناطق الريفية ٢٥٪ بينما لا تتعدى ١٤٪ في مناطق الحضر.

ويؤكد التقرير وجود اختلاف في معدلات الأمية بين المحافظات، إذ سجلت ديالى وبغداد (وسط) وكركوك (شمال) أدناها، في حين سجلت دهوك والسليمانية في إقليم كردستان، والمثنى وميسان والقادسية أعلاها. موضحاً أن «١٩٪ من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين (١٠ – ١٤) لا يذهبون حالياً إلى المدرسة».

[موقع كُتَّاب العراق: ١٤/٩/٢٠١٠م]

اجتذبت الصين استثمارات أجنبية مباشرة بلغت ٧٤,٣ مليار دولار في الأشهر التسعة الأولى من العام الحالي بزيادة ١٦,٦٪ عن الفترة نفسها من عام ٢٠٠٩م، وَفْقَاً لوزارة التجارة الصينية.

وفي شهر سبتمبر وحده استقطبت الصين ٨,٤ مليار دولار من الاستثمارات الأجنبية المباشرة، مرتفعة ٦,١ ٪ عن الشهر نفسه من عام ٢٠٠٩م.

وتشهد تدفقات الاستثمارات الأجنبية إلى الصين انتعاشاً بعد أن تضررت بشدة من التباطؤ الاقتصادي العالمي، وكانت سجَّلت ارتفاعاً حاداً في أعقاب انضمام العملاق الآسيوي إلى منظمة التجارة العالمية في عام ٢٠٠١م.

[موقع العربية: ١٦/١٠/٢٠١٠م]

صرح الدكتور محمد البنا نقيب أطباء الإسكندرية بالنيابة؛ بأن نسبة الأطباء بين المدخنين وصلت إلى ٢٢ ٪ وهو ما يضر برسالة المهنة لمحاصرة وباء التدخين، كم أشار البنا إلى أن النسبة ترتفع بين المهن الأخرى لتصل بين المدرسين إلى ٥٨ ٪ مؤكداً على أن المصريين ينفقون ٢٦ مليون جنيه شهرياً على شراء السجائر دون أن يدخل في ذلك ميزانية المخدرات، مؤكداً على أن هناك ما يشبه حرباً على الدول النامية ومن بينها مصر من قبل شركات التبغ التي تنفق – على حد قوله – ٦ مليارات دولار سنوياً على الدعاية .

[موقع المصريون: ١٧/١٠/٢٠١٠م]

هل ماتت أمريكا بالفعل، وما علامات الاحتضار؟

نعم أمريكا ماتت وننتظر تشييعها، بهذه الجملة رد الأستاذ عامر عبد المنعم على القيادة الأمريكية، مستعيناً بما يقرب من ٢٢ دليل على الانهيار الوشيك للولايات المتحدة الأمريكية، من أهما:

- ارتفاع العجز في الميزانية الأمريكية إلى مستويات غير مسبوقة. قال مكتب الميزانية بالكونغرس: إن عجز الميزانية الأمريكية بلغ ١,٣٤٢ تريليون دولار في عام ٢٠١٠م وتوقع المكتب أيضاً عجزاً قدره ١,٠٦٦ تريليون دولار للسنة المالية عام ٢٠١١م

- ارتفاع العجز في الميزان التجاري بسبب زيادة الاستيراد من الخارج وتراجع الصادرات الأمريكية. ووَفْقاً لوزارة التجارة الأمريكية فقد واصل العجز ارتفاعه في عام ٢٠٠٩م؛ حيث بلغ ٣٧٥ مليار دولار؛ ولم يتراجع العجز هذا العام وإنما واصل الارتفاع ليصل إلى ٣٣٤,٩ مليار دولار خلال الشهور الثمانية الأولى من العام الجاري.

- ارتفاع الديون الأميركية العامة خلال السنوات العشر الماضية من ٥,٦٤٧ تريليون دولار بنسبة ٥٨ ٪ من الناتج المحلي الإجمالي عام ٢٠٠٠م ، إلى أكثر من ١٣ تريليون دولار في عام ٢٠١٠م حسب المعطيات التي نشرتها وزارة الخزانة الأمريكية في يونيو.

- تملك الصين وحدها نحو تريليون دولار من سندات الخزينة ومن أوراق الدين الأمريكية بصفة عامة على نحو يجعلها قادرة على إسقاط الاقتصاد الأمريكي - إن أرادت ذلك - بالتخلص من هذه السندات في أي لحظة.

- قدر تقريرٌ للجنة الاقتصادية المشتركة التابعة للكونغرس الأمريكي تكاليف الحربين بين عامي ٢٠٠٢م - ٢٠٠٨م، بما يعادل ١,٦ تريليون دولار وليس كما قدرتها إدارة بوش بأنها تتراوح بين ٥٠ -٦٠ مليار دولار فقط .

- ارتفاع تكلفة الحرب في العراق وأفغانستان إلى (٦,٤) تريليون دولار.

- من واقع سجلات الكونجرس فإن الحرب تكلف الولايات المتحدة شهريا ٨٠ مليار دولار ووصلت كلفة إرسال الجنود إلى المنطقة ٢,٥ مليار دولار.

- مضاعفة ميزانية الدفاع خلال السنوات العشر؛ وهو ما شكَّل ضغطاً على الميزانية العامة للولايات المتحدة.

- أكدت وزارة التجارة الأمريكية تراجُع النمو في الناتج المحلي الإجمالي وتراجُع الطلب على المنتجات الأمريكية -غير الدفاعية - في الأسواق العالمية.

- اهتزاز أسواق الأسهم الأمريكية وفقدان الثقة بها وهروب الاستثمارات الخارجية من البلاد.

- إغلاق عشرات الآلاف من المصانع والشركات الأمريكية وتسريح العاملين فيها.

- إفلاس أكثر من ١٥٠ بنك في أمريكا ولازال أكثر من ٥٠٠ بنك على شفا الإفلاس.

- تراجع الدولار أمام العملات الرئيسة الأخرى، وتدهورت قيمته أمام اليورو واليوان الصيني إلى أقصى حد.

- تخلص المستثمرين من الدولار بشراء الذهب كمخزن للقيمة مما يفقد الدولار قيمته العالمية كمخزن للقيمة.

- في قائمة نيوزويك عن أفضل مائة دولة في العالم تراجعت أمريكا عن موقعها الأول في عام ٢٠٠٠م إلى رقم ١١ هذا العام ٢٠١٠م.

- ارتفعت معدلات الفقر في الولايات المتحدة إلى أعلى مستوى لها في نصف قرن.

- ارتفع عدد سكان الولايات المتحدة المحرومين من التأمين الصحي من ٤٦,٣ مليون في عام ٢٠٠٨م إلى ٥٠,٧ مليون في عام ٢٠٠٩؛ وهو ما يعني ١٦,٧ ٪ من مجموع السكان.

- عشرة ملايين أمريكي يتلقون حالياً التأمين ضد البطالة، وهو ما يقارب أربعة أضعاف عددهم عام ٢٠٠٧م.

- أكثر من واحد وأربعين مليون أمريكي على قائمة كوبونات الطعام.

- تخلفت أكثر من ستة ملايين أسرة أمريكية عن سداد أقساط القروض لمدة ٦٠ يوماً أو أكثر، وَفْقاً لبيانات شهر فبراير عام ٢٠١٠م.

- تتزايد نسبة البطالة في الولايات المتحدة بسبب تراجع معدلات النمو والإقفال المتزايد للمصانع، وانتقال بعض الصناعات إلى دول آسيوية، إلى جانب إغراق أسواق الولايات المتحدة المفتوحة بالبضائع الصينية الرخيصة.

- تراجع التعليم في أمريكا، وذلك باعتراف الرئيس الأمريكي أوباما، خاصة التعليم العالي.

[بتصرف من مقال للأستاذ عامر عبد المنعم - موقع العرب نيوز: ١٩/١٠/٢٠١٠م]

المسلمون في الأرجنتين

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

يبلغ عدد سكان الأرجنتين حوالي ٤٠ مليون نسمة وتوزيع الأديان فيها على النحو التالي:

رومان كاثوليك: ٩٢ ٪ ، يهود ٢ ٪ ، مسلمين ٢ ٪ ، ٦ ٪ عقائد أخرى.

ويعتبر المسلمون في الأرجنتين من أكبر أقليات المسلمين في أمريكا اللاتينية؛ حيث يبلغ عددهم في الأرجنتين قرابة ٧٥٠ ألف مسلم، يعيش خمسهم تقريباً في العاصمة بوينس آيرس، وينتشر البقية في مختلف المناطق، ويوجد في بوينس آيرس المركز الإسلامي الذي أُسِّس عام ١٩٩٢م، ويغلب على نشاطات هذا المركز التعليم الديني ما بين تعليم اللغة العربية، وعقد الندوات، وإلقاء المحاضرات، إضافة إلى إجراء عقود الزواج وَفْقَ الشريعة الإسلامية.

وأول من هاجر من المسلمين إلى الأراضي التي تسمى اليوم بالأرجنتين هم الأندلسيون المتظاهرون بالنصرانية قهراً؛ أو من يسميهم الاسباني بالمورسكيين.

كما شهد القرن العشرون هجرات عربية عديدة للأرجنتين، أبرزها من سوريا ولبنان؛ يقدر عدد الأرجنتينيين ذوي الأصول العربية اليوم بحوالي ٣٥٠٠٠٠٠ نسمة. بالرغم من أن معظمهم من المسيحيين واليهود الشرقيين، إلا أن ربعهم مسلمون.

يعد الرئيس الأرجنتيني السابق كارلوس منعم من المسلمين سابقاً، ولم يعتنق الكاثوليكية إلا عندما أراد الترشح للرئاسة؛ لأن الكاثوليكية شرط أساسي للحكم في الأرجنتين، ومع مرور الأيام وبسبب الاضطهاد المتواصل ضاع الإسلام بين سلالاتهم، ولكن بقي بعضهم يفتخر بأصالته العربية الأندلسية.

كما يوجد أيضاً في العاصمة مقر الجمعية العربية الأرجنتينية الإسلامية التي توفر التعليم لأبناء الجالية في مراحل الروضة والابتدائية حتى الثانوية.

أهم المشاكل والمعوقات:

يعاني المسلمون في الأرجنتين مشاكل عديدة من أهمها: افتقادهم التواصل مع العالم الإسلامي، وتراجع الوعي الديني، وافتقادهم للدعاة المجيدين للغة الإسبانية، واحتياجهم إلى أعداد كبيرة من المصاحف المترجمة للغة نفسها، بالإضافة إلى عدم وجود قناة فضائية إسلامية ناطقة باللغة الإسبانية تتواصل مع مسلمي الأرجنتين.

الوجود الإسلامي في الأرجنتين بدأ من (١٤٠) عاماً؛ إذ بدأت الهجرات إليها من سوريا ولبنان وفلسطين ولكن هذه الهجرة ما لبثت أن انقطعت عن الأرجنتين لمدة طويلة حتى تفوق المسلمون من غير الأصول العربية من باكستان وبنجلاديش والهند حتى وصلت نسبتهم إلى ٥٥ ٪ من أعداد المسلمين هناك يقابلهم وجود عربي بنسبة ٤٥ ٪.

وتعيش أغلب الجالية المسلمة في مدينة «بوينس أيرس» الذين يقدَّر عددهم بحوالي (٢٠٠ ألف مسلم) كما يوجد تجمع كبير في مدينة «روزاريو» و «توكومان» و «بوكوتا» و «قرطبة» و «مندوسا» وغيرها من المدن.

أهم المراكز الإسلامية في الأرجنتين:

- مركز الإحسان الإسلامي. في مدينة سانتا.
- مركز الدراسات الإسلامية في بيونس آيرس.
- المعهد الثقافي الإسلامي في بيونس آيرس.
- الجمعية العربية في لابامبا.
- الجمعية العربية الإسلامية في مندوزا.
- الجمعيه العربيه الإسلامية في كوردوبا.
- النادي الثقافي الإسلامي في روزاريو.
- ويوجد أكثر من ١٥٠ مركز إسلامي في أنحاء الأرجنتين، كما يوجد العديد والكثير من الجامعات والمدارس، ومنها:
- المدرسة العربية الإسلامية في توكمان.
- جامعة فهد في بيونس آيرس.
- جامعة الأرجنتين الإسلامية في غاروبا.
- مدرسة عمر بن الخطاب الأساسية في بيونس آيرس.

في عام ١٩٩٦ بني في الأرجنتين أكبر جامع في أمريكا الجنوبية وهو مركز الملك فهد الثقافي الإسلامي، بمساعدة خادم الحرمين الشريفين، ومساحته ٢٠٠٠٠ م٢. ثم قدم الرئيس الأسبق كارلوس منعم مساحة أكبر قدرها ٣٤٠٠٠ م٢ بعد زيارته للمملكة العربية السعودية في عام ١٩٩٢م. كلف المشروع ٣٠ مليون دولار أمريكي، وشمل مسجداً ومكتبة ومدرستين وحديقة. يقع المركز في منطقة باليرمو ببوينس آيرس. وهناك مساجد أخرى وأغلبها قد بني في عهد الرئيس الأرجنتيني كارلوس منعم مثل مسجد باليرمو في بيونس آيرس.

أكد الأمين العام للمنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية المهندس محمد يوسف هاجر أن تنامي النفوذ الكاثوليكي والصهيوني في المجتمع الأرجنتيني فشل في عرقلة نجاح الجالية المسلمة في الأرجنتين أو اندماجها في المجتمع الذي تعيش فيه؛ لافتاً النظر إلى أن هذا الفشل أجبر الطرفين على فتح نافذة للحوار مع المسلمين.

وقال هاجر في حوار خاص لمجلة (العالمية): مسلمو الأرجنتين يواجهون العديد من التحديات؛ أخطرها المد التنصيري الجارف؛ حيث ينتشر في أراضي البلاد موجات من المنظمات التنصيرية الساعية بقوة لتذويب هوية المسلمين وقيادتهم على الردة، مستغلين غياب الثقافة الإسلامية، والأوضاع الاقتصادية الصعبة.

وقد نجحت هذه المنظمات ذات الإمكانيات المالية الكبيرة في تحقيق نجاحات، مستغلة عدم تمتع أعداد كبيرة من المسلمين بالوعي الديني الكافي، القادر على التصدي لهذا المد المشبوه، الذي يستغل عدم وجود صلات قوية بين مسلمي الأرجنتين والعالم العربي والإسلامي إلا نادراً.

لدرجة أن هذه المنظمات استغلت الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي مرت بها البلاد لتنفيذ مخططها؛ بإغراء أعداد غير محدودة من المسلمين للتنصر، وهو الأمر الذي استنفر همم عدد من الجمعيات الإسلامية في الأرجنتين، لمواجهة هذا المد، وقد نجحنا في الحد من مخاطره، مستغلين تمسك كثير من مسلمي الأرجنتين بدينهم رغم الصعوبات التي واجهتهم.

المصادر:

١ – موقع الفاكت بوك.
٢ – موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.
٣ – موقع الهيئة الخيرية الإسلامية (مجلة العالمية).
٤ – موقع أبناء النيل الأزرق.
٥ – المسلمون في الأرجنتين، مجموعة مؤلفين، موقع النخبة.

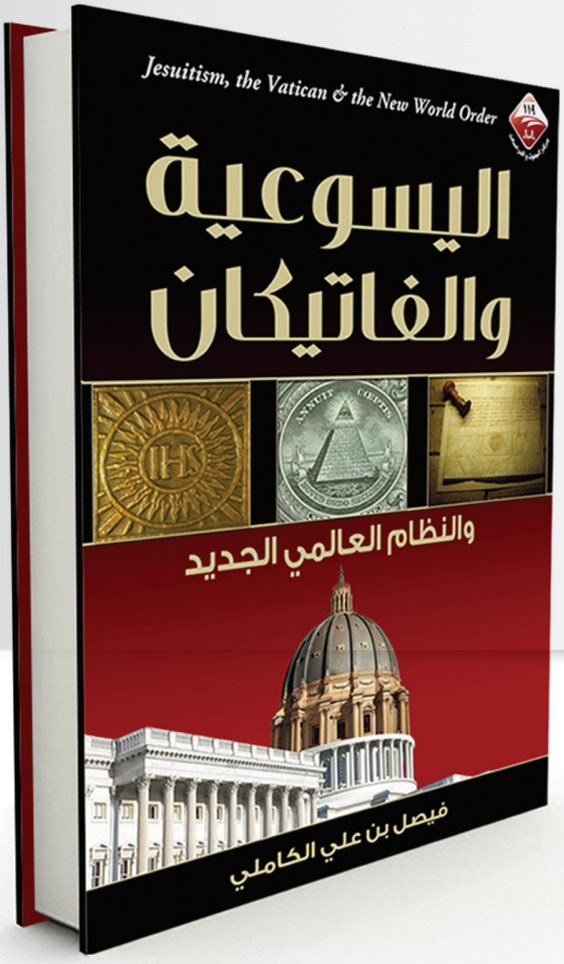

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مهام دمـــوية تنتظـــر قـــائد الجيش الصهيوني الجديد

د.عـــدنـــان أبـــو عـــامـــر(*)
adnanaa74@hotmail.com

فور إعـــلان وزير الحرب الصهيوني «إيهود بـــاراك» اختياره لقائد المنطقة الجنوبيـــة في الجيش «يوآف غالانت» ليكون قائد أركان الجيش القادم، ســـارع كثير من المراقبين بتقديم التحليلات التي تضمنت تحذيرات من مرحلة الجنرال القـــادم، معتبرين إياها من أكثر المراحل دموية في تاريخ الكيان؛ وذلك في ضوء ميـولـــه الهجومية، وتفضيله للعمليات العســـكرية الأكثـــر دموية، وهو ما ظهر واضحاً خلال العمليات العسكرية القاسية التي نفذها ضد قطاع غزة.

وقد أكد المحلل العسكري الأبرز «أليكس فيشمان» أنه منذ سنوات طويلة ارتبط اسم «غالانت» بحروب ومعارك خاضها على عدة جبهات؛ سواء مجتمعة أو منفردة، ما يجعلنا نقول بكل ثقة أنه جنرال الإعداد للحرب المقبلة.

ومـن خـلال متابعـة دقيقـة لأهـم مـا تطرَّقـت إليـه الصحافة الصهيونية خلال الأسـابيع الماضية، يمكن التعرف على طبيعة المهام المنتظَرة أمام «غالانت»، وتتمحور في الآتي:

١ التجهيـــز للحرب المقبلة من خلال إعادة صياغة العقيدة القتالية، بما يتناســـب مع البيئة القتالية التـــي تفرضها طبيعة التهديدات الإســـتراتيجية التي تتعرض لها دولة الكيان في المرحلة الحالية، ومعالجة القصور الذي جرى الكشف عنه خلال الحروب الأخيرة، وأكدته المناورات التي أُجريَت مؤخراً.

٢ إنهـــاء حالة عدم الاســـتقرار في الجيش وهوما سيشـــكل عاملاً حاسماً في قدرته على التوجه للمعركة المقبلة.

٣ صياغة أولويات قائمة التهديدات الإستراتيجية التي سيتعرض لها الكيان، والتجهيز لمواجهتها.

وتشير تقارير كثيرة إلى أن «غالانت» رجل شكاك بطبيعته، وأن لديه قـــدرة على إدارة منظومات كبيرة تحت ظروف الضغط، بينما يشكك كثير من معارضيه في قدراته فـــي مجال قيادة القـــوات البرية، وعدم القدرة على تفعيل مزايا استخدام القوات الجوية.

ويأخذ الكاتب السياســـي «عوفر شـــيلح» على «غالانت» علاقاتـــه الوثيقة مع السياســـيين ورجال الأعمال، وهو ما ينطوي على تميُّز شخصيته بالطابع المدني أكثر منها بالطابع العسكري، كما يمكن أن يمثل مؤشـــراً على احتمالات تورُّطه في «علاقات خاصة» بما لا ينسجم مع المبادئ العسكرية.

درس غزة:

وقد اســـتطاع «غالانت» الاســـتفادة من موقعه كمسؤول عســـكري في مكتب «شارون»؛ فإضافة إلى اطلاعه على كثير من المعلومات الأكثر ســـرية، فقد تعرَّف على التحالفات والصراعات بين السياســـيين والعســـكريين، وتعلم المناورة على الخط الفاصل بين المستوى العسكري والسياسي.

ورأت القناة الثانيـــة في التلفزيون الصهيوني أن الحرب على غزة رفعت أســـهم «غالانت» لدى صنَّاع القرار في الكيان، إلا أن نظرةً متفحصة تدل بسرعة إلى أن اختياره ينســـجم تاريخيـــاً مع النمط المفضَّل

(*) كاتب فلسطيني.

من رؤســـاء الأركان لدى النخبة السياســـية، فـ «غالانت» لديه ميل كبير نحو تفضيل الخيار العســـكري، كضابط وقائد لوحدة النخبة البحرية. كما كشف عن ذلك قيادته للمنطقة الجنوبية في الجيش، وردُّ فعله العنيف ضد قطاع غزة خلال فترة مسؤوليته؛ حيث انطلق وَفْقَ مبدأ «جباية الثمن» الذي أقرَّه ردّاً على عمليات المقاومة انطلاقاً من قطاع غزة.

حزمة المهام:

مصادر مقرَّبة من قيـــادة أركان الجيش الصهيوني تحدثت لصحيفة «يديعوت أحرونوت» عن أن المهمة الأساسية التي تنتظر «غالانت» تتمثل في تجهيز الجيش للحرب المقبلة، والوقوف أمام مواصلة مهام إعادة ترتيب أوضاعه، التي تضررت بصورة كبيرة في ضوء الحروب الأخيرة.

وتـــرى المصادر الصحفية أن هذه المهمـــة تتطلب منه إعادة صياغـــة العقيدة القتاليـــة وقدرة الردع للجيش؛ حيث تشـــكِّل التطورات الإستراتيجية في البيئة المحيطة بدولة الكيان، عاملاً ضاغطاً على رئيـــس الأركان الجديد لإعـــادة صياغة العقيدة القتالية للجيش في ضوء تضـــرر قدرة الردع، وتنوُّع التهديدات الإقليمية.

وقد صرح «غالانت» نفسه في أحاديث خاصة مغلقة بأنه معنيٌّ أكثـــر من أي جنرال صهيوني آخر بتحســـين قدرة الردع للجيش، والتخطيط لحروب أقل تكلفة، وأكثر جدوى، وأقصر زمناً، وأطول نتائج على المدى الإستراتيجي، والعمل على ضمان القدرة القتالية على خوض الحرب على عدة جبهات في وقت واحد.

كما أفادت محافل عسكرية بارزة في تسريبٍ مقصودٍ لموقع «ويللا» الإخبـــاري بقولها: إن «غالانت» ســـيأخذ بعين الاعتبار التغييرات التي طرأت في الســـنوات الأخيرة على جبهات القتال التي بات الجيش مضطـــراً لخوضها، وتركَّزت بصورة كبيرة في نموذج حرب العصابات، وهـــو ما يجعله مطالباً بتطوير قدراته القتالية في هذا الاتجاه.

إلـــى جانب التركيـــز على تعزيز قدرة قـــوات الجيش على الحضور المكثف في مســـرح العمليات، وتعزيـــز القدرة القتالية لدى مقاتليه على تنفيذ «العمليات الجراحية الموضعية» المطلوبة، وهو ما يتطلب تفعيل عمل الوحدات الخاصة والتنسيق العملياتي بين مختلـــف الوحدات والألوية. مع ما يعنيه ذلك من تحســـين ظـــروف المواجهة، من خلال تكثيف وتركيـــز «قوة النيران» على مراكز القيادة والســـيطرة للعدو، وهو الأمر الذي ســـيعزز دور المروحيات في العمليات العسكرية المســـتقبلية، مع عدم إغفال سلاح البر، وتعزيز قدراته على العمليات الهجومية المباغتة وَفْقَ مبدأ «الصدمة والرعب»، الذي سبق أن حقق نجاحاً في العديد من عمليات الجيش.

بنك الأهداف:

مصادر إعلامية صهيونية تحدثت في القناة التلفزيونية الأولى عن مهمة تبدو ضرورية للجنـــرال القادم، وتتمثل في «تحديث» بنك الأهداف، في ضوء الإخفاقات الأمنية والاســـتخبارية التي كشـــفت عنها حربا (لبنان وغزة)، واعتمـــاد الجيش فيهما على معلومات قديمة غير محدَّثة. وهذا الأمر يتطلب تعزيز التنسيق والتعاون مع المؤسســـة الأمنية، وتعزيز مفهوم العمليات الوقائية، التي تركز على المستويات القيادية لدى الجهات المعادية.

وربما يبدو «غالانت» متسرعاً باتجاه وتيرة الانتهاء من مشروع «القبَّة الحديدية» الذي يســـاهم في حماية العمق الصهيوني من أخطار الصواريخ التي باتت تمثل السلاح الأكثر تأثيراً في أيدي قوى المقاومة؛ سواء الصواريخ قصيرة أو متوسطة المدى أو بعيدة المدى.

وهناك مهمة أخرى ســـتواجه «غالانت»، وســـتنعكس عليه، وتتمثل في أن السنة القادمة ستشـــهد انتهاء مهام رئيس جهاز الموســـاد «مائير دغان»، ورئيس جهاز الشاباك «يوفال ديسكن»، ورئيس شعبة «أمان» للاستخبارات العسكرية «عاموس يادلين»، وهناك تخوُّف من أن يؤدي تغيير قادة الأجهزة إلى عدم استقرار في فترة تتعاظم فيها التهديدات على دولة الكيان.

وعلى الرغم من أن «غالانت» سيمتنع عن القيام بأي خطوات تتعارض بصورة جذرية مع الإجراءات التي نفذها سلفه في قيادة الجيش «غابي أشـــكنازي» في إطار خطتـــه التي نفذها لإعادة ترميـــم الجيش بعد حرب لبنان الثانيـــة، وجعلته رئيس الأركان الأكثر قبولاً لدى الجمهور الصهيوني، على الرغم من ذلك إلا أنه من المســـتبعَد أن يتمكن «غالانت» من إعادة الاستقرار إلى قيادة الجيش بســـرعة، في ضوء التحديات التي تفرضها التعقيدات القائمة.

كما ســـيكون «غالانت» مطالباً بتجهيز الجبهـــة الداخلية، والتقليـــل من الأضرار والخســـائر التي قد تلحـــق بالصهاينة، وتوفيـــر قدر أكبـــر من الحماية والرعاية لهـــم من خلال توفير ملاجئ محصنَّة، والتأكد من جاهزيتها الكاملة؛ تخوفا من تحدي المقاومة القادم حتماً.

عباءة الشِّعر(*)

ترجمة الأديب: شمس الدين درمش

في أواخر تشـــرين الثانـــي من عام ١٩٦٠م، وفي أثناء عودتنا من المدينة إلى القرية كنا نسلك طريقاً وعرةً على سفوح جبال طوروس الغربية. لم يكن ذلك سيراً، بل كان تسـلُّقاً. كنا نمشـي نحو قريتنا الواقعة علـى قمة مارجا؛ وأعني بقريتنا: قرية (قـران) التـي ولد فيهـا أولادي وترعرعـوا. لقد كانت القرية الأولى التي عُيِّنتُ فيهـا معلماً، وهي القرية التي غزا الشيب فيها رأسي.

في الطريق إلى القرية غابت الشمس، وبدا الجو بارداً، وأخذ وجه السماء يتلبد وسط أشـجار الصنوبر الخضراء، وبدأ الظلام يتماوج علينا بصمت رهيب.

أكثر الطيور اسـتقرت في أعشاشها على أغصان الأشـجار إلا ما كانت منها متأخـرة فـي عودتها مثلنا، تمـرُّ فوقنا وهي تضرب بأجنحتها مـن غير توقُّف، تسابق الظلام نحو أعماق الغابة الهادئة.

اشـتد البرد، وتعذر علينا الاستمرار في السـير من غير أن نشـعل ناراً نستدفئ بها؛ فتوغلنا داخل الغابة نجمع الأغصان اليابسة لإطعام النار.

كان صوت أحد الطيور: غاق... غاق يتردد بين الأشـجار التي تضاهي المآذن في ارتفاعها فَيُحدِث صـدى مرعباً في الغابة الموحشـة. وبدأ من الجهة الأخرى طائـر آخر يتجـاوب مع صـوت الطائر الأول: غـاق... غاق ويحاكيـه. يا تُرى ماذا يقولان؟ وبم يتحاوران؟ وانتقل صدى صوتيهما إلى أعماق نفسي.

أشـعلنا نـاراً واسـتدفأنا، وما زال الطائـران في حوارهما، وبـدأ العم عليٌّ يحكـي لنـا قصة تماثـل وَضْـعَ هذين الطائرين.

كنـا متحلقين حـول النـار نتبادل الحديث في ما بعنا واشترينا في المدينة. استفاد الظلام من جلوسنا وحديثنا حول النار ففعل ما كان يجب أن يفعله، فوجدنا أنفسنا في أحضانه.

إننـا إذا ذكرنا غابات (مارجا) فعلينا أن نتوقـف قليـلاً؛ فهي غابـات كثيفة، أشجارها ضخمة مرت عليها قرون طويلة، إنها أشجار سـوداء تفرعت من جنباتها الفسـائل وصارت تنافس أمهاتها أشجار الصنوبر والبلوط والسـنديان، وأخرى لا نعرف أسـماءها قد رفعت رؤوسها نحو السماء .

كان باستطاعتنا أن نرى وجوه بعضنا بعضاً بفضل ضياء النار التي أشـعلناها، وكان العم عليٌّ يتربع على العشب الأخضر الوثير وينصت إلينا، إنه رجل مسن يحبه الجميـع ويقدرونه، يميل إلـى الدعابة، ويحب المزاح المختلط بشيء من الجد.

أراد العم عليٌّ أن يقول: يا أسـتاذي! ولكنه غيَّر الكلمة فقال: يا معلم! لماذا تظل واقفاً ولا تجلس؟ أتخاف أن تتأذى فروتك من الجلوس؟

كنـت قد اسـتلمت بِزتـي الجديدة من الخياط فـي ذلك اليـوم، وارتديتها أول مرة كوني معلمـاً جديداً في المرحلة الابتدائيـة، وكانت هي بزتي الأُوَلى أيضاً في ذلك التاريخ، دفعت للخياط خمسـين

(*) عباءة الشعر: هي القصة الفائزة بالجائزة الأولى بمسابقة القصة القصيرة في مديرية التربية والتعليم بإسطانبول في تركيا. للأديب محمد نار، وقد أخذت مجموعته القصصية هذا الاسم.

ليرة بالتمام. كنت سأعيش في هذه البزة الجديدة الأنيقة زهو المعلم وروحه بشكل أفضل.

في هذه الأثناء بدأ المطر يتساقط بهدوء، والنار التي أشعلناها أخذت تخمد، وصارت في نية الانطفاء، ألقينا ما بقي من الأغصان اليابسة فيها وانطلقنا في السير .

بدأ المطر يشتد ويتتابع بغزارة، والبغال التي كانت تحس بثقل أمتعتنا على ظهورها تضايقت من المطر أيضاً.

كانت البغال تسير بنشاط حتى كنا نلاحظ انطلاق شرارات خفيفة من وَقْع حوافرها على الصخور الصلبة، وكأنك تحاول إشعال النار بقداحة.

كان اللحاق بها صعباً؛ إذ امتلأت الطرقات بالمياه، والبروق تلمع متلاحقة من غير توقُّف، وهدير الرعد يصم الآذان، المطر... والبرد، والبرق، والرعد، ملأت قلوبنا رعباً.

لم نكن نرى بعضنا بعضاً إلا من خلال لمعات البرق؛ إذ تمتلئ الآفاق البعيدة بالضوء؛ وكأن الليل ينقلب إلى نهار في لحظات، ثم يحل الظلام الدامس ثانية. ومن خلال ومضات البرق نتتبع آثار السير.

كنا نمشي ونسبح في آن واحد، تغلغل البرد في عظامي، إن طبيعة هذه المنطقة هكذا، والقرويون معتادون على هذه الأجواء ولكني كنت غريباً عنها، بالإضافة إلى أنني أول مرة أواجه مثل هذا الموقف.

الملابس الجديدة التي ارتديتها ابتلَّت وثقلت، فصارت كأنها خارجة من الثلاجة. صرت أفكر بأني لا بد أن أصاب بالمرض. في تلك اللحظة صرخ العم:

يا معلم! تعالَ إلى هنا!

قلت: ماذا تقول يا عم علي؟

لشدة الظلام كنا نتحدث بصوت مرتفع كأننا نتكلم بالهاتف. اقتربت منه قليلاً، فصاح العم ثانية:

يا معلم! اخلع... اخلع فروتك!

في البداية لم أفهم ماذا يقصد بالفروة؛ يا ترى هل يريد المنديل؟ الفروة كانت كلمة غريبة عليَّ! قلت:

يا عم علي ماذا قلت؟ لم أفهم جيداً، أعد عليَّ ما قلت.

قال: يا معلم! قلت: اخلع ملابسك.

قلت: هل أخلع معطفي يا عم عليٌّ؟

عندها قال العم عليٌّ بصوت غاضب:

اخلعها كلها يا معلم!

تحيرت! صحيح كان الظلام مخيماً، ولكن عندما يلمع البرق كانت الرؤية واضحة، فانتظرت قليلاً وفَوْرَ لمع البرق خلعت ملابسي. كان المطر يغسل جسدي العاري كمن يأخذ حماماً بارداً.

مد العم عليٌّ إليَّ شيئاً وقال: البس هذا!

لم يعجبني الشيء الذي ارتديته، كان يحك جسدي، إنه لباس خشن سميك يخدش الجلد، لم أكن أعرف اسمه، ولكنه أدفأني، كان من الداخل جافاً تماماً، وجسمي الذي كان يرتعش من البرد قد سكن.

عرفت بعد مدة أنه يصنع من شعر الماعز الذي يربيه الناس في تلك المنطقة، ويمنع تسرب الماء بتاتاً، يسمونه عباءة الشَّعر.

شعرت بالدفء التام، وصرت أفكر بوضع العم علي. كنت انتظر لمعان البرق، ولمَّا لمع البرق وأضاء كل مكان، ماذا تظنون أني رأيت؟ كان العم عليٌّ يغطي رأسه بخرج وقد ترك سائر جسده هدفاً للمطر، وكان يضع فوق البغل بعض الأشياء، ولعلها كانت ملابسي المبتلة التي نزعتها. سألته باهتمام بالغ:

ماذا تفعل يا عم علي؟

فقال لي مرة أخرى:

أسلِّم فراءك أمانة للبغل!

قلت: يا عم عليٌّ، أنت ستبرد وتمرض هكذا.

قال: يا معلم، اسمعني جيداً! أنا عايشت معركة (جناق قلعة)، سَلِمتُ من القنابل والرصاصات التي أمطرتها علينا سبع دول، والآن تريدني أن أخشى من رحمة الله؟ فَلْيهطل المطر ما شاء.

ولكني أصررت عليه بشدة أن يأخذ عباءته. فانزعج العم عليٌّ جداً وقال:

يا معلم! انظر إليَّ جيداً، أنا نخلت طحيني، وعلقت منخلي على الجدار... عشت حياتي. أما أنت، فالناس بحاجتك، أنت معلم قريتنا، فلو أصابك شيء لهلكنا جميعا؛ ومدرستنا ستغلق، أنا عند ذلك أمرض حقيقة، أنت ولدنا جميعاً، فلا تستكثر على نفسك ما أفعله. لقد بقيت قريتنا سنوات طويلة بلا معلم، عميت عيوننا، وصُمَّت آذاننا. إننا نعرف قيمة المدرسة وأهميتها، ومكانة المعلم ومقدار الحاجة إليه، ثم إن قريتنا بعيدة عن المدينة، ولا يوجد طريق معبَّد إليها، لأجل هذا قلَّ من يرضى المجيء إلى هنا من المعلمين، فنبقى كالأيتام، أنت شاب وضيفنا أيضاً، إذا مرضت أنت ماذا يقول الناس عنا؟

إن حديث العم عليٍّ هذا أسَرَني، وعرفت هناك أهمية وظيفة المعلم في الحياة بشكل أكبر؛ فقد لقنني العم عليٌّ درساً وبرنامجاً في حياتي العملية على أضواء البروق اللامعة في الليل الحالك!

وبعباءة الشَّعر التي ألبسنيها أرادني أن أتذكر دائماً ثقل وظيفة المعلم ودفأها في آن واحد.

المجتمع الأندلسي
في القرنين الرابع والخامس الهجريين
من خلال شهادة المؤرِّخ المعاصر (ابن حَيَّان القرطبي)

أنـــور محـمـود زنـــاتي(*)

عاش ابـــن حَيَّان القرطبي في الفترة ما بـــين (٣٧٧ – ٤٦٩ هـ / ٩٨٧ – ١٠٧٦ م)، وهي فترة عامرة بالأحداث السياســية؛ حيث شهدت ســيطرةَ الدولة العامرية، ثم عصرَ الفتنة، وســقوطَ الخلافة الأُمَوية، وقيــامَ دول الطوائف، وتفاقمَ الخطر النصرانــي، وتعاظمَ دور اليهود، واندلاعَ النزاعات العرقية والطائفية[١]؛ وجميعها أحداث أثَّرت بلا شك في خبرتــه التاريخية وتركت آثاراً واضحة فــي ثنايا أعماله؛ حيث رصــد بدقة مرحلة الفتن والاضطرابات المتتالية في الأندلس فصوَّر الوضــع العام بأن الرعية «عدموا الراعي العَنُوف منذ حِقَب، فنبذوا الســلاح وكلِفوا بالترِّفيح»[٢]، ونافسوا في النَّشَــبِ، وعطَّلوا الجهاد، وقعدوا فــوق الآرائك مقعد الجبابــرة»[٣]، وتولى الأمر «جماعة من الأغمار، كانوا عصابةً يحل بها الفَتاءُ[٤]، ويذهب بها العُجْبُ»[٥].

وكان الوضــع في الأندلس في تلك الفتــرة قد تغير تغيُّراً جذرياً؛ فبعدما كانت الخلافة تجمع بين الســلطتين الزمنيــة والروحية، جاء الحاجب[٦] المنصور ابن أبي عامر (٣٧٠ – ٣٩٢هـ / ٩٨٠ – ١٠٠١ م)[٧]، وأبناؤه من بعــده[٨] فانتزعوا منها الســلطة الزمنية[٩]، وكانت وفاة عبــد الملك (المُظَفَّر)[١٠] بن المنصور العامــري فاتحة لفترة مضطربة مــن تاريخ الأندلس[١١] بدأت بعبد الرحمن (شــنجول)[١٢] الذي «ســاء تصرفه وأنفق الأموال في غير وجهها، ونُسِب إليه أباطيل القول والفعل، واســتعان بالعســكر للتحرر من نفوذ العامة[١٣]، وانتهى الأمر بقتله[١٤]؛ ففتح على الأندلس باباً لم يُسَد إلا بانهيار الدولة كلها، وكان ذلك إيذاناً ببداية نهاية دولة الإسلام في الأندلس.

وكانت تلك الأزمة «جديرة بأن تشحذ العقول الذكية، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذي أوتي منه بلدهم، ومحاولة تكوين مشــروع سياســي اقتصادي اجتماعي»[١٥]، ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قُرْطُبَة من أمثال ابن حَيَّان وابن حَزْم، وابن شُــهَيْد[١٦] ممن حــاول كلٌّ منهم في ميدان علمه تقصِّــي الحقيقة والبحثَ عن علاج لمحنة بلدهم[١٧]؛ ولذا نلمح في كتابات ابن حَيَّان التاريخية

(*) كلية التربية – جامعة عين شمس.

(١) محمود إسماعيل: في دراسة التراث. رؤية للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢٣.

(٢) الترقيح: الكسب والمتاجرة.

(٣) ابن بَسَّام: الذخيرة: (تحقيق البدري): ٣/ ٥٥٤ – ٥٥٥.

(٤) الفتاء: حداثة السن.

(٥) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري): ١/ ٢٩.

(٦) الحاجب: في أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأُمَوية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه، ثم أخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع الوزراء شأناً، وصار يسمى بذي الوزارتين، وصار يشرف على الشؤون المدنية والعسكرية، راجع: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥١.

(٧) هو: محمد بن أبي عامر الحاجب، طلب العلم والأدب في قُرْطُبَة، وسمع الحديث، تعلق بوكالة صبح أم الخليفة هشام المؤيد وزاد أمره في الترقي وتغلب على الأندلس، توفي سنة ٣٩٣ هـ، للمزيد راجع، الحُمَيْدي: جذوة المقتبس، ترجمة رقم ١٢١.

(٨) للمزيد راجع: ابن الأَبَّار: الحُلة السِّيَراء، ج١، تحقيق، حسين مؤنس، ج١، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٢٦٨ – ٢٧٧ .

(٩) أحمد مختار العَبَّادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. مؤسسة شباب الجامعة، ص ٨٧.

(١٠) توفي سنة ٣٩٩هـ – ١٠٠٨م، انظر ابن عذاري: البيان المغرب: ٣/ ٣٧.

(١١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٢، الهيئة المصرية للكتاب، ص ٦٢٢.

(١٢) يعرف في المراجع العربية باسم شجنول Sanchuelo سانشويلو، وهو تصغير للفظ سانشو؛ وهو اسم جده لأمه؛ أي: سانشو الصغير.

(١٣) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، مكتبة مدبولي، ط ٣، ١٩٨٨م، ص ٥٣٦.

(١٤) قُتل سنة ٣٩٩ هـ – ١٠٠٨م.

(١٥) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، مرجع سابق، ص ١٦.

(١٦) راجع ترجمته في جذوة المقتبس: ص ١٣٣ – ١٣٦، ترجمة رقم ٢٣٢.

(١٧) في تناول تلك الرؤية استفاض الدكتور محمود مكي في مقدمة نشرته للمقتبس.

شـــيوعَ روح النقد لديه؛ فنراه يعبِّر عـــن رأيه بوضوح؛ ففي أيام دولة الخليفة «ســـليمان المســـتعين»[1]، وبداية «الفتنة البربرية» يذكر أنها كانت: «شداداً نَكِدات صعاباً مَشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المُنْتَهَى والخاتمة...»[2].

ويشير ابن حَيَّان في نصوصه إلى النهب الذي حدث بقُرْطُبَة، واجتياح التدمير بلا حساب أحياء قُرْطُبَة؛ وهو ما كان له أبلغ الأثر في تكوين فكره السياســـي، وانعكس ذلك في كتاباته التي اتسمت بالحدة والحزن؛ فقد كان يعتقد أن الأندلس ينبغي أن تحتل مكان الصدارة في العالم الإسلامي، وتُشيعَ هذه الروح في كل كتاباته[3].

وقد زاد من اضطراب الأوضاع في الأندلس - لا ســـيما قُرْطُبَة - اقتحام البربر[4] لها[5]، ونشر الدمار بها، ودفعت قُرْطُبَة ثمن مقاومتها أنهاراً مـــن الدماء، وقُتِل كثير من أهلهـــا[6]، ودخلت البلاد بعدها في سلســـلة من الأحداث[7] واضطربت الأوضاع، واستمرت النزاعات التي شارك فيها البربر والصقالبة[8] وأهل قُرْطُبَة أنفسهم، وهو ما جعل ابن حَيَّان يكن للبربر كراهية شديدة تشـــيع على ظاهر صفحات تاريخه؛ فهو يندد بقســـوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية، ورغبتهم في نقض بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة يتهيأ لهم فيها ذلك[9] وقد تتبع ابن حَيَّان تلك الأحداث في تفصيل دقيق.

وانتهـــت هذه المرحلة في ســـنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م، حين أجمع أهل قُرْطُبَة برئاســـة الوزير أبي الحَزْم بن جَهْوَر على رد الأمر إلى بني أُمَيَّة[10]، واتفقوا على مبايعة هشـــام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر[11]، وتلقب بالمستظهر[12]. وبعد ذلك خرج عليه، محمد بن عبد الملك (المُسْتَكْفي) سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م، ويذكر ابن حَيَّان عن الخليفة المستكفي قوله: «ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في وِرْدٍ ولا صَدَر، وإنما أرسله الله - تعالى - على أهل قُرْطُبَة محنة وبلية»[13]، وهذا إن دل على شـــيء فإنما يدل على متابعة ابن

(١) للمزيد عن شخصية سليمان المستعين، راجع: ابن بَسَّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ج١، تحقيق سالم مصطفى البدري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م، ص ٢٢، نقلاً عن ابن حَيَّان، وابن الأَبَّار: الحُلة السِّيَراء: ٢/ ٥.

(٢) ابن بَسَّام: الذخيرة، تحقيق البدري: ١/ ٢١.

(٣) محمود مكي: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الثاني، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣م، ص ١١١ - ١١٢.

(٤) يقصد بالبربر الجماعات التي أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الأفريقي من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، راجع: الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٧٥.

(٥) في ٢٦ شوال ٤٠٣هـ / ٩ مايو ١٠١٣م.

(٦) فقد قُتِل سعيد بن منذر، خطيب المسجد الجامع منذ أيام الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م)، وقُتِل ابن الفَرَضِي صاحب تاريخ علماء الأندلس، راجع الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم، ط ٤، دار المعارف ١٩٩٣م، ص ١٠٣. و:Joseph Mccabe: The Splendour of Moorish Spain London. 1953. P. 121

(٧) حيث توالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود، هم: الناصر والقاسم والمعتلي، وثلاثة من بني أمية، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي.

(٨) كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطنية وبلاد البلغار ثم اكتسب اللفظ مدلولاً خاصاً في إسبانيا الإسلامية فصار يطلق أولاً على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويباعون للمسلمين في شبه الجزيرة. للمزيد راجع: ياقوت: معجم البلدان، مادة (صقالبة)، المقَّري: نفح الطيب: ١/ ٨٨ - ٩٢ و ٢/ ٥٧، وتكملة الصلة لابن الأَبَّار طبعة كوديرا رقم ٨٩.

(٩) محمود مكي: مقدمة، الشطر الثاني، ص ١١٤.

(١٠) عبادة كحيلة: القطوف الدواني في التاريخ الإسباني، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٠٩.

(١١) في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ.

(١٢) الحُمَيدي: جذوة المقتبس، ص ٢٧، والضَّبي: بغية، ص ٣٤، والمراكشي: المعجب، ص ٥٧.

(١٣) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري): ١/ ٢٧١.

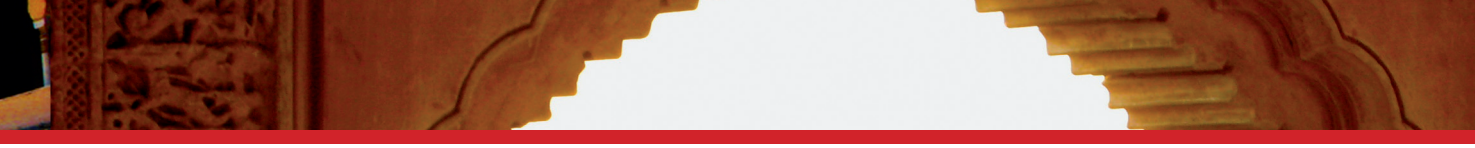

حَيَّان للأحداث ورصدها بصورة شبه يومية وبطريقة ناقدة.

ونتيجة لتلك الأحداث تقلصت بالضرورة قوة السُّلطة في الداخل[1]، وهو ما انعكس أيضاً على فكر ابن حَيَّان؛ فحاول مثل غيره من المؤرخين النابهين من أمثال ابن حَزْم أن يعمل على تحقيق وحدة الأندلس وتقوية سلطة الخلافة من جديد[2]؛ فنراه يعتدُّ «بالجماعة» أو وحدة الأندلس؛ ولذا كان يستخدم كلمة الجماعة مراراً وتكراراً فيقول: «سلطان الجماعة» و «إمام الجماعة» و «أمير الجماعة»[3].

وبينما كان البناء السياسي للأندلس يتصدع شيئاً فشيئاً أثناء فترة الصراع على الخلافة بين من ادَّعاها من أفراد البيت الأُمَوي ومن أعقبوهم من بني حَمُّود[4]، انهار البناء السياسي جملة، وضاعت الوحدة، وتفرق أمر الجماعة[5]، وفي تلك الأثناء اجتمع شيوخ قُرْطُبَة والوزراء برئاسة أبي الحزم بن جَهْوَر واتفقوا على خلع المُعْتَدِّ بالله (آخر خلفاء بني أمية) وإبطال رسم الخلافة جملة[6]، ونودي في الأسواق والأرباض؛ ألَّا يبقَ بقُرْطُبَة أحد من بني أُمَيَّة، وألا يكنفهم أحد من أهل المدينة، وانتهى بذلك أمر بني أُمَيَّة في الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم[7]، وأثَّرت تلك الواقعة تأثيراً بالغاً في فكر ابن حَيَّان، وجعلته يتابع مصير دويلات الطوائف، ويرصد العديد من الوقائع، وركز على انفراط وحدة الأندلس وتفرُّق ملكها إلى دويلات طائفية[8]، واقتسامهم ألقاب الخلافة؛ فوصفهم ابن حَيَّان بأنهم: «أُمراء الفرقة الهمل[9]الذين هم ما بين فشل وَوَكَل»[10].

أما في قُرْطُبَة فقد اجتمع كبار أهلها بعد إلغاء الخلافة، وأسندوا الأمر إلى ابن جَهْوَر، وكان مشهوراً عندهم بجدارته وكفاءته لتقلد هذا المنصب[11]، وابتكر لأهل قُرْطُبَة نظاماً جديداً للحكم قائماً على الشورى، ورأى ابن حَيَّان أنه لم يستبد بالسلطة كما استبد غيره من ملوك الطوائف، وإنما كون مجلساً للحكم من شيوخ أهل قُرْطُبَة وانتخب أميناً لهذا المجلس، وكان لا يصرِّف أمراً إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء[12]، وكان من جراء ذلك أن اختار ابن حَيَّان المقام في قُرْطُبَة في ظل الجَهاوِرَة؛ لأنهم في نظره خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره، وفيها استطاع أن يعبِّر عن سلبيات المجتمع الأندلسي؛ خاصة بعد تمزق الأندلس على هذا النحو، وقد انتقد ملوك الطوائف في عصره؛ خاصة في تربُّص بعضهم لبعض، واستعانتهم بالنصارى لتنفيذ مخططاتهم.

وعلى الصعيد الاقتصادي وبعد انهيار الخلافة ثم سقوطها حدثت الانتكاسة وعم الكساد الاقتصادي[13] وتدهور العمران، وحفل العصر بالأزمات إلى حدٍّ المجاعة وأفل نجم قُرْطُبَة عمرانياً وبشرياً، وصور ابن حَيَّان الوضع قائلاً: « ... وطمست أعلام قصر الزهراء[14]... فطوي بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها؛ إذ كانت جنة الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فارة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمروذ، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت»[15].

وتحولت المدن التجارية المزدهرة إلى قلاع وحصون عسكرية[16]، وهو الأمر الذي لقي تنديد ابن حَيَّان، ويشيع ذلك في صفحات كتابه «المتين» ومثال ذلك ما أشار إليه في فطنة بالغة عن سوء الأحوال الاقتصادية نتيجة الوضع المتردي في بمدينة بَطَلْيَوْس[17] نتيجة النزاع بين المعتضِد بن عَبَّاد والأَفْطَس، فقال: «بقيت بَطَلْيَوْس مدةً خالية الدكاكين والأسواق من

(١) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، مرجع سابق، ص ٥٣٤.

(٢) محمود إسماعيل: إشكالية المنهج، ص ١٦.

(٣) للمزيد راجع: المقتبس (أنطونيا)، ص ٦٧ – ١٣٣ – ١٣٤.

(٤) بنو حمُّود: من ملوك الطوائف في الأندلس، وقد سُمِّيت على اسم مؤسسها حمُّود، من نسل إدريس بن عبد الله؛ أي أنهم من الأدارسة، راجع، ابن بسام، تحقيق سالم البدري: ١ / ٦٠، نقلاً عن ابن حيان، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، ص ٤٣ – ٤٤.

(٥) حُسَين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥م، ص ٨٠.

(٦) راجع، الحُمَيدي: الجذوة، ص٢٨، والضَّبي: بغية المتلمس، ص٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب: ٣/ ١٤٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٨.

(٧) سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، ص ٣٦٣.

(٨) ونوجز المسألة في ما يلي: قُرْطُبَة: يحكمها بنو جَهْوَر (٤٢٣ هـ – ٤٦٠هـ)، وإشبيلِيَة: بنو عباد (٤١٤ – ٤٨٤هـ)، غرْناطة: بنو زيري (٤٠٣ – ٤٨٣هـ)، وطُلَيطِلَة: بنو ذي النون (٤٢٧ – ٤٨٧هـ)، وبَلَنْسِية: العامريون (٤١٢ – ٤٧٨هـ)، وسَرَقُسْطة: بنو هود (٤١٠ – ٥٢٦هـ).

(٩) الهمل: المتكاسلون المتوانون.

(١٠) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري): ٣/ ١١٧.

(١١) دوزي: ملوك الطوائف. ترجمة كامل كيلاني، ط١، مكتبة عيسى الحلبي ١٩٣٣م، ص ١٠، ١١.

(١٢) راجع، ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري):١/ ٣٧٤ ؛ حيث يقول: «فعجب ذوو التحصيل للذي أراه الله فى صلاح الناس من القوة، ولَمَّا تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقوَ جباية، وأمر الله – تعالى – بين الكاف والنون».

(١٣) Miguel Asin Palacios: «Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al–Andalus. 1934. 1. p. vol. 2 (1934) p. 40.

(١٤) الزهراء: تقع شمال غرب مدينة قُرْطُبَة، وعلى بعد حوالي ستة أميال، ابن غالب: فرحة الأنفس ص٣١ – ٣٤، الحِمْيَري: الروض المعطار، ص ٢٨ –٣٢ .

(١٥) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري):١/ ٢٧٢.

(١٦) أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، دمشق: [د.ن]، ١٩٧٤م، ص ٢٤٢

(١٧) بَطَلْيَوْس: بناها الأمير عبد الله على يد عبد الرحمن بن مروان الجليقي وهي تقع غربي قُرْطُبَة، ياقوت الحموي: معجم البلدان: ١ / ٤٤٧.

استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عَبَّاد هذه بفتيان أغمارٍ إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذٍ. فاستدللت بذلك على فشو المصيبة»[1]؛ فتوقع برؤية ثاقبة عما سيحل بعد ذلك من كوارث اقتصادية.

ولجأ الملوك من أجل إرضاء نزواتهم وتحقيق لذاتهم إلى إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب[2]؛ فانعكس ذلك الوضع في كتابات ابن حَيَّان؛ فوصف ذلك الوضع المتردي في مرارة واضحة بقوله: «فما أقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها؟ هل هي إلا مشفية[3] على بوارها واستئصالها؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء:

أمورٌ لو تدبَّرها حكيم إذن لنهى وهبب ما استطاعا»[4]

وعلى الصعيد الاجتماعي شهد المجتمع الأندلسي في ظل الخلافة والحِجابة مرحلة المزج والانصهار بين العرقيات المتنوعة ليحدث نوع من التجانس لم تشهده الأندلس من قبل؛ إلا أن السخائم العرقية والإقليمية عادت مرة أخرى لتؤثر سلبياً في هذا التجانس، ولتمزق وحدة الأندلس من جديد[5]بظهور النزعة العنصرية؛ ولذا لم يغب عن ابن حَيَّان أيضاً أن يعبر عن تلك النزعة في الأندلس في تلك الفترة؛ وذلك من خلال حديثه عن اجتماع خازنَي بيت المال في عهد الأمير محمد، وهما «عبد الله بن عثمان بن بسيل، ومحمد بن وليد بن غانم «واستدعى الأمر أن يكتب ابن غانم كتاباً قدم نفسه فيه، فما كان من ابن بسيل إلا أن قال له: «والله لا أطبع كتاباً تتقدمني أنت فيه، وأنا شامي وأنت بلدي»[6].

ويشير أيضاً إلى الفتنة بين اليمنية والمضرية، فقال: «وكان ابتداء فتنة أهل الجزيرة وانبعاثها بالمعصية بين اليمانية والمضرية أن أطلق بعضهم على بعض الغارات واستحلوا الحرمات وتخلقوا بأخلاق الجاهلية، واتخذوا الحصون والمعاقل المنيعة فارتقوا اليها وأذلوا البسائط»[7].

وقد كانت هناك طبقة الأُمراء والحكام وذوو الثراء وأصحاب الوظائف الكبرى، وكانوا يمتلكون ثروات طائلة تمثلت في الضياع الواسعة، والقصور الخاصة، وتفننوا في صنوف من البذخ[8]، والناظر إلى روايات ابن حَيَّان يجد أن الغالب عليها تصويره مثالب الطبقة الحاكمة، ولم يغب عنه تصرفات الحكام وشغفهم بالبناء إلى حد الإسراف والبذخ ويتضح هذا فيما نقله عن معاوية بن هشام عند ذكره لقيام الأمير محمد بتحسين قصر الخلافة فيقول: إنه بلغ من تحسينه إياه مبلغاً «تَوَقَّتْ به الكمال، واكتسبت الجمال، فشفيت به أدواء النفوس، وضرب بحسنها المثل»[9].

كما رصد ابن حَيَّان انحراف الحُجاب والوزراء، واستطاع أن يلقي الضوء حول طبيعة حياة الأمراء من خلال المعايشة، وقد أشار إلى ما أصاب أهل الأندلس من نفاق وقلة وفاء وميل مع من يبقى في المنصب، كما لم يغب عنه أن يصور بعض تجاوزات الولاة وظلمهم، كما صور دور الجواري في بلاط حكام الأندلس، وانتقد ما كُنَّ يقمن به من دسائس. وهذه الرؤية النقدية ما كانت لتحدث لولا ظروف عصره التي دفعته إلى ذكر ما وصل إليه حال الأندلس من انقسام وتفكك[10].

كما رصد سوء الأحوال الاقتصادية المترتبة على المنازعات والحروب خاصة بين ملوك الطوائف؛ فنراه يصف ما حدث بمدينة بَطَلْيَوْس نتيجة النزاع بين المعتضِد العَبَّادي والأَفْطَس بأنها «مصيبة»؛ حيث «خلت الدكاكين والأسواق». ويصف القسوة التي استُخدمَت في جمع الضرائب غير الشرعية بمدينة شاطبة بكل أنواع العنف حتى تساقطت الرعية ولم تصمد في وجه هذا الظلم». ومن هنا يتضح مدى اهتمام ابن حَيَّان برصد الجوانب الاقتصادية دون الاقتصار على الجانب السياسي فقط.

مما سبق يتضح لنا أن كتب ابن حَيَّان تناولت بتفصيل دقيق تاريخ المسلمين في الأندلس سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً؛ وهو ما أهَّله لأن يكون حامل لواء التاريخ في الأندلس.

(١) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق سالم البدري): ١/ ٢٣٩، نقلاً عن ابن حَيَّان.
(٢) الكُوَرة: الإقليم أو الصقع أو البقعة يجتمع فيها قرى ومحال.
(٣)مشفية : أي مشرفة.
(٤) ابن بَسَّام: الذخيرة (تحقيق البدري): ٣/ ١١٧.
(٥) محمود إسماعيل: الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي،ط١، منشورات الزمن، المغرب ٢٠٠٨م، ص ٧٠.
(٦) ابن حَيَّان : المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ١٣٧.
(٧) ابن حَيَّان : المقتبس (تحقيق أنطونيا)، ص ٥٢.
(٨) عادل يحى عبد المنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ص ٧٩.
(٩) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٢٢٧.
(١٠) عادل عبد المنعم: النقد الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٩٥.

قراءة في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم)

للدكتور الجابري

د. غازي التوبة

طرح الدكتور محمد عابد الجابري عدداً من الآراء في ما يتعلق بالتراث؛ فكتب عدداً من الكتب عن العقل العربي، وعن مقدمة ابن خلدون، وحقق جميع كتب ابن رشد وكتب عنها دراسات، وآخر شيء ألّفه كان عن القرآن الكريم، واشتمل أربعة كتب، الأول: (مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء الأول في التعريف بالقرآن)، والثلاثة الأخرى سماها (فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)؛ وقد طرح أشياء متعددة في هذه الكتب الأربعة حول أمور متعددة في العقيدة والتشريع والسيرة والسياسة... إلخ. وقد جاء كثير منها في منتهى الخطورة، وتكونت خطورتها من أن صاحبها مطّلع على التراث بشكل واسع من جهة، ومطّلع كذلك على علوم الحضارة الغربية وفلسفتها بشكل تفصيلي من جهة ثانية، ومستهدِف لتغيير أوضاع الأمة باتجاه النموذج الغربي من جهة ثالثة.

وللحق فإن استعراض الأفكار الخاطئة التي طرحها (الجابري) والرد عليها يقتضي عدة مقالات، وسأجتهد أن أرد على بعضها في هذا المقال، وهي الأفكار الأولى التي أوردها الجابري في الفصلين الأوليين من الكتاب الأول: (مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء الأول في التعريف بالقرآن الكريم).

تحدث الجابري في ذينك الفصلين عن الأوضاع التي كانت موجودة لحظة نزول الوحي على الرسول ﷺ، وأشار الجابري إلى انتشار التوحيد في مختلف المناطق المحيطة بالجزيرة العربية: مصر، وبلاد الشام، والعراق، وغيرها، وأشار إلى عدة فرق انشقت عن المسيحية واعتبرت المسيح - عليه السلام - إنساناً وليس إلهاً كما ادَّعت المسيحية الرسمية، ومن هذه الفرق فرقة (الأبيونية)، وقال الجابري: (إنهم كانوا يحفظون السبت اليهودي، والناموس الموسوي حفظاً وافياً، وينادون بأن الختان ضروري للخلاص، وأن الناموس القديم فرض على جميع المسيحيين).

ونقل الجابري من مصادر في موسوعة تاريخ أقباط مصر، فقال: (أصبح الأبيونيون جماعة كبيرة العدد انتشروا أصلاً في منطقة بابل وفي فلسطين والأقطار المجاورة وامتدوا أيضاً إلى روما وإلى جميع مراكز الشتات اليهودي) ونقل عنهم أيضاً أنهم (اتهموا بولس الرسول (صاحب نظرية التثليث) باتهامات مُرَّة وقاسية، ووصفوه بأنه متمرد ومارق عن الناموس، وأنكروا سلطانه ورفضوا رسائله، واكتفوا باستعمال النص العبراني لإنجيل متَّى ولا يعيرون الأناجيل الأخرى أهمية تُذكَر)[1].

ورجَّح الجابري أن تكون فرقة (الأبيونيين) هذه هي الفرقة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله - تعالى -:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]

وهي الفرقة التي أشار القرآن الكريم إليها في سورة الصف؛ حيث قال - تعالى -:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ﴾. [الصف: ١٤]

وقد أشار الجابري إلى فرقة أخرى ثارت على التثليث هي (الآريوسية) نسبة إلى آريوس المولود عام ٢٧٠م، وأعلن ثورته على القول بألوهية المسيح عام ١٣٢٣م، مؤكداً بشريته، مقرراً أن الآب وحدَه هو الإله، ومن هنا وصف أتباعه (الموحدين). وقد أحدثت آراء آريوس الجريئة أزمة خطيرة على الصعيدين الديني والسياسي في العالم المسيحي، وقد انقسم الناس بين مؤيدين ومعارضين، فتولدت عن ذلك أزمة استمرت أكثر من سنتين من (٣١٨م - ٣٢٠م) تعرض خلالها كيان الإمبراطورية الرومانية لخطر الانهيار المحقق. ومن أجل وضع حدٍّ لهذه الأزمة تدخَّل الإمبراطور (قسطنطين العظيم) إلى جانب آريوس أولاً، ثم ما لبث أن عاد فوقف إلى جانب الكنيسة ورجالها، ودعا إلى عقد مجمع مسكوني في نيقية (عام٣٢٥م) لإيجاد حل لهذه المسألة، وقد قرر هذا المجمع طرد آريوس وأصحابه على أساس أنهم فرقة ضالة مبتدعة، كما وضع ذلك المجمع (قانون الإيمان) الذي كرس عقيدة التثليث. لكن أتباع آريوس استمروا في نشر مذهبهم التوحيدي في أنحاء كثيرة من الأمبراطورية البيزنطية: في سورية، وفلسطين، والأردن، والعراق، واليمن، وفي جهات مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط وبالخصوص شمال إفريقية وإسبانيا.

ثم عرض جانباً آخر من الوضع في الجزيرة العربية، وتحدث عن ظاهرتين:

الأولى: تبشير بعض الرهبان من اليهود والنصارى بقرب ظهور نبي جديد، ومن الأمثلة على ذلك الراهب بحيرى في بصرى، الذي وردت قصته في سيرة ابن إسحاق، وحديث أحبار اليهود عن ظهور نبي جديد في المدينة، وتعاليهم على القبائل العربية، وتفاخرهم بأنه سيكون من بني إسرائيل.

الثانية: الرحلة والسياحة للبحث عن الدين الحق، ومن المثال على ذلك: قصة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ومنهم أيضاً أربعة من أهل قريش نبذوا عبادة الأصنام وطلبوا دين جدهم إبراهيم - عليه السلام - وتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، وهم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث.

وتحدث الجابري عن جانب آخر من حال الجزيرة آنذاك وهي ظاهرة الحنفاء ومنهم: أمية بن أبي الصلت الثقفي من الطائف، وخالد بن سنان العبسي. ثم

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، ص٤٣.

تحدث عن شرقي الجزيرة العربية، فذكر أن هنـــاك رهباناً ظهروا: من أمثال رئاب ابن البراء الشتي، وريان بن زيد بن عمرو، وقس بن ساعدة الإيادي.

ثم استشـــف الجابـــري من رســـالة الرســـول ﷺ لهرقل إمبراطـــور الدولة الرومانية، وللمقوقـــس حاكم مصر، أن هنـــاك طائفـــة موحدة فـــي مملكتيهما بدليل أن الرســـول ﷺ أشار في رسالته إلى هرقل بأن عليه إثم (الأريسيين)، وقد اعتبـــر الجابري أن هذه العبارة الغامضة تعني أن هناك طائفة من الموحدين أتباع (آريـــوس) الذي دعا إلى التوحيد ورفض التثليث الذي أقـــره مجمع نيقية، مع أن معظم المفسرين الذين فسروا هذه العبارة مالوا إلى تفسيرها بكلمة (الفلاحين) أو (الأكارين).

ما الذي نستفيده من عرض الجابري الطويل عن (الموحدين) في الجزيرة العربية وخارجها؟ وما المسكوت عنه في حديثه الطويل ذلك؟

أبرز ما يمكن أن يقال عن هذا العرض الطويل: إن التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ هو انعـــكاس ومـــرآة للتوحيد الذي كانت تعج به الجزيرة العربية وما حولها، وهو ليس جديداً كما يتوهم الدارســـون، وقد انضمت كل هـــذه الفئات والطوائف إلى الرســـول محمد ﷺ عندما دعا إلى التوحيـــد؛ لأنها وجدت عنـــده ما كانت متمسكة به، وما كان وجودها قائماً عليه، وما كانت حياتها مرتبطة به.

وهذا الكلام قريب من كلام طه حسين فـــي مطلع القرن العشـــرين فـــي كتابه (في الشـــعر الجاهلي) عـــن أن القرآن الكـــريم أصدق تصويـــراً لواقع الجزيرة العربية من الشـــعر الجاهلي، وقريب من قول المستشـــرق جب في كتابه (المذهب المحمدي) بأن القرآن الكريم هو انعكاس لبيئـــة الجزيرة العربيـــة في عقل محمد ﷺ، والفرق بين كلام الجابري وبين كلام طه حســـين والمستشـــرق جب في الكم، فقد تحدث الجابـــري عن قضية واحدة هي قضية (التوحيد) في القرآن الكريم، لكن طه حســـين وجِبّ تحدثا عن القرآن الكريم كله.

وهذا التصوير الذي اجتهد الجابري في بلورته عـن المنطقة، وتعسـف من أجله في تفسـير بعـض آيـات القـرآن الكريم ليـس صحيحاً ولا سـليماً، واسـتند فيه علـى أحداث فردية، وسـنذكر خمسـة أدلة على خطئه في هذا التصوير:

الدليل الأول: يناقض تصوير الجابري لحال البشـــرية غداة بعثة الرســـول ﷺ تصوير الرســـول لتلك الحال؛ حيث ورد في عدة أحاديث منها ما حدثنا به عياض ابن حمار المجاشـــعي أن رسول الله ﷺ قـــال ذات يوم في خطبتـــه: «ألا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا، كل مـــال نحلتُه عبداً حلال، وإنـــي خلقت عبادي حنفـــاء كلهم، وإنهم أتتهم الشـــياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم مـــا أحللت لهم، وأَمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليـــك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغســـله المـــاء. تقرؤه نائماً ويقظان...» الحديـــث[1]، وهذا الحديث يبين فيه الرسول ﷺ حال البشرية غداة بعثتـــه، ويبين فيه أن اللـــه نظر إلى أهل الأرض غداة بعثته فمقتهم، والمقت أشـــد الغضب، وجاء مقـــت الله لأهل الأرض؛ لأنهـــم انحرفوا عن جـــادة الصواب في معرفتـــه وعبادته - ســـبحانه وتعالى - ولا شك أن تصوير الرسول الذي لا ينطق عن الهوى أشـــد دقة من كلام الجابري وغيره في تصوير حال أهل الأرض غداة بعثته ﷺ.

الدليـل الثـاني: يناقـــض تصويـــرُ الجابـــري حـــال البشـــرية غـــداة بعثة الرســـول ﷺ تصويرَ علمـــاء الأمة على مدار التاريخ، وسنأخذ مثالاً واحداً على ذلك هو العلاَّمة ابن القيم الجوزية؛ فقد أوضح ابن القيم وضع البشرية قبل بعثة الرسول ﷺ، فقال: (ولما بعث الله محمداً ﷺ كان أهل الأرض صنفين: أهل الكتاب، وزنادقة لا كتـــاب لهم. وكان أهل الكتاب أفضل الصنفين، وهـــم نوعان: مغضوب عليهم، وضالون.

فالأمـــة الغضبية هم (اليهـــود)، أهل الكـــذب والبهت والغـــدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء، وأكلة السحت والربا والزنا، أخبـــث النـــاس طوية وأرداهم ســـجية، وأبعدهم من الرحمة.

والصنف الثاني: (المثلِّثة)، أمة الضلال، وعبَّاد الصليب الذين سَـــبُّوا الله الخالق مســـبَّة ما سبَّه إياها أحد من البشر، ولم يُقروا بأنـــه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ

(١) صحيح مسلم.

كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

فهذا حال من له كتاب، وأما من لا كتاب له، فهو بين عابد أوثان، وعابد نيران، وعابد شيطان، وصابئ حيران، يجمعهم الشرك، وتكذيب الرسل، وتعطيل الشرائع، وإنكار المعاد. وأمة المجوس منهم، تفترش الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات.

وأما زنادقة الصابئة وملاحدة الفلاسفة فلا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا لقائه.

وبالجملة: فإن (دين الحنيفية لا دين لله غيره بين هذه الأديان الباطلة التي لا دين في الأرض غيرها أخفى من السها تحت السحاب) (وقد نظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب)[1].

الدليل الثالث: ظن الجابري أن التوحيد هو نفي التعدد، وأنه الإقرار بإله واحد فقط، وليس من شك بأن نفي التعدد عن ذات الله، والإقرار بوحدانيته جانب من التوحيد، لكنَّ هذه حقيقة واحدة من حقائق التوحيد الذي دعا إليه القرآن الكريم والسُّنة النبوية المشرَّفة؛ فالتوحيد يشمل عشرات الحقائق الأخرى، منها ما يتعلق بذات الله وصفاته وأسمائه، ومنها ما يتعلق بعبادته وكيفية دعائه وأوقاتها، وأفعاله وما الذي يحبه وما الذي لا يحبه، ومنها ما يتعلق بصورة علاقاته بمخلوقاته. وهناك أمور تتعلق بالألوهية والربوبية وبالشرك وأنواعه وأصنافه. وليس التوحيد فقط هو نفي التعدد عن الله - تعالى - فأين هذا التوحيد الذي عرفته كتب العقائد من التوحيد الذي تحدث عنه الجابري؟

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، فصل الأمم قبل البعثة، ص١٩.

> ليس من شك بأن نفي التعدد عن ذات الله، والإقرار بوحدانيته جانب من التوحيد، لكنَّ هذه حقيقة واحدة من حقائق التوحيد الذي دعا إليه القرآن الكريم والسُّنة النبوية المشرَّفة

الدليل الرابع: لو كان الوضع كما صوره الجابري؛ وهو أن التوحيد بخير، وأن الموحدين يعج بهم المكان والزمان، لَمَا كانت هناك حاجة إلى إرسال رسول، فقد بيَّن المفسرون في أكثر من موضع من تفسير القرآن الكريم وتاريخ الأنبياء، أن الله كان يبعث رسولاً وينزل كتاباً عندما يعم الكفر، ويستشري الضلال، ويتعمق الشرك فيبعث الله رسولاً لكي يعم النور والهدى، وهذا من رحمته - تعالى - بعباده، ومن المعلوم أن الله بعث عيسى - عليه السلام - عندما استحكم الضلال في بني إسرائيل، وهو ما ينطبق على الظروف التي أحاطت بابتعاث الرسول محمد ﷺ، فقد بعثه عندما استحكم الكفر والشرك والضلال في الأرض.

الدليل الخامس: ذكر الجابري أنه حدد لنفسه هدفاً منذ أكثر من ربع قرن عندما بدأ دراساته في الموروث الثقافي، أنه سيجعل المقروء معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت نفسه، هذا في مقدمة كتاب (نحن والتراث)، وهو قد وضح هذا الكلام في مقدمة كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم)؛ فماذا كانت نتائج هذا الهدف في جعل المقروء معاصراً لنفسه، ومعاصراً لنا في الوقت نفسه؟

لقد كانت النتيجة الأُولَى لجعل القرآن الكريم معاصراً لنفسه هي الخلاصات التي توصل إليها، والتي أشرنا إليها في السابق؛ وهي اعتباره أن التوحيد كان منتشراً في الجزيرة العربية وما حولها وفي الدولة الرومانية وفي مصر عند الأقباط وفي دولة الحبشة... إلخ. وهو ما يؤدي إلى أنَّ القرآن الذي جاء به محمد ﷺ كان انعكاساً للبيئة المحيطة به، وأشرنا إلى أخطاء هذا القول في سطور سابقة.

أما نتيجة جعل القرآن الكريم معاصراً لنا فهو ما جاء في نهاية الفصلين الأوليين من الكتاب؛ وهي دعوته إلى قيام مصالحة تاريخية بين حفدة إبراهيم الخليل - عليه السلام - كما تمت تلك المصالحة في السابق؛ وهي التي يتصور فيها الجابري أن ما قام به الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرناً هو تجميعٌ للموحدين المعاصرين له، وهي الآن يمكن أن تكون كذلك؛ لكن نقول له: إن دور الرسول ﷺ في السابق لم يكن تجميعاً لموحدين موجودين بل كان بناءً لموحدين على أسس إلهية جديدة لم تكن عندهم، وكان تأسيساً لتوحيد جديد في عشرات المجالات؛ لذلك يجب أن تكون هذه المصالحة بالصورة التي أسس لها الرسول ﷺ وهي العودة إلى ما دعا إليه إبراهيم الخليل؛ وهو توحيد الله، وكما قال الرسول ﷺ في رسالته إلى كلٍّ من هرقل والمقوقس، ناقلاً قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ لذلك فإننا نقول للجابري وأمثاله: إن تجميع أحفاد إبراهيم أمر طيب، لكن هذا التجميع يجب أن يتم على التوحيد الذي دعا إليه محمد ﷺ، وإلا فإنه لا قيمة له.

مظهر وجوهر

سارة بنت محمد حسن

تهادت الفتاة في ثقة، لتقتحم القاعة رافعة الرأس.

التفتت إليها العيون في حسد وانبهار، فأدارت عينيها في الجمع بنظرة قوية وقد اتسعت ابتسامتها في غرور. ثم اختارت مكاناً عالياً لتجلس فيه واضعة ساقاً فوق أخرى...

فهل كانت جميلة؟

سؤال محير حقاً؛ فملامحها عادية وقد تبدو للمتأمِّل قبيحة؛ لكنها كانت ترتدي ثوباً رائعاً من الحرير المرصع بالجواهر التي تلألأت تحت الأضواء، وقد تحلَّت بالذهب والماس وتضوعت بالعطر الثمين.

فهل أثَّر المظهر في الجوهر؟

ترددت في مشيتها عندما وقعت عيناها على تلك الفخامة التي غرقت فيها القاعة الفسيحة.

كانت تود لو تنشق الأرض فتحتويها وتخفيها عن تلك العيون التي تطلعت إليها في عدم اكتراث ثم مرت من فوقها كأنها لا شيء.

كانت بارعة الجمال بكل المقاييس؛ ولكن تلك البراعة اختفت لشدة سطوع الأضواء المبهرة التي راحت تعبث هنا وهناك لتتألق فقط على أسطح اللآلئ الثمينة.

رداؤها الرخيص والحليُّ المتآكل بفعل الصدأ ساهما في جعل جمالها شحوباً ورشاقتها ترهلاً. فخفضت بصرها لتدس النقود في يد العامل وتتناول ما اشترته في سرعة لتغادر المكان غير معقبة.

فهل أثر المظهر في الجوهر؟

إنهما (مظهر وجوهر)، وكلاهما يؤثر في الآخر تأثيراً واضحاً يراه كل من ألقى البصر وهو شهيد؛ فالشعور بالثقة أو الغرور أو الدونيـــة أو المرح أو الحزن... إلخ لا ينشـــأ منفصلاً عن مظهرنا الخارجي، كما أن مظهرنا الخارجي لا ينفصل عن تلك المشـــاعر الداخلية؛ فمن شـــعر بشـــيء من الضيق أو الحزن فقام واغتسل وتعطر وارتدى ملابس فضفاضة يشـــعر بأن تلك المشاعر خفتت قليلاً، بل قد تذهب تماماً بهذه الأفعال البســـيطة، كما أن من يرتدي ملابس جديدة وأنيقة لا ريب أنه سيشـــعر ولو بشيء من السعادة والمرح.

وقد أباح الإســـلام حُسْـــن المظهر؛ بل حـــث عليه بلا إســـراف ولا تَعَدٍّ[1]. قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبـــه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حســـناً. قال ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطـــر الحق وغمط الناس»[2]. وقال ﷺ: «البســـوا ثياب البياض؛ فإنها أطهر وأطيب»[3].

وقال ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشـــاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتـــف الإبط، وحلق العانة، وانتقـــاص الماء. قال زكرياء: قال مصعب: ونســـيت العاشـــرة. إلا أن تكون المضمضة»[4]. ولا يخفى أن كل هذه التوجيهات متعلقة بنظافة المظهر.

هناك كثير من التشريعات الإسلامية المتعلقة بالمظهر مثل الأمر باللحية للرجال. ومن التشريعات التي تظهر فيها علاقة الظاهر بالباطن: حجاب المرأة المسلمة؛ فقد أمر الله – تعالى – النســـاء بالحجاب ونهاهُنَّ عن إبداء الزينـــة، وذلكما الأمـــر والنهـــي متعلقان بالمظهـــر. وبيَّن اللـــه – تعالى – أن علة هذا الأمر طهارة القلب للرجال والنســـاء وهو من شؤون الباطن، فقال – عز وجل –: ﴿وَإِذَا سَـــأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْـــأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ومما يؤسَف له في الواقع شعور بعض الناس بالحرج والضيق من الحجاب، وإن دل هذا على شـــيء فإنما يـــدل على خللٍ في القلب؛ لأن هذا الترابط القوي بين المظهر والجوهر يســـتلزم لمن شـــعر بالمحبـــة والرضى والقبول بما أمر اللـــه – تعالى – به، أن يشعر بالفرح والسرور والفخر عند تطبيقه الأمر فيسارع للطاعة محبة لله وشـــوقاً لما عنده – سبحانه – مثلما فعلت نساء الأنصار على عهد النبي ﷺ؛ فعن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: «لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، خرج نساء الأنصار كأنَّ على رؤوسهن الغربان من الأكسية»[5]. فيقول المؤمن بلسان حاله ومظهره:

وممـــا زادنـــي فخـــراً وتيـــهاً
وكـــدت بـأخمـصـي أطـــأ الـثـريـا
دخـــولي تحـت قـولـك: يـا عـبـادي،
وأن أرســـلـــت أحمـــدَ لـي نـبـيـا

وقد اهتم الإسلام بتمييز الشخصية المسلمة في مظهرها عن غيرهـــا؛ فأمر النبي ﷺ قائلاً: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالِفُوهم»[6]، وقال ﷺ: «جزوا الشـــوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»[7].

فنجد أن مبدأ مخالفة الكفار في الأعمال الظاهرة أصبح من شعائر الإسلام؛ فمثلاً حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رســـول الله! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال رســـول اللـــه ﷺ: «فإذا كان العام المقبل – إن شـــاء الله – صمنا اليوم التاسع». قال ابن عباس راوي الحديث: فلم يأتِ العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ[8].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[9].

وقال ﷺ: «إن تســـوية القبور من السُّـــنة، وقد رفعت اليهود والنصارى فلا تشبهوا بهما»[10].

وقـال ﷺ: «خالفـوا اليهـود؛ فإنهـم لا يصلـون في نعالهـم ولا خفافهم»[11].

وأهل السُّـــنة المتبِعون للعقيـــدة الإســـلامية الصافية التي

(١) أي: بمخالفة المأمور به شرعاً؛ فالجمال (كل الجمال) هو ما أمر الله – تعالى – به في مظهرنا.
(٢) رواه مسلم.
(٣) صحيح ابن ماجة للشيخ الألباني.
(٤) رواه مسلم.
(٥) صححه الألباني في صحيح أبي دواد.
(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٧) رواه مسلم.
(٨) رواه مسلم.
(٩) حسنه الألباني في صحيح أبي داود.
(١٠) صححه الألباني في أحكام الجنائز.
(١١) صحيح الجامع.

اغترفوهـــا من ينابيعها الأصلية عن ســـادات الصحابة والتابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين من العلماء الربانيين، يعتقدون أن الإيمـــان علْم القلـــب وعمله، وقول اللســـان، وعمل الجوارح، ويجعلون ما في القلب مســـتلزماً لقول اللســـان وعمل الجوارح، وهذه العبارة تختلف عـــن مجرد قولنا: إن عمل الجوارح ثمرة لما في القلب؛ لأن الاســـتلزام يعني ضرورة وقوعه واستحالة عدمه بالكلية. أما الثمرة فقد تقع أو لا تقع؛ فأهل السُّـــنة يســـتدلون بالظاهر على الباطن ويجعلون الظاهر أمارة على ما في الباطن: إن كان خيـــراً في باطنه فلا بد من خير في ظاهره، وإن كان غير ذلك فلا بد أن ينضح على الظاهر ويُرى أثره[1].

ومما يدل على تأثير الباطن في الظاهر والعكس، ما كان فيه المنافقون على عهد رســـول الله ﷺ؛ فقد كانوا يشهدون الصلاة خلفه ﷺ تقيَّة ونفاقاً، فمـــا تزيدهم صلاتهم إلا كفراً وإعراضاً، وكان ســـماعهم للقرآن غضاً طرياً من فم النبي ﷺ لا يزيدهم إلا عمىً. قال – تعالى –: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُـــورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِـــرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًـــا إِلَى رِجْسِـــهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]، وقال – تعالى –: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَـــوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِـــيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾. [فصلت: ٤٤]

فكان لا بد أن ينفلت منهم بعضُ ما يخفون. قال – تعالى –: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَـــيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [البقرة: ١٤] كما لم يكن سمتهم في ما يأتون من الخيرات مشـــابهاً ولا حتى مقارباً لســـمت المؤمنين. قال – تعالـــى – فيهم: ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ [التوبة: ٥٤]، وكانت لهم صفات يُعرفُون بها، منها ما جاء في قوله – تعالى –: ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّـــى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال – تعالـــى –: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَـــقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبـــة: ٤٩]، وقال – تعالى –: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِـــيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال – تعالى –: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَـــعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِـــدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْـــلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَـــادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٥]، فحتى في نفاقهم ما استطاعوا أن يُحْكِموا التظاهر؛ لأن الباطن ينفلت مما شُـــدَّ عليه. بخلاف من امتلأ قلبه محبة لله ورسوله؛ فإنه لا بد أن يظهر ذلك في سمته وهديه الظاهر ولا تصح دعوى المحبة بغير ذلك. قال – تعالى –: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـــهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ لأنه من المحال أن يمتلئ قلبٌ محبـة وقبـولاً وخضوعاً؛ ولا يترجم كل ذلك إلى أفعال بلا عذر؛ فكما يقال: الصب تفضحه عيونه.

فمن اتبع الســـنن النبوية الظاهرة رغبة فيما عند الله وجد لذلك حـــلاوة الإيمان في القلب وازداد إيمانـــه فيزيد في عمله واتِّباعـــه فيزداد إيمانه وهكذا؛ فإن زلَّ في ما نهى الله عنه بقلبه أو جوارحه تأثَّر إيمانه فيجد فتوراً في العمل.

فإذا ظهر خلل في السلوك فذاك صـادر عن خلل في الباطن بـــلا ريب؛ لأن القلب ينضح بما امتلأ به؛ كما يفوح وكاء المســـك عطـــراً ويفوح غيره بما يفوح؛ فاللســـان والجوارح مغرفة القلب، وكذلك إن شعر المرء بالوحشة وفقد حلاوة المناجاة وإخبات القلب لله فإن ذلك لم يحدث إلا لافتقاد القلب لما يتغذى به من القربات الظاهرة، وكلنا مقصِّـــرون في الطاعات وكلنا ذوي أخطاء؛ وخير الخطائـــين التوابون؛ لكن إذا أردت أن تعرف: هل يزيد إيمانك أم ينقص؟ انظر إلى قلبـــك وعملك وقولك؛ فإن وجدت خيراً فأنت في ازدياد، وإن وجدت خللاً فاعلم أنه لم ينشأ من عدم.

فإذا أراد المرء الفلاح في الداريـــن فَلْيتعاهد ظاهره وباطنه بالتقوى وَلْيكن مع مراد الله الشـــرعي منه كمـــا قال ابن القيم: (فأشـــرف الأحوال ألا تختار لنفسك حالة ســـوى ما يختاره لك ويقيمك[2] فيه فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه)[3]. قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[4].

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) أي: شرعاً لا كوناً؛ لأن المرء لا يختار لنفسه ما قدره الله عليه؛ بل هو مقهور فيه. أما الاختيار فمتعلق بما يريده الله منا شرعاً.

(٣) كتاب الفوائد، لابن القيم.

(٤) رواه مسلم.

العالم الإسلامي ومقومات البعث الجديد!

مولاي المصطفى البرجاوي
elberjaoui@gmail.com

إن الأمة لتتطلع إلى مراحل العمل والمنهجية والتأصيل؛ فلم تعد تجدي الكلمات ولا التنظير. كما أن مسؤولية صلاح أحوال الأمة والخروج بها من مآزقها، مسؤولية المسلمين جميعاً، وذلك في خطا حثيثة؛ في العقيدة، والعلم، والعقل والحكمة؛ ليتحقق للأمة وعد الله الذي لا يتخلف. وإننا لنأمل أن تكون مصائب الأمة سحابة صيف، عن قريب تنقشع؛ فالنصر للإسلام وأهله، فَلْيَقر المسلمون بذلك عيناً؛ فمن الله وحدَه نستلهم النصر والتمكين، ولله در الإمام الشافعي – رحمه الله – إذ يقول:

وَلَـرُب ضائقة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فُرجَت وكنت أظنها لا تُفرَجُ

لكن تشخيص الداء خير من التعامي عنه، أو كما قال أحد الحكماء: (الاعتراف بالمرض أرقى درجات العلاج)؛ فإذا كانت الوحدة في الصف والهدف والقيادة مطلباً شعبياً لكل الدول الإسلامية، فإن السلطات الرسمية في أكثر الدول الإسلامية والعربية رغم إدراكها لأهمية الوحدة تتغاضى عنها لأسباب خفية وأجندات تُفرَض عليها، تستهدف بقاء الحال على ما هو عليه من التفتت والخلاف. و عوامل الوحدة في العالم الإسلامي كثيرة أبرزها:

أولاً: العامل العقدي:

ويمثل هذا العامل الرابطة والوشيجة الإيمانية بين كل المسلمين من الشرق إلى الغرب؛ فالمسلم أخو المسلم، والعقيدة هي رابطة الوحدة المشتركة بين أفراد الدين الواحد، وهي الروح السارية فيهم، ولذلك كانت الأخوَّة الدينية بين المسلمين هي أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة التي قررها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالعقيدة إذن هي الأساس الذي يرتفع عليه بناء الدين فإذا قوي الأساس وخَلُص من الانحراف العقدي الذي بدأ يتلقى دعماً من قِبَل الأعداء (الشيعة في العراق، والمتصوفة في جميع مناطق العالم الإسلامي، والطرق المنحرفة: كالبهائية، والمذاهب الإلحادية: من عَلمانية وماركسية وليبرالية...)، إذا قوي ذلك الأساس سَهُل تصحيح بقية الانحرافات الأخرى، وأمكن للأمة الاجتماع واللقاء.

ثانياً: العامل الجغرافي:

معظم دول العالم الإسلامي تقع في قارتَي: آسيا وإفريقيا، ويبلغ عددها (٥٦) دولة، أراضيها متصلة بعضها ببعض، وهناك تواصل رَحِمي بين سكان هذه الدول التي فصلتها أيادي (الاستخراب) بالحدود المصطنعة الوهمية. والشعور الشعبي تجاه الوحدة الإسلامية كبير وغامر رغم السلبيات التي صنعتها الحكومات؛ فالعامل الجغرافي يدعم الوحدة المنشودة بصيغةٍ عمليةٍ ممكنة لمواجهات التكتلات العالمية.

ثالثاً: التاريخ والتراث:

فالأمة الإسلامية لها تاريخ وتراث اشتركت فيهما كل القوميات الموجـــودة في العالم الإســـلامي؛ فبنَوا صرح الحضارة الإســـلامية متعاونين متكاتفين، ولكلٍّ جهدٌ مقدَّر في بناء هذه الحضارة الكبيرة.

ثالثاً: منطق العصر:

منطق العصر الحاضر هو الوحدة والتجمع، وغضُّ الطرف عن الماضي بجراحاته وآلامه التي من الصعب أن تُنسَـــى، ولكن منطق المصلحة المشـــتركة يفرض على الجميع هذه الوحدة دون الالتفـــات إلى الماضي؛ لمواكبة متغيـــرات العصر في كل نواحي الحياة (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية).

خامساً: المصالح المشتركة:

إن المصلحة العليا للدول الإســـلامية قاطبة مشتركة، وهي انتشار الثقافة الإسلامية، وأسلمة المؤسسات والدوائر الرسمية، وهذا واجب شـــرعي على عاتق الجميع ولا بد من تجسيده على أرض الواقع، وماضي العالم الإسلامي خير شاهد على ما نقول، ودولنا في العالم الإسلامي تحتاج إلى حملة تُصلِح كل ما أُفسد، وتعرِّف المسلمين بدينهم الصحيح، بعد أن أصابهم الجهل المركَّب.

سادساً: العدو المشترك:

قـــال – تعالى –: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُـــودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُـــمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. هـــذا كلام خالق الخلق، العارف بمكنونات النفس البشرية؛ فاليهود والنصارى على الرغم من صراعهم الدموي الطويل، واتهام النصارى لليهود بقتل عيسى – عليه السلام – لكنهم في العصر الحاضر أدركوا ما يهدد وجودهم، كما أدركها سلفهم مع نبينا ﷺ؛ حيث جمعوا الأحزاب لاســـتئصال شأفة المسلمين ولكن خاب ظنهم وفَألُهم، وأيَّد الله جنده بنصر من عنده.

لقد توحدوا وتســـامحوا؛ فقد غفر بابا الفاتيكان رســـمياً سنة ١٩٦٦م لليهود وبرَّأهم من دم سيدنا المسيح، عليه السلام. وفي أيامنا هذه ســـيطرت اليهودية الصهيونية، أو الحركة الإنجيلية على وسائل الإعلام، ومواقـــع اتخاذ القرار في أكبر دولة فـــي العالم؛ فَهُم الآن يحكمون العالم، ولهم في كل حدث ومصلحة يريدون تحقيقها، وحَرِي بالمسلمين أن يتوحدوا في مواجهة هذا العدو المشترك [١]

سابعاً: الإعلاء من شأن القيم الأخلاقية الأساسية:

فالعدل والمساواة المنضبطة بضوابط الشرع والصدق والعفة وعلـــوِّ الهمة وتكافؤ الفرص بين جميع الأفراد، والمحاســـبة في ما يخص أسباب الغنى والفقر، وحســـن توزيع الثروة، والتوازن في الحقوق والواجبات، كلها قيـــم حضارية. وهنا أترك الكلمة للفيلسوف الفرنسي (جان بودان) يتحدث عن الخلافة الإسلامية العثمانيـــة في أوج عظمتها بكلمات رقراقة وكان الأَولَى أن تكتب بماء الذهب بل بماء العيون. يقول: «إنه بالجدارة وحدها يرتقي الإنسان في سلك الخدمة العامة... إنه نظـام يؤكد أن المناصب لا تُشغَل إلا بالكفاءة وحدها... إن أولئك الذين عيَّنهم السلطان في المناصب الكبرى هم في غالبهم أبناء رعاة أو أصحاب ماشية؛ فهم يعتقدون أن الكفاءة العالية لا دخل لها بالوراثة أو الميلاد... وعلى هذا: فإن الشـــرف والمناصـــب العليا والقضاء، لا يحوزها إلا من حاز كفاءة عالية في عمله متفانياً... إن هذا هو الســـبب في نجاحهم وتفوقهم على الآخرين... وهذا هو السبب في أنهم (أي العثمانيين) يوســـعون إمبراطوريتهم يومياً... إن هذه ليست أفكارنـــا؛ ففي بلادنا (أوربا) ليس الطريق مفتوحاً للكفاءة... إن النسب هو المفتاح الوحيد للترقي في مدارج الخدمة العامة» [٢].

ثامناً: الإعلام وترسيخ ثقافة الوحدة:

إن من الأدوار المهمة للإعلام دعم أشـــكال الوحدة في الأمة ومن ذلك: منظمة المؤتمر الإســـلامي، وجامعـــة الدول العربية، ورابطة العالم الإســـلامي، ومجلس التعاون الخليجي، والاتحاد المغاربي، واســـتثمار إيجابياتها ومعالجة سلبياتها بحنكة، ودعم ســـبل التعاون الثنائي بين الدول ثقافياً واقتصادياً وسياســـياً، وكذلك المساهمة في حل المشـــكلات الطارئة في هذه الأشكال الوحدوية والســـعي إلى اكتمالها، وكذلك للإعلام دور في عرض ســـبل جديدة للتعاون بين الدول والمنظمات والتجمعات في هذه الأمة وعرض تجارب التكتلات في العالـــم ونتائجها الإيجابية: كالوحـــدة الأوروبية أو منظمة الآســـيان وغيرهـــا من التجارب الناجحة؛ كي تكون أنموذجاً تســـعى الأمة لتكوين وحدة مشابهة له؛ ولو مرحلياً [٣].

(١) فتحي يكن: الوحدة فريضة شرعية وضرورة حياتية للعرب والمسلمين: المنبر نشرة أسبوعية، ٢٠٠٣/٩/٢٩م، ١٤٢٤/٧/١هـ، بتصرف يسير

(٢) بول كولز، العثمانيين في أوروبا، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص: ١٥٨ – ١٥٩.

(٣) دور الإعلام في وحدة الأمة، أ. عادل أحمد الماجد نائب مدير قناة المجد الفضائية، المؤتمر العلمي: العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق، جامعة الخرطوم – قسم الثقافة الإسلامية: ٢٣ – ٢٥ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ.

تاسعاً: توطيد اقتصاد إسلامي مستقل:

إن التشـابك المعقَّد في العلاقات الدوليـة اليوم واختلافَ الأنظمة الاقتصاديـة في العالم، الذي انعكـس أثره على أكثر المجتمعات الإسـلامية فتعددت فيها الأنظمـة الاقتصادية تبعاً للاتجـاه الذي يغلب على كل بلد،إنَّ هذا التشـابك كان له آثَاره السـلبية على وحدة الأمة الإسلامية. ولا بد من إيجاد اقتصاد إسـلامي مسـتقل ليس مرتبطاً بأي نظام آخر؛ لئلا يبقى بين الأمة فجـوات تحول دون وحدتهم. ويكون ذلك بإيجاد أسـواق مشـتركة وعملة موحَّدة وهيئة اقتصادية مشـتركة تشرف على ذلك الاقتصاد الإسـلامي المستقل. وبهذا تسـتقل عن التبعية الاقتصادية الضارة وتقيم لها وحدة اقتصادية قوية على أسـس إسلامية [1].

عاشراً: الوحدة الثقافية:

إن وعي علماء الأمة وقادتهـا، وأهمية الوحدة الثقافية في اسـتمرار وحدة الأمـة، جعلهم يتوجهون إلـى دعامتَي الوحدة الثقافية الأساسـية: القرآن والسـنة. ومن هـذه الزاوية يمكن أن نقـرر أن اهتمام علماء الأمة بنصَّي القرآن والسُّـنة لم يكن لقدسـيتهما فقط؛ ولكنه اهتمام مرتبط بوعـي أهميتهما في حفظ وحدة الأمة وتعزيزها، وتحقيق استمرار وجودها [2].

الحادي عشر: الدمج بين التربية الإسلامية والتعليم:

يعدُّ الدمج العضوي بين التربية والتعليم؛ كقناتن أساسيتين وقطبي رحى لأي تقدم أمراً مهماً. يقول عبد العزيز الشـويش: (يجب أن يكون عندنا من الشـجاعة والروح المعنوية في معالجة المناهـج التعليميـة وتطويرها ما نبني بـه حضارتنا ونواجه به أعداءنا ونسـيِّر به حياتنا ومعيشـتنا في عبودية وخضوع لله، سبحانه وتعالى)؛ ذلك أن الإسـلام يمتلك ديناميكية مؤثرة في السـلوك والقيم وبعداً تكوينياً نفسياً في المجتمعات الإسلامية، وكانـت الخصوصية الدينية العاملَ الأسـاس لتحفيز وانطلاق معظـم حـركات التحرر الوطني للشـعوب الإسـلامية. ثم إن البدايـات القويمة تبـزغ من الآفاق الواعدة بخطوات راسـخة ومؤثرة في مجالات موحدة لمنفعة الجميع، وفي قطاعات صاعدة تحقق نجاحات أكيدة وتحرِّك عجلة الأمل والانطلاق في محاور متفق عليها ومجزية للكافة، كما هو الأمر في الاتحاد الأوروبي، وَلْتَكن – مثلاً – في مجال سياسـات ونُظُم التعليم، وتنطلق منها إلى مجال البحوث والتطوير وإصلاح الهياكل والبُنَى الأساسية، ثم تتجـه بعدئذٍ إلى حقول تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ثم إلى نظم النقل والانتقال والمواصلات

ومن علامات الاستبشار بالانتصار ما تشهده الآونة الأخيرة من موجة ثانية من الصحوة الإسـلامية؛ تمثلت في عودة فكرية وثقافيـة إلى الديـن وتراجعاً للأفـكار والتنظيمـات القومية والاشتراكية والعَلمانية وانحسارها، وبدأت مرحلة إعادة صياغة للمجتمعات والعلاقات يمثل الإسـلام مكوناً مهماً فيها، وبدأت الحركات الإسلامية تنال نصيباً مهماً في الانتخابات السياسية – علـى الرغم مـن التضييق الممارَس عليها مـن قِبَل اللوبيات الضاغطـة – وتقود معظـم الأعمال الاجتماعيـة والتطوعية والعامة.

وعلى الرغـم من البناء الأوروبي والعولمة وعمليات الاندماج والتملك بين الشركات تبقى الاقتصاديات مطبوعة بخصوصيات وطنيـة قُطريَّـة واضحـة المعالـم وهـي نابعـة مـن مصـالح اقتصـادية و (جيو – إستراتيجية) متناقضة أحياناً

وإذا نادينا بضرورة إعادة توحيد العالم الإسـلامي وتوجيه العناية إلى رَتْقِ الفتق قبل اتساعه وتدارك العلة قبل استحكامها، فلا يُظَن بنا التحليق في الخيال؛ فقد تعلمنا من سيرة الرسول ﷺ كيف نتفاءل ونواجه الأزمات بروح مشرقة آملين في تحقيق نصر الله – عز وجل – بعد الأخذ بأسبابه.

نحن أمة مـا زال الخير فينـا ينبض بدماء الحيـاة ويتمتع بمقومات الوجـود، غير أنَّ وجودنا هذا اعتـراه ما يعتري وجود الأمم من ضعف وانحراف. فور تحييد الدين الإسلامي العالمي عن جميع مرافق الحياة العامة. قـال – تعالى –: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

(١) الدكتور أحمد سعد الغامدي: أثر العقيدة في تضامن ووحدة الأمة الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية.

(٢) غازي التوبة: أمتنا وشخصيتها الحضارية والتاريخية، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٠٨، شعبان ١٤٢٠هـ، ص٤٨.

رداء الوقار

أحمد الصويان

الوقار والرزانة والسمت الحسن من الصفات النبيلة التي ينبغي أن يتميز بها القدوات من العلماء والدعاة وأهل الرأي. وهي من المحاسن التي تدفع الناس إلى الاقتداء بهم والاطمئنان إلى منهاجهم، وتأمَّل معي قول الحارث بن عمرو السهمي – رضي الله عنه –: (أتيت رسول الله ﷺ وهو بمنى أو بعرفات، وقد أطاف به الناس. قال: فتجيء الأعراب، فإذا رأوا وجهه قالوا: هذا وجه مبارك)[1].

وقد كان النبي ﷺ حريصاً على أن يتميَّز الصحابة – رضي الله عنهم – بأبهى صورة، وأجمل هيئة، ويقول لهم: «إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كالشامة في الناس؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»[2]. وإذا كان حُسْن السمت الظاهر مما ينبغي التواصي به، فإن خُلُق الإنسان الذي يمشي به بين الناس من باب أَولَى، وقد ثبت من حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[3].

والوقار صفة تبعث على التزام السكينة والوداعة، ويقال في اللغة: رجل وقور؛ أي: ذو حلم ورزانة[4]. وينبغي لمن تربى في محاضن العلم والدعوة، أن تزكو نفسه، وتسمو همومه وطموحاته، وأن يظهر أثر هذه التربية في حياته كلها، كما قال الحسن البصري: (قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشُّعه، وهديه، ولسانه وبصره، وبِزِّه)[5]. ونحوه قول الإمام مالك: (إنَّ حقاً على طالب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله)[6].

وعندما تتأمل سير العلماء تقف على نماذج مشرقة من حُسنِ السمت والوقار والرزانة؛ فها هو ذا أبو داود السجستاني (صاحب السنن المشهورة) يقول عن شيخه الإمام أحمد: (لقيت مائتين من مشايخ العلم، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل؛ لم يكن يخوض فيما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكِر العلم تكلم)[7].

وهذا الوقار الذي عُرِف به الإمام أحمد جعل شيوخه يجلُّونه ويهابونه ويقدِّرون مكانته، ومما ينبغي أن يتأمَّله الدعاة والمصلحون قول خلف بن سالم: (كنا في مجلس يزيد بن هارون[8]، فمزح يزيد مع مستمليه، فتنحنح أحمد بن حنبل، فضرب يزيد بيده على جبينه، وقال: ألا أعلمتموني أن أحمد ها هنا حتى لا أمزح)[9].

وكان أحد المحدِّثين عند شيخه إسماعيل بن عليَّة،

(١) أخرجه: أبو داود، رقم (١٧٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (١٥٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد، رقم (١٧٦٢٤ – ١٧٦٢٢)، وأبو داود، رقم (٤٠٨٩)، وحسَّن إسناده ابن حجر العسقلاني في الأمالي المطلقة، رقم (٣٥)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٣٩٣)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: إسناده محتمل التحسين، وقوَّى إسناده في تخريجه لتهذيب الكمال (٤/ ١٤٣)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

(٣) أخرجه: أحمد، رقم (٢٦٩٩ – ٢٦٩٨)، وأبو داود، رقم (٤٧٧٦)، وحسنه لغيره الأرنؤوط في تحقيقه للمسند، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٣٩٩٦).

(٤) لسان العرب، مادة (وقر): (١٥ / ٣٦٥).

(٥) الزهد لابن أبي عاصم: (١ / ٢٨٥)، وشعب الإيمان: (٢ / ٢٩١).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: (١/ ١٥٦).

(٧) حلية الأولياء: (٩ / ١٦٤)، وتاريخ دمشق: (٧ / ٢٥٢).

(٨) إمام ثقة، من كبار المحدثين، انظر ترجمته في تهذيب الكمال: (٣٢/ ٢٦١ – ٢٧٠).

(٩) حلية الأولياء: (٩ / ١٦٩)، ومناقب الإمام أحمد (ص٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١١ / ١٩٤).

فتكلم إنسان، وضحك بعضهم، وثَمَّ أحمد بن حنبل، فأتوا إسماعيل فوجدوه غضبان، فقال: (أتضحكون وعندي أحمد ابن حنبل؟)[1].

فإذا كان هذا التقدير من شيوخه، فإن تقدير تلاميذه، وعامة الناس من حوله من باب أَوْلى.

ومع ذلك فإن الحسنة منزلة بين السيئتين؛ فليس الوقار المقصود يعني الفظاظة والغلظة وجفاء الطبع، وأن يكون العالم أو الداعية عابس الوجه مقطِّب الجبين؛ إذ ليس ذلك من محاسن الأخلاق، ولا من علامات الشرف والسؤدد الذي ينبغي أن يتحلى به الدعاة؛ وإنما المقصود الترفع عن الفحش والبذاءة، والبعد عن الخفة والسفه وقد كان النبي ﷺ يضحك، ويمازح أصحابه – رضي الله عنه – لكنه لا يقول إلا حقاً[2].

ذلك أن الوقار يُقصَد به ترفُّع الداعية عن اللهو وسفساف الأمور، والمزاح العابث[3]، والاشتغال بما لا فائدة فيه: كالاشتغال بتوافه الأمور، والإفراط في التنزه، والسمر، واتباع الصيد[4]، والتشجيع الرياضي، والتعصب القَبَلي... ونحوها.

(١) مناقب الإمام أحمد: (ص٦٨) وسير أعلام النبلاء: (١١ / ١٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد، رقم (٨٤٨١ – ٨٧٢٣)، والترمذي رقم (١٩٩١)، وقال: حسن صحيح، وقوى إسناده الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(٣) قال الخطيب البغدادي: (يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعبث والتبذُّل في المجالس بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر، وإدمان المزاح، والإكثار منه. فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك تضع من القدر، وتزيل المروءة). الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: (١/ ١٥٦).

(٤) قال رسول الله ﷺ: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل»، صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٦٠٠٠)، وقال ابن حجر في حكم الصيد: (يباح، فإن لازمه وأكثر منه كره؛ لأنه قد يشغله عن بعض الواجبات وكثير من المندوبات). فتح الباري: (١٢/ ٦٠٢).

وإني – والله – لأعجب أشد العجب من صاحب رسالة يُقتَدَى به كيف تطيب نفسه بهدر أوقات طويلة في تلك الأمور التي أقل ما يقال عنها: إنها لا تليق بالرواد المصلحين[5]. وقد رأيت بعض فضلاء الدعاة إذا خَلَوا بخواصهم أو أقرانهم توسعوا في الضحك، والممازحة؛ حتى يبلغ بهم الأمر أحياناً إلى الخروج عن حدِّ الوقار والاعتدال، ولعل الحافظ ابن الجوزي يشير إلى أمثال هؤلاء بقوله: (رأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلب، وبدَّد تفريطهم ما جمعوا من العلم، فقلَّ الانتفاع بهم في حياتهم، ونُسُوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد أن يلتفت إلى مصنفاتهم)[6].

وأحسب أن التوازن والاعتدال في شخصية الداعية يحفظ له هيبته وقدره عند الناس، ويزيد من بركته وفضله في دعوته.

إن مشروع النهضة والتجديد الذي يحمله الدعاة والمصلحون يُعرَف من خلال سيرتهم العملية؛ فالواقع الشخصي الذي يشاهده الناس هو عنوان ذلك المشروع، وهو الذي يعبِّر بجلاء عن صفائه واستقامته، ولهذا كان أسمى ما يرتديه الداعية أمام نفسه وأمام الناس رداءَ الصدق والوقار.

(٥) قال ابن الجوزي: (ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم) تلبيس إبليس (ص ١٣٠).

(٦) صيد الخاطر: (ص ١٤٤).

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

Badr: 0508948947